موسوعة

عالم المخابرات

كل شيء عن الجاسوسية والاستخبارات في العالم

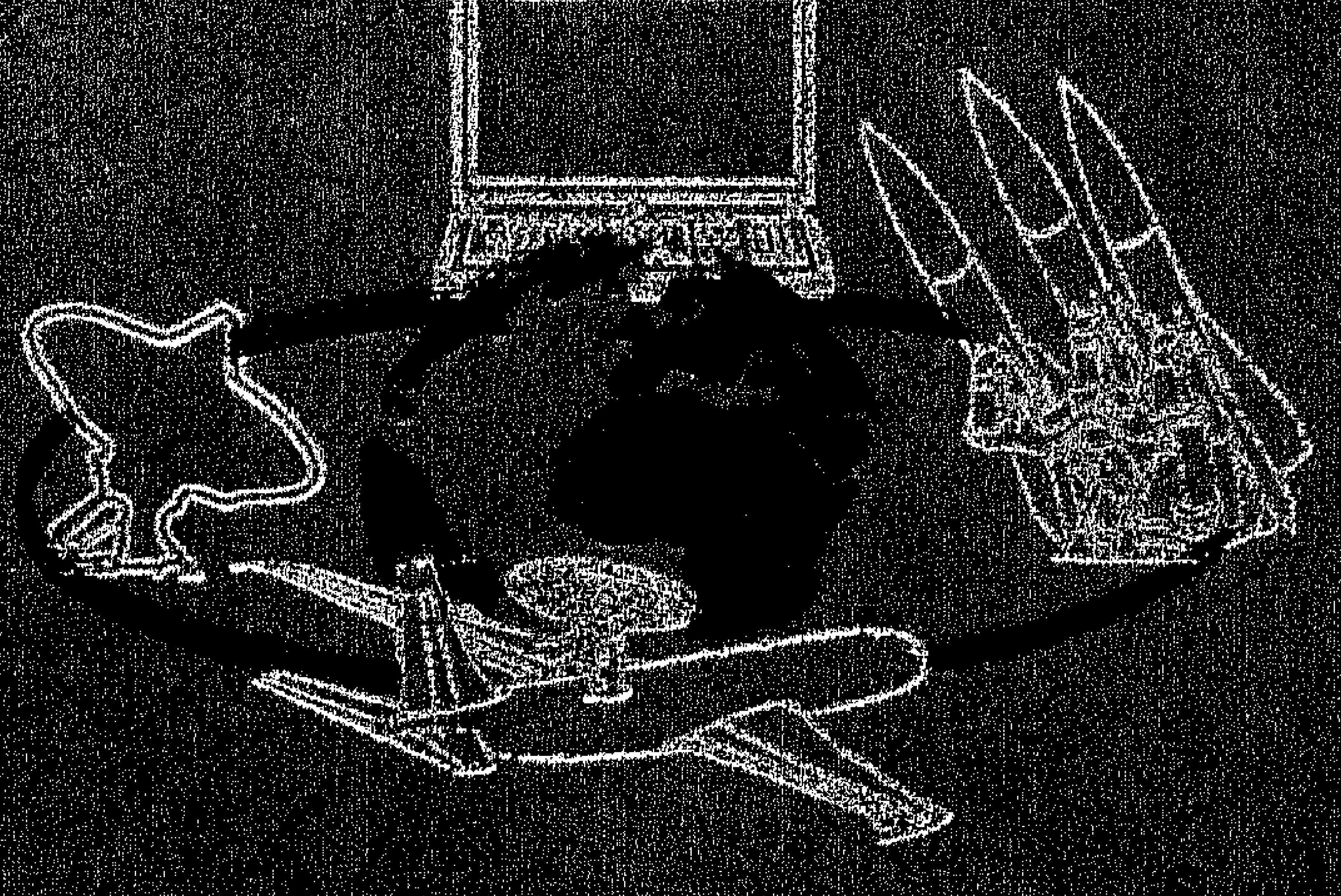

NOBILIS

موسوعة عَالَم المخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العَالَم

الإستخبارات في الدُّول العربيَّة (٢)

أسعَد مفرِّج

ولجنة من البَاحثين

مَوسُوعَة

عَالَم المُخابَرات

كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبارات في العَالَم

الجزء الثَّالث عشَر

الإستخبارات في الدُّول العَربيَّة (٢)

NOBILIS
MAISON D'EDITION

جميع الحقوق محفوظة للناشر

٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	:	عَالَـــــم المُخابَرات كُلُّ شيء عن الجاسوسيَّة والاستخبَارَات في العَالم
إسم الكِتَاب	:	الإستخبَارَات في الدُّول العَرَبيَّة (٢)
الجزء	:	الثَّالث عشَر
المؤلّف	:	أسعَد مفرِّج ولجنَة من البَاحثين
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مَكَان النَّشر	:	بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

يُمنع نسخ أو اقتباس أيّ جزء من هذه المجموعة أو خزنه في نظام معلومات إسترجاعيّ أونقله بأيّ شكل أوّ أيّ وسيلة إلكترونيّة أو ميكانيكيّة أو بالنسخ الفوتوغرافي أو التسجيل أو غيرها من الوسائل، دون الحصول على إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

المخابرات السوريّة وعمليّة اعتقال إيلي كوهين

"إيلي كوهين"، يهوديّ ولد في مصر في ١٦ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٢٤، وتمّ إبعاده بعد العدوان الثلاثيّ في عام ١٩٥٦ حيث استقرّ بإسرائيل، وانضمّ للموساد، ونال تدريبًا خاصًّا على عمليّات التخريب وصناعة المتفجّرات والقنابل الموقوتة من المواد البسيطة المتوفّرة، كما تدرّب على أعمال القتال المختلفة، وفكّ الشيفرة، وتشغيل أجهزة اللاسلكي، واستخدام الأخبار السريّة، وكيفيّة إخفاء الرسائل... وغيرها من المهارات التي يجب أن يتمتّع بها الجاسوس المكلّف بالمهامّ الخطرة. وكان دور إيلي كوهين هو اختراق المجتمع السوري والحصول على الخطط والأسرار الحربيّة، وقد تمّ تغيير اسمه إلى "كامل أمين ثابت"، وتستّر بصفته رجل أعمال، واستطاع أن يتسلّل وفق الخطّة الموضوعة داخل مجتمع الصفوة السوريّ، ما مكّنه من التعرّف على التحصينات الحربيّة والمخطّطات الاستراتيجيّة لسوريا.

إلا أنّ هذا العميل الماهر والمدرّب على أعلى المستويات، لم يكن بعيدًا عن متابعات أجهزة الأمن السورية اليقظة، والتي داهمت غرفة نومه في كانون الثاني ـ يناير ١٩٦٥ في دمشق، وهو يستعدّ لإرسال إشارة لاسلكيّة إلى تلّ أبيب، وسقط... وحوكم وأُعدم ولم تستطع إسرائيل إنقاذه بالرغم من الضغوطات الدوليّة على سوريا[١].

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٦٤.

يشير البعض إلى أنّ المخابرات المصريّة كانت وراء عمليّة اعتقال كوهين في سوريا. إلاّ أنّه في الواقع أنّ العقيد أحمد سويداني الذي تولّى رئاسة المخابرات السوريّة في عام ١٩٦٤، وهو من المقرّبين جدًّا من الرئيس أمين الحافظ، قد لعب دورًا هامًّا وأساسيًّا في إلقاء القبض على الجاسوس الإسرائيليّ في سوريا، حتّى أنّه شارك شخصيًّا في عمليّة المداهمة والاعتقال.

لقد كان السويداني متفوّقًا بين رفاقه الضبّاط السوريّين لمعرفته باللغتين الفرنسيّة والانكليزيّة. كما كان يطمح في أن يصبح أصغر جنرال في الجيش السوريّ. ونظرًا لعلاقته الحميمة بالرئيس أمين الحافظ، فإنّه زار موسكو بناء على دعوة رسميّة مع وفد عسكريّ سوريّ، حيث استقبل استقبالاً حارًّا من قبل رئيس الاستخبارات السوفياتيّة KGB "فلاديمير سيميتشاسني"، ونائبه الميجر جنرال "زاخاروف"، وقدّما له الخدمات الهامّة في حقل التجسّس من جميع الجوانب. وعاد السوداني إلى دمشق وهو يحمل ميثاقًا من أجل تعاون أفضل بين المصالح السوريّة والسوفياتيّة. كما زوّدته المخابرات السوفياتيّة بجهاز جديد تمكّن السويداني بواسطته وبمساعدة المقدّم عزيز معروف من اكتشاف إيلي كوهين الجاسوس الاسرائيلي الهام في دمشق. ولولا تدخّل الجهاز الجديد الذي حصلت عليه المخابرات السوريّة من موسكو لما أمكن اكتشاف كوهين بسهولة.

اعتُبر هذا العمل من أكبر الانجازات التي قام بها العقيد السويداني نظرًا للخطورة التي كان يمثّلها كوهين في سوريا على مختلف مستوياتها. حتّى أنّه كان من أشدّ الجميع عنادًا وطلبًا لإعدام هذا الجاسوس الخطير، وبلغ به الأمر إلى اتّهام محامي كوهين الفرنسيّ "جاك مرسييه" بعد إلحاحه بضرورة عدم إعدام كوهين والتعهّدات التي قطعها بأمر من المخابرات الإسرائيليّة، اتّهمه بالعمل لحساب إسرائيل والصهيونيّة. وفعلاً، رغم جميع الوساطات الدوليّة والاغراءات التي قدّمت لسوريا، مقابل إبقاء

كوهين على قيد الحياة، فإنّها فشلت جميعًا، ونفّذ فيه حكم الاعدام بتاريخ ١٩ أيّار ـ مايو ١٩٦٥، في ساحة المرجة في دمشق أمام أنظار الآلاف من الناس الذين جاؤوا يشهدون عمليّة الاعدام هذه، كما أنّ جثّته تركت أيّامًا معلّقة على المشنقة ليتسنّى لأكبر عدد من البشر رؤيتها[1].

---

١ ـ زّهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثّقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص٨٧؛ راجع: أبو النصر عمر، إيلي كوهين جاسوس إسرائيل في دمشق (بيروت،١٩٦٨) ص٩٣؛ أيزنبرغ دينيس وآخرون، الموساد جهاز المخابرات الإسرائيليّة السرّي، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت،١٩٨١) ص٨٦؛ ألدوبي تسفي، الجاسوسيّة الاسرائيليّة وحرب الأيّام الستّة، تعريب فسّان النوفلي (١٩٧٢) ص٣٧٢ ـ ٢٧٣، ٤٦٨ ـ ٤٦٩.

المكتب الثاني اللبناني

المخابرات اللبنانيّة، واسمها الأساسي "المكتب الثاني"، واسمها العسكري "الشعبة الثانية"، بدأت في جزيرة أرواد، إذ كانت الشعبة الثانية الفرنسيّة وراء تأسيسها باسم المكتب الثاني.

حدث ذلك عام ١٩١٥، وفي أوّل مراحل الحرب العالميّة الأولى، حيث كان هدف القيادة الفرنسيّة من تأسيس فرع لاستخباراتها في هذه الناحية من البحر الأبيض المتوسّط وعلى مقربة من الشاطئ السوري إلى الشمال من طرابلس، كان في الدرجة الأولى توفير الأنباء عن تحرّكات الأتراك والألمان. وكان هناك هدف آخر مرادف هو السياسة الفرنسيّة في الشرق الأدنى وفي سوريا ولبنان.

أمّا بشأن تسمية "المكتب الثاني"، فتقول المراجع القديمة المأخوذة من التنظيم العسكري الفرنسي، إنّ إسم المكتب الثاني قد عرف لأوّل مرّة في الحرب العالميّة العظمى، أي الأولى، من عام ١٩١٤ إلى عام ١٩١٨، وكان المكتب الثاني واحدًا من أربعة مكاتب عسكريّة في الجيش الفرنسي أخذت الترتيب التالي:

المكتب الأوّل، ويسمّى مكتب شؤون العاملين بالقوّات المسلّحة؛ المكتب الثاني، ومهمّته الاستعلامات العسكريّة بأنواعها؛ المكتب الثالث، ومهمّته تنظيم العمليّات العسكريّة؛ والمكتب الرابع، وهو المكتب الخاصّ باللوجستيّة.

كانت السياسة الفرنسيّة طوال القرن التاسع عشر تحلم بالحلول مكان الأمبراطوريّة العثمانيّة المتداعية عند انحلالها وتفكّكها، في هذه البقعة من الأرض، أي في الشواطئ اللبنانيّة وعبرها امتدادًا إلى سوريا الطبيعيّة كلّها. وقد مهّدت فرنسا في القرن التاسع عشر بأن أقدمت على توطيد صداقاتها وعلاقاتها مع فئة من اللبنانيّين وحملتهم على الإيمان بأنّها الوحيدة المقتدرة على حمايتهم.

لم يعمل هؤلاء اللبنانيّون مع الفرنسيّين حبًّا بإحلال استعمار مكان استعمار، بل صدّقوا ما سمعوه وقرأوه وقيل لهم همسًا فوجدوه الباب الوحيد المفتوح أمام الأماني المكبوتة. عملوا ليحرّروا بلادهم من النير العثماني... ويقول باحثون إنّ اللبنانيّين والسوريّين الذين تعاونوا مع رجال الاستخبارات الفرنسيّين والبريطانيّين إبّان الحرب العالميّة الأولى والذين ترد أسماء بعضهم خلال الرواية كانوا مخلصين لبلدهم. كانوا يتوجّعون متألّمين من حكم عثمانيّ ظالم أخضع حريّاتهم وأعناقهم لعبوديّة استعمار استمرّ أجيالاً. كانوا يتطلّعون إلى فجر حياة جديدة توفّر لهم ما يتمنّونه لأنفسهم وأبنائهم من بعدهم ولبلدهم بالدرجة الأولى من هناء العيش المستقلّ وحريّاته. عاونوا وتعاونوا وبات منهم من مات شنقًا على يد العثماني المستبدّ، ظنًّا منهم أنّهم في تعاونهم مع العناصر البريطانيّة والفرنسيّة يعملون مع دولتين تعهّدت حكومتاهما بتحرير لبنان وسوريا ودنيا الشرق العربي. كانوا يعملون بدافع وطني وبوحي ضمائر حيّة مخلصة. وقدم اعتبرهم العثمانيّون الذين ناهضوا تعسّفهم عبر تعاون مع أعداء لهم "خونة" فشنقوا الذين شنقوا منهم وصار هؤلاء الدفعات الأولى من شهداء أمّة ما زالت تتقدّم كلّ يوم بدفعة جديدة وستظلّ تتقدّم بالشهداء إلى أن تتحقّق أهدافها القوميّة...

مجال تصارع النفوذ الدولي كان الشرق الأدنى وبصفة خاصّة لبنان ملعبه. وكانت بريطانيا حامية العرش العثماني وأمبراطوريّته "رجل أوروبّا المريض"، وكانت تخشى

أن يصل الروس إلى اسطمبول فشواطئ الأبيض المتوسّط عبر المضايق، وإلى المياه الدافئة في الخليج، فيهدّد وجودها في البحر الأبيض وفي الخليج سلامة الطريق إلى الهند. وقد شجّعت بريطانيا بني عثمان فانتهجوا سياسة "الجامعة الإسلاميّة" لمناهضة السياسة الروسيّة في ذلك الحين، سياسة "الجامعة الصقلبيّة". وفي لبنان، وفوق تربته الساحليّة ـ الجبليّة، تقارعت الاتّجاهات الدوليّة، المنبعثة من انفتاح شهوات الدول الكبرى الراغبة كلّ واحدة منها بابتلاع أكبر "لقمة" من الأمبراطوريّة العثمانيّة عند انحلالها.

لبنان وسوريا نقطة استراتيجيّة عظيمة، فمَن يبتلع لبنان ابتلع سوريا، وابتلاعهما يعطي قوّات الدولة التي تحتلّهما فرصة ذهبيّة للتحكّم في شرقي البحر الأبيض المتوسّط كلّه، وتجعلها قادرة وبسهولة على ضرب قناة السويس وطعن الأمبراطوريّة البريطانيّة في الصميم.

تصارع الأهداف الدوليّة ينجلي في لبنان وفوق أرضه خلال أواخر القرن التاسع عشر، بجلابيب طائفيّة، فتنافست فرنسا وأمبراطوريّة النمسا على حماية الكاثوليك، واحتكرت روسيا حماية الأرثذوكس، واتّجهت بريطانيا إلى حماية العرش العثماني أوّلاً فتقرّبت من الدروز في لبنان تاركة لاسطمبول مهمّة استمالة المسلمين في الولايات العربيّة...

وعندما نشبت الحرب العالميّة الأولى واتّجهت الدولة العليّة إلى الانضمام إلى ألمانيا وقوّات قيصرها غليوم الثاني، أسرعت الشعبة الثانية في الجيش الفرنسي لتأسيس فرع صغير في جزيرة أرواد، ليرصد تحرّكات القوّات التركيّة ـ الألمانيّة، وللاتّصال بعناصر لبنانيّة وسوريّة، وتوثيق العلاقات الفرنسيّة معها، حتّى إذا وقع النصر واحتلّت فرنسا لبنان وسوريا، صار الذين وثّق مكتب أرواد الصلة بهم

وعاونوه، رقاب جسور انطلاق الحكومة الفرنسيّة في تحقيق أهـداف سياسـتها التقليديّـة في الناحية الشرقيّة من البحر الأبيض المتوسّط، وفي لبنان وسوريا بالدرجة الأولى.

فرع الشعبة الثانية الصغـير الـذي أسّسـه الفرنسـيّون فـي عـام ١٩١٥ فـي جزيـرة أرواد، تطوّر فكان أساس المكتب الثاني في الجيش اللبناني. فإنّ القوّات الفرنسـيّة بعـد احتلالها لبنان وسوريا عـام ١٩١٩، كـانت تعتمـد لتـأمين سـلامة جيوشـها علـى نشـاط الشعبة الثانية، التي اتّخذت من بيروت مركزًا رئيسيًّا لها. وقد اعتمد المفـوّض السـامي الفرنسي لسوريا ولبنان على نشاط الشعبة الثانيـة لحراسـة السياسـة الفرنسـيّة، الموفـد لتحقيقها وترسيخها.

كبرت الشعبة الثانية الفرنسيّة وتعدّدت فروعها وصار لها في كلّ مكان في سـوريا فرع. وتضخّمت مسؤوليّات الشعبة الثانية بنتيجة الصراع العنيف بين السياسة الفرنسيّة والسياسة البريطانيّة. واحتلّ البريطانيّون فلسطين والعراق. واقتسموا والفرنسـيّين فـي اتّفاقيّة "سايكس بيكو" الأرض العربيّة علـى شـواطئ المتوسّـط. وكـانت بريطانيـا تحلـم بتنظيف شرقي المتوسّط من نفوذ وقوّات حليفتها فرنسا، وكانت فرنسا تحلم في ترسـيخ قواعدها في لبنان وسوريا وتحويلها إلى نقطة انطلاق عملها ضدّ بريطانيا. وقد عملـت الجاسوسيّة الفرنسيّة، أي استخبارات الشعبة الثانية، من بيروت، ونشطت الاستخبارات البريطانيّـة "إنتلّجنس سـرفيس" مـن قواعـد بريطانيّـة فـي قـبرص وفلسـطين والأردن والعراق. وقد استمرّ الصراع السياسي العنيف بيـن استخبارات الدولتين علـى اقتسـام التركة العثمانيّة في الأرض العربيّة على مدى نصف قرن.

بالعودة إلى المخابرات اللبنانيّـة، ففـي عـام ١٩١٥، وبعـد إعـلان الدولـة العثمانيّـة الحرب على الحلفاء، وانضمامها إلى الجبهة الألمانيّة، بعثت القيادة الفرنسيّة طليعة إلى جزيرة أرواد، اتّخذت منهـا نقطـة انطـلاق لاسـتخباراتها علـى طـول الشـاطئ اللبنـاني

السوري. وإنّ قرب الجزيرة من الشاطئ، وضعف الاستخبارات العثمانيّة، وعدم وجود أثر للاستخبارات الألمانيّة، سهّل مهمّة الذين نزلوا إلى الجزيرة. كان الضابط الفرنسي "دروان" يدير العمليّات ويقوم بالاتّصالات، فتوفّق في إيجاد نقاط ارتكاز تغذّيه بالمعلومات وتنقل إليه الأنباء عن تحرّكات القوّات العسكريّة وتساعده على الاتّصال بالعناصر المستعدّة للتعاون مع فرنسا وحلفائها ضدّ الدولة العثمانيّة وألمانيا.

الكاهن الماروني الخوري "يوسف الحايك"، كان يلتهب حماسًا ووطنيّة، فوثّق دروان اتّصالاته وصلته به، وعهد إليه بأعباء تكليف أكفاء متحمّسين من الوطنيّين اللبنانيّين يراقبون حركات الأعداء ويترصّدون قوّاته، وينقلون عبره إلى جزيرة أرواد ما يجمعون من الأخبار وكلّ ما يعتقدون أنّه يؤذي الدولة العليّة[1].

لعب الجهاز الذي أوجده الأب الحايك دورًا هامًّا، وكان أحدهم من كسروان وسيلة إيصال ما يجمعه الجهاز إلى المرجع المختصّ. كذلك في الشمال، حيث كان أحدهم المعتمد المؤتمن. ووقع الاختيار في الضنيّة وقراها على عدد كبير من المتطوّعين، بينما تولّى بعض أبناء القبيّات هذه المهمّة في عكّار، فكانت الشبكة المتعاونة مع نقطة أرواد تبدأ في سنّ الفيل وتمتدّ عبر كسروان فتبلغ الضنيّة وعكّار والحدود السوريّة.

في ذات يوم، بلغت مسامع الأب يوسف الحايك رغبة القاعدة في أرواد الاتّصال بالبطريرك الماروني في مقرّه ببكركي. قالوا للخوري يوسف إنّ في نيّة الحكومة الفرنسيّة تكليف الضابط دروان زيارة غبطة البطريرك الحويّك في كرسي البطريركيّة، لمباحثته في شؤون عامّة تتعلّق بمصير لبنان في حال انتصار الحلفاء.

---

١ ـ الجزائري سعيد، حرب المخابرات السريّة في أزمة الخليج وأسبابها الحقيقيّة، دار الجيل (بيروت،١٩٩٢) ص٢٠١ ـ ٢٢١.

ولبنان والبطريركيّة المارونيّة في عيني الخوري يوسف، يجسّدان آماله وأمانيه الرامية إلى تحقيق استقلال للبنان يعيش في أفيائه اللبنانيّون في عزّة وسؤدد.

كان رجال الاستخبارات العثمانيّة وجواسيسها يملأون الشاطئ، وكانت المهمّة شاقّة ومحفوفة بالأخطار، ولكنّ الهدف السامي خفّف الصعوبات، فأقدم الخوري يوسف على تدبير الأمر، وتمكّن من مساعدة الضابط الفرنسي دروان، الذي تسلّل إلى الشاطئ ومنه انتقل سرًّا إلى بكركي حيث استقبله البطريرك الحويّك وباحثه طويلاً، وكلّفه بأن ينقل إلى حكومة باريس رغبات اللبنانيّين في حياة مستقلّة ضمن دائرة جبلهم، إلى جانب إبلاغها عن استعدادهم لمعونة فرنسا وحلفائها مهما غلت تضحياتهم، شرط التعهّد لهم بتحقيق ما يصبون إليه وهو الاستقلال الوطني. وقد بعث البطريرك رسالته إلى الحكومة الفرنسيّة عندما نقل إليه الضابط الزائر أنّ الشعبة الثانية الفرنسيّة بأمر قيادة الجيش وبتوجيه الحكومة في فرنسا تودّ أن يعاونها غبطة البطريرك في تحقيق ما هي مكلفة بتنفيذه من مهمّات وأعباء، وذلك بإيعازه لرجال الكهنوت الماروني إيعازًا حارًّا يقول بضرورة تعاونهم مع الشعبة الثانية وموفديها ورجالها في شتّى أنحاء لبنان وحيث للطائفة كهنة. وقد تسرّبت أنباء زيارة الضابط دروان إلى اسطنبول، وعرفت بها الحكومة العثمانيّة. إذ علم الجواسيس التفاصيل فنقلوها إلى العثمانيّين فأفزعتهم. وجاءت ردّة الفعل العثمانيّة فورًا[١]...

أوفدت حكومة اسطنبول "عصمت باشا" إلى لبنان، وإلى الصرح البطريركي بالذات، فوفد إليه واجتمع إلى البطريرك الياس الحويّك، وتحدّث إليه على المكشوف... قال عصمت باشا للبطريرك إنّ الحكومة العثمانيّة عرفت تفاصيل الزيارة الفرنسيّة،

---

١ ـ المصدر السابق.

والذين دبّروها مسهّلين مهمّة الضابط الفرنسي الذي جاء من أرواد. وقال عصمت باشا إنّه مكلّف من قبل حكومته بإبلاغ البطريرك أنّ الدولة تحترم المقام البطريركي وغبطة البطريرك، ولكنّها هي التي تخوض غمار حرب شعواء يتوقّف على نتائجها مصير الأمبراطوريّة، ومصير حلفائها معها، ولا تستطيع المسايرة والتساهل وإغماض العين عن أعمال وتحرّكات تفيد العدوّ وتؤذي الدولة وقوّاتها...

سمع البطريرك التهديد العثماني الصريح وعزم الدولة على القمع وإنزال العقوبات القاسية جدًّا. وكانت حصيلة هذه الحكاية توقيف الخوري يوسف الحايك وسجنه ثمّ محاكمته في الديوان العرفي والحكم عليه بالإعدام وتنفيذ الحكم. وفي سنّ الفيل، مسقط رأس الخوري يوسف، أقيم تمثال طليعة الشهداء اللبنانيّين على أيدي العثمانيّين في تلك الحرب العالميّة الأولى...

وفي عام ١٩١٦، ضمّت الاستخبارات الألمانيّة جهودها إلى الاستخبارات العثمانيّة، وتولّت عمليّات مكافحة نشاط الاستخبارات الفرنسيّة في الشرق. وأسّس الألمان فرعهم الرئيسي في عاليه، ومنها اتّسعت رقعة نشاطهم فامتدّت فروع مركز عاليه في جميع الاتّجاهات في سوريا ولبنان.

بلغ الألمان أنّ نشاط شبكة أرواد تغلغل في صفوف اللبنانيّين والمجنّدين في الجيش العثماني، فأوعزت إلى القيادة التركيّة فبعثت بهم مع الحملة التي أرسلت إلى ترعة السويس. وعنيت الاستخبارات الألمانيّة بشيوخ الصلح في القرى، فراقبت حركاتهم وسكناتهم بعد أن أكّد مخبروها أنّ النشاط الفرنسي يعتمد مشايخ الصلح في القرى اللبنانيّة قواعد لنشر دعاية الحلفاء ومساند لتوفير اللبنانيّين المقتدرين على تنفيذ مهمّات ذات طابع عسكري، ومنها مهمّة عرقلة وسائل النقل، فلا تتمكّن ألمانيا من تموين قوّاتها من قمح ومحاصيل سوريا والولايات العثمانيّة في الشرق العربي بسهولة.

كان الحاكم العسكري العثماني ينفّذ توجيهات الاستخبارات الألمانيّة بقساوة وفظاعة تصاعدتا وبلغتا الذروة عندما حاول جندي من لبنان إسمه "إسطفان" من قرية "كفرصغاب" إغتيال "عزمي باشا" والي طرابلس، وقد أطلق عليه طلقًا من البندقيّة التي كان يحملها الجنود والمعروفة باسم الـ"مارتينة"، فأصابه بجرح ولم تكن الإصابة مميتة. وقد عرفت استخبارات العثمانيّين أنّ الجندي كان مدفوعًا من قبل الاستخبارات الفرنسيّة في أرواد، فاحتلّت قوّات تركيّة كفرصغاب و"عينطورين" المجاورة، وبعثت دوريّاتها في كلّ اتّجاه فبلغت حدود زغرتا، وإنّ قساوة القوّات التركيّة وبشاعة تدابيرها ما تزالان حديث سكّان منطقة كفرصغاب وأهالي القرى المجاورة إلى اليوم. وقد تمركز فرع شعبة أرواد في مدرسة الطليان في القبيّات بقضاء عكّار من شمال لبنان، فلمّا دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء، وصل إلى القبيّات راهب كبّوشي وسكن المدرسة. لم يكن الراهب الكبّوشي من رجال الكهنوت، بل كان ضابطًا فرنسيًّا من ضبّاط شعبة أرواد يرتدي ثياب الرهبان الكبّوشيّين. عهدوا إليه بمهمّة تمديد خطوط الشبكة الرئيسيّة، فيصبح لها قاعدة في تدمر وقاعدة في حمص تشمل دائرتها رأس بعلبك وقرى منطقتها الهامّة. وقد توفّق "الراهب الكبّوشي" العامل من مدرسة الطليان في القبيّات وساعده بعض آل "جرّوص" وآل "عبد الحافظ" في حمص وجوارها، وبعض آل "روفائيل" وآل "الكلاّس" في رأس بعلبك، فاتّسع عمل مركز أرواد وصارت له قواعد هامّة تمتدّ حتّى تدمر مرورًا برأس بعلبك وحمص[١].

في خريف عام ١٩١٧، وصل إلى قرية "حور تعلا" في منطقة بعلبك ضابط فرنسي بثياب مدنيّة إسمه "روزدون" وقد سهّلت الشبكة بامتداداتها إيصاله إلى حور

---

١ ـ المصدر السابق.

تعلا، مسقط رأس "ملحم قاسم"، الـ"قبضاي" الذائع الصيت، الذي اشتهر في أيّام الحكم العثماني وغمرت شهرته آفاق الحكم في لبنان قبيل الاستقلال وبعده، فكان قاعدة من قواعد العمل السياسي في ذلك الحين، والذي لجأ إلى الخطف والتهديد في جملة ما لجأ إليه من الوسائل... وقد حمل روزدون إلى ملحم قاسم كيسًا فيه ألف ليرة إنكليزيّة ذهبًا. وكان الكيس ومحتوياته دفعة ذهبيّة أولى في حساب جار فتحته استخبارات أرواد لفريق ملحم قاسم طالبة إليه أن يتولّى تدمير طرق التموين بين حمص ودمشق ونسف القطارات المتنقّلة على الخطّ الحديدي بين البلدين.

ويروي باحثون[1] أنّ ملحم قاسم ورجاله قاموا بتنفيذ المهمّة، فنسفوا ودمّروا... ثمّ أوقف العمل فجأة، فاضطرب مركز أرواد وبعث من قبله أحد أفراد عائلة النقّاش في بيروت إلى حور تعلا، ليسأل أبو علي ملحم قاسم لماذا توقّف. ردّ أبو علي: "خلصوا التكّات"... و"التك" كان أساس العملة العثمانيّة المتداولة، والجواب يعني "خلصوا الذهبيات". وصل جواب أبو علي إلى المركز في أرواد، فبعث الضابط روزدون مرّة ثانية إلى حور تعلا ليزور ملحم قاسم حاملاً دفعة جديدة من الليرات الإنكليزيّة الذهبيّة، تدفع لأبو علي لاستئناف تخريب وتدمير خطوط النقل في قاطرات سكّة الحديد.

كانت الاستخبارات الألمانيّة ـ العثمانيّة بالمرصاد فألقت القبض على روزدون في ريّاق، وأرسلته أسيرًا إلى تركيا حيث بقي إلى عام ١٩٢٢. ولجأ أبوعلي مع رجاله إلى جرود بعلبك ـ الهرمل. ولوحق أمام المحكمة العسكريّة وحُكم بالإعدام غيابيًّا، وطورد من قبل العثمانيّين دون أن يتمكّنوا من إلقاء القبض عليه. وفي نيسان – إبريل ١٩١٨، كان جمال باشا يستقلّ القطار في طريقه إلى دمشق. صعد أبو علي إلى القطار ودخل مقصورة جمال باشا ووقف أمامه معلنًا هويّته. قال أبو علي للباشا العثماني: كان يسهل عليّ قتلك، ولكنّك وأنت أمل الدولة العثمانيّة رأيت توفير حياتك

الغالية... وتكلّم أبو علي غير ذلك أيضًا... وحديث هذه الواقعة على أفواه الناس إلى يومنا هذا.

ردّ جمال باشا بالقول: عليك الأمان وحياة بحياة.

وهكذا انتهى تشرّد ملحم قاسم وجاء عفو الدولة العثمانيّة بلسان قائد قوّاتها في آخر أيّام وجودها في لبنان وسوريا والشرق العربي.

عادت أخبار ملحم قاسم إلى البروز بعد زوال العثمانيّين في حقبة الانتداب الفرنسي الذي كان مقرّه الرئيسيّ في بيروت، حيث كان المفوّض السامي لسوريا ولبنان. وحوادث ملحم قاسم موضوع أحاديث سكّان حور تعلا ومجموعة القرى التي تتكوّن منها محافظة البقاع، حيث الأحاديث تروي قصص الأدوار البطوليّة التي نفّذها، وتعدّد رواياته مع القوّات البريطانيّة التي احتلّت البقاع قبل القوّات الفرنسيّة... ولملحم قاسم حكايات كثيرة منها حكايات ما كان يستند إليه في تنفيذ أهداف إنتخابيّة إبّان احتدام ذروة التصارع بين حزبي الشيخ بشارة الخوري وإميل إدّه. وكان أبو علي مقرّبًا وصديقًا للمركيز موسى دي فريج الذي كان أحد أعمدة الحزب الدستوري بقيادة الشيخ بشارة الخوري في مواجهة حزب الكتلة الوطنيّة بقيادة إميل إدّه.

زالت الشعبة الثانية التي أسّسها الفرنسيّون رسميًّا من بيروت مع زوال فرنسا، فإنّ الجلاء الذي تحقّق عن سوريا في ١٧ نيسان - إبريل ولبنان في ٣١ كانون الأوّل - ديسمبر عام ١٩٤٦، أنهى علنيّة الاستخبارات الفرنسيّة. وإنّ العناصر اللبنانيّة في قوّات الشرق الخاصّة، التي كانت تابعة للقيادة الفرنسيّة، صارت نواة جيش الدولة اللبنانيّة المستقلّة. ومثلها العناصر السوريّة التي صارت نواة الجيش السوري. وكان لا

---

١ - المصدر السابق.

بدّ من أن يكون للجيش اللبناني شعبة ثانية، فذلك أمر محتوم للعناية بكلّ ما له علاقة بسلامة القوّات، وهكذا صار المكتب الثاني للجيش اللبناني... بدأ صغيرًا جدًّا، بموازنة ١٧ ألف ليرة لبنانيّة، وسبعة موظّفين برئاسة ضابط صغير، وتطوّر المكتب الثاني مع تطوّر لبنان منذ الاستقلال، وأخذ ينمو ويكبر نزولاً على أحكام ظروف مختلفة، منها ظروف إستثنائيّة.

ويقول باحثون "إنّ الإنصاف يقضي أن يعطى المكتب الثاني اللبناني حقّه من الفضل في اكتشاف مجموعة من الجواسيس، مثل شولا كوهين، والقسّ جميل القرح، ومساعدة بلدان عربيّة أخرى على اكتشاف جواسيس فوق أرضها". وإن كان هناك عند البعض مآخذ لتدخّل المكتب الثاني في بعض مراحله بالشؤون السياسيّة الداخليّة.

تصارع السياسة الدوليّة فوق الأرض اللبنانيّة استمرّ في القرن العشرين بعد الاستقلال إنّما بسريّة. أمّا التصارع العربي فقد صار علنيًّا. وكان المكتب الثاني يكبر وينمو وتتضاعف مهمّاته إلى أن قفز قفزته الكبرى في عهد اللواء فؤاد شهاب، فكان المكتب الثاني ساعده في رئاسة الجمهوريّة وعينيه أيضًا. وجاء عهد الرئيس شارل حلو، حيث بلغ المكتب الثاني الذروة، ونشبت معركة فاصلة انتهت في العام الأوّل من ولاية عهد الرئيس سليمان فرنجيّة، فكان ما يشبه الانقلاب الأبيض الذي قلّص المكتب الثاني وأعاده إلى حجمه الطبيعي أو ما يقارب هذا الحجم. وعاد المكتب الثاني الذي تحتاجه قوّات كلّ بلد مستقلّ لحاجات تتعلّق بسلامة القوّات فقط[١].

وأعيد تنظيم المخابرات اللبنانيّة بعد الحرب الداخليّة اللبنانيّة على يد معيد بناء الجيش وقائده العماد إميل لحّود على أسس تنظيميّة حديثة.

---

١ ـ الجزائري سعيد، حرب المخابرات السريّة في أزمة الخليج وأسبابها الحقيقيّة، دار الجيل (بيروت،١٩٩٢) ص٢٠١ ـ ٢٢١.

المخابرات اللبنانيّة وعمليّة اعتقال العميل أحمد الحلاّق

نجحت المخابرات اللبنانيّة في أحيان كثيرة في تضليل جهاز المخابرات الإسرائيلي المعادي "الموساد"، رغم تفوّقه، كما نجحت في اعتقال شبكات جاسوسيّة له في لبنان، كان يعتمد عليها اعتمادًا فائقًا، كما هو الحال مع شبكة شولا كوهين التي روينا تفاصيلها في جزء "المخابرات والنساء" من هذه الموسوعة. كما وجّهت الخابرات اللبنانيّة ضربات مؤلمة إلى جهاز الموساد في أكثر من موقع ومناسبة. وتُعتبر عمليّة اعتقال عميل الموساد "أحمد الحلاّق" واستقدامه من منطقة "الشريط الحدودي" المحتلّ في جنوب لبنان، إلى بيروت، ومن ثمّ محاكمته وإعدامه، من أهمّ العمليّات التي حقّق فيها جهاز المخابرات اللبنانيّة في الجيش اللبنانيّ انتصارًا كبيرًا على جهاز الاستخبارات الإسرائيليّة بجميع فروعها وتنوّعها.

العميد المتقاعد في الجيش اللبنانيّ "فرنسوا جينادري" الذي كان قائد شعبة مكافحة التجسّس الإسرائيليّ في ذلك الحين، يروي تفاصيل تلك العمليّة فيقول:

"اتّخذت مديريّة المخابرات في الجيش اللبنانيّ قرارًا باعتقال أحمد الحلاّق وسوقه مخفورًا في تحدّ ظاهر للاستخبارات الإسرائيليّة التي كانت مسؤولة عن سلامة عميلها. وتوافرت معلومات أمنيّة دقيقة عن عودته من الخارج إلى منطقة "الشريط الحدوديّ" المحتلّ من جنوب لبنان، وكُلّفت المديريّة بشخص مسؤول فرع المخابرات في صيدا والجنوب آنذاك العميد الركن "ماهر الطفيلي" وضع الخطّة المناسبة وإجراء اللازم،

فتوصّل إلى تسليم المهمّة للمخبر "رمزي سعيد نهرا"، وهو من مواليد إبل السقي في العام ١٩٦٢.

"وافق رمزي نهرا على القيام بهذه المهمّة على الرغم من عدم خلوّها من المخاطرة... وباشر في التنفيذ.

"يعيش رمزي نهرا، الذي يجيد الإنكليزيّة والعبريّة إضافة إلى العربيّة، في بلدته إبل السقي، وتربطه صلات صداقة ومعرفة مع عدد من المسؤولين في ميليشيا "جيش لبنان الجنوبيّ" المتعاملة مع إسرائيل بقيادة "أنطوان لحد" وجهازها الأمنيّ، ومن بين فريق الجهاز العميل "محمّد مصطفى العرمتي" الملقّب بـ"أبو عريضة"، وقد كان مولجًا بحراسة أحمد الحلاّق.

"علم نهرا أنّ أبو عريضة يسير مع شخص غريب، فذهب إليه للتحقّق ممّا إذا كان الذي يسير معه هو نفسه أحمد الحلاّق أم لا... خصوصًا أنّ مديريّة المخابرات كانت قد زوّدت نهرا برسم شمسيّ صغير للحلاّق...

"إستقبل أبو عريضة رمزي نهرا وعرّفه إلى صديقه "ميشال خير أمين"، وهو الإسم المستعار لأحمد الحلاّق... فعرفه فورًا. وراح يفكّر في طريقة تقرّبه منه، فدعا الإثنين إلى تناول القهوة في منزله... ووافقا.

"إستعدّ رمزي نهرا للضيافة جيّدًا، وكلّف ابن بنت عمّ المدعو "فادي كوزال" بالوقوف في مكان خفيّ في الطبقة الثانية من المنزل، وحمّله كاميرا فيديو لكي يصوّر الضيفين من دون أن يشعرا به... وبالفعل، فقد حضر أبو عريضة ومرافقه "رمزي عكرة" وأحمد الحلاّق... والتُقط لهم فيلم الفيديو مع صاحب المنزل خلسة.

"بعد يومين أو ثلاثة، قام رمـزي نهـرا بدعـوة أبـو عريضـة والحـلاّق مجدّدًا إلـى منزله لتمضية السهرة فيه، فقبلا. وقبل وصولهما دسّ نهـرا آلات تصويـر فـي الغرفـة وآلات تسجيل في جنبات المقاعد لكي يسجّل الحديث المتوقّع أن يجري بينهم.

"حضر أبو عريضة والحلاّق واسترسلا في شرب الويسكي... وبعد رحيلهما جمـع نهرا معلوماته وشريط الفيديو والأحاديث المسـجّلة وأرسلها بطريقـة مـا إلـى بـيروت، حيث تحقّقت مديريّة المخابرات مـن أنّ "ميشـال" مـا هـو إلاّ "أحمـد الحـلاّق"، وأعطـت نهرا الضوء الأخضر للقيام بخطفه.

"استدعى رمزي نهرا لاحقًا صديقه وعديله "بسّام جرجس الحاصبـاني". كـان ذلـك عند الساعة الثالثة من فجر يوم عيد الفطر بتاريخ ٢٠ شباط ـ فبراير ١٩٩٦، وأبلغـه بضرورة الاتّصال بصلة الوصل بالمخـابرات اللبنانيّة "عبـد اللـه همـدر"، وحثّـه علـى نسيان قضيّة خطف الحلاّق... كان ذلك من أجل إبعاد الشبهات...

"وضع رمزي بالاشتراك مع شقيقع "مفيد نهرا" وصديقـه "مـاهر سليم تومـا" علـى مدى ثلاث ساعات متواصلة، أي من الساعة الثالثة حتّى الساعة السادسة فجـرًا، خطّـة محكمة للإنقضاض على الحـلاّق... وعنـد الصبـاح، استعار رمـزي سيّارة مـن نـوع "مرسيدس" صفراء اللون تخـصّ صديقـه "غطّـاس طـانيوس أبـو سـمرا"، اكونـها تشبـه سيّارة العميل أبو عريضة، سواء من حيث اللون أو الشكل أو الطراز... واسـتقلّها مـع ماهر توما، وتوجّها بها إلى منزل الحلاّق في بلدة القليعـة التـي كـانت شبـه خاليـة مـن المـارّة، مـع أنّ العيـد هـو للمسلمين... وصـودف أيضًـا آنذاك أنّ أبـو عريضـة كـان يستريح في منزله من عناء السهر على الحلاّق، ويغطّ في نوم عميق.

"عندما وصل الرجلان إلى أحمد الحلاّق، سلّما عليه، وسأله رمـزي نهـرا عمّـا إذا كان مستعدًّا لرؤية شقيقه "مفيد نهرا" الذي سبق للحلاّق أن أبدى رغبة في التعرّف إليـه

عن قرب... ولم يتردّد الحلاّق في الاستفادة من هذه الفرصة السعيدة، فارتدى ثيابه ونسّق هندامه وتزنّر بمسدّسه وتسلّح بمشطين إضافيّين باعتبار أنّ الاحتياطات لازمة وضروريّة حتّى في لحظات السعادة، وهذا ما يدلّ على أنّ الحلاّق نفسه الغارق في الولاء للإسرائيليّين لم يكن مقتنعًا بالحماية المفروضة منهم عليه.

"التفت الحلاّق بكثير من الحذر إلى رمزي المتربّص به، والذي فهم مغزى هذه النظرات... فناوله مسدّسه الخاصّ لكي يزيد من جرعات الاطمئنان لديه، فرفض أن يأخذه، لكنّ هذه المبادرة كانت كفيلة بالإجهاز على مخاوف الحلاّق الذي تنفّس الصعداء وركب السيّارة معهما وتوجّهوا إلى... الكمين المصطنع.

"خلال الطريق تبادل الثلاثة أطراف الحديث الأخير... كان الحلاّق جديًّا في كلامه أكثر من المعتاد وأكثر من المتوقّع... كان شارد الذهن يستخرج من تجاربه المديدة في بساتين الحياة المثمرة الوعرة، بوحًا ناضجًا ينمّ عن خبرة كهل عركته الأيّام والسنون...

"قال لرمزي: "بدّي علْمَك متَل بيقول... وَين ما بتأمِّن خاف".

"فردّ رمزي مسبغًا عليه مسحات من الاطمئنان: "إبل السقي بيحموها النروجيّين، وما فيها مقاومة ولا ينشغل بالك... وكمان فردك معك... وهيدا فردي بدّك ياه خدو... وعلى حاجز القوّات النروجيّة رح نعطيك بطاقة هويّة لإبرازها للعناصر حتّى نقدر نمرق".

"وهكذا كان... فعبروا الحاجز بشكل طبيعيّ بسلام، ومن المعروف أنّ القوّات النروجيّة التي كانت موجودة آنذاك في بلدة إبل السقي، لم تكن تدقّق في هويّات العابرين، فمجرّد التلويح بها كان كافيًا لسلوك الطريق.

"لم يكن اليوم يوم سعد أحمد الحلاّق... عندما كان رمزي نهرا يحبك خيطان شباكه جيّدًا. فمن سوء حظّه أنّ الطريق بين القليعة وإبل السقي كانت خالية تمامًا من السيّارات والناس، وهذا ما زاد من نسبة نجاح عمليّة الخطف... وصل الثلاثة إلى منزل رمزي نهرا حيث كان الكمين منصوبًا... رُكنت السيّارة في المرآب وصعدوا جميعًا الدرج الخلفيّ، وأقفل رمزي النوافذ والستائر وصبّ أكوابًا من الويسكي للحلاّق الذي جاراه ماهر توما في الشرب ليؤنسه، ودار حديث عام، فقال الحلاّق: "كنت مبارح بزيارة لعقل هاشم وأطلقت النار من المسدّس وبدّي نضفو"...

"لبّى ماهر الطلب المستعجل، فأخذ المسدّس منه ونظّفه وأعاده إليه... في هذه الأثناء كان الفريق الآخر المؤلّف من مفيد نهرا وغطّاس أبو سمرا وفادي كوزال، يتفحّص الطرقات ذهابًا وإيابًا خشية أن تكون ثمّة حواجز أمنيّة لميليشيا لحد منتشرة في المنطقة فتعيق الخطّة وتؤجّلها... فتحقّق الفريق من خلوّها وعاد مفيد إلى المنزل سرًّا ليأخذ مكانه المتّفق عليه...

"كانت الأمور تسير على أفضل ما يرام، ولم يعد ينقص سوى رنين ساعة الصفر.

"كانت عقارب الساعة تشير إلى الرابعة والثلث عصرًا، ولم يعد يفصل عن إقفال معبر باتر - جزّين، الذي يصل بين الجنوب وبيروت عبر الطريق الجبليّة، عند الساعة الخامسة سوى أربعين دقيقة بالتمام...

"دخل ماهر توما إلى المطبخ المجاور بحجّة إحضار بعض المتاع، وأشار على مفيد نهرا بتجهيز نفسه للسيطرة على الحلاّق، ووضع في جيبه أصفادًا وعاد إلى مكانه ليجلس إلى يسار الحلاّق المطوّق من ناحية اليمين برمزي نهرا، وما هي إلاّ لحظات حتّى دخل عليهم مفيد شاهرًا رشّاشًا من نوع "أنيغرام" مع كاتم للصوت... وصوّبه

نحو الحلاّق صارخًا في وجهه: "ولا حركة أحمد الحلاّق... نحن من المقاومة والبيت مطوّق".

"حاول الحلاّق أن يستدرك الموقف، خصوصًا أنّه غير معتاد على الاستسلام بسهولة، فعالجه ماهر بضربة قويّة بعقب مسدّسه على رأسه، فشجّه حتّى تغسّل بالدماء.

"إستنجد الحلاّق برمزي، وصرخ به ليدافع عنه... غير أنّ أصفاد رمزي كبّلت اليد الاخرى للحلاّق وقال له: "مش رح دافع عنّك". فأجاب الحلاّق مستغربًا من دون أن تخور قواه: "ليش إنت مش مع المخابرات الإسرائيليّة؟". فقال له: "لأ". فردّ الحلاّق غاضبًا ومتحدّيًا: "إذا كنتوا زلم... فلتوني".

"أسكتوه وسحبوه إلى غرفة مجاورة وضمّدوا جرحه، وعصبوا عينيه بلاصق خصوصيّ، وقيّدوه وأعطوه أربع حقن "فاليوم" لم تعط المفعول المرتجى، فأوثقوه جيّدًا خشية أن يفلت منهم وألصقوا فمه لئلاّ يصدر أيّ صوت يثير جلبة تفضح الخطّة، ووضعوه في صندوق سيّارة من نوع "مرسيدس ٢٢٠" بيضاء اللون، وتولّى مفيد قيادتها، وجلس ماهر إلى جانبه، فيما واكبهم رمزي وفادي كوزال في سيّارة أخرى من نوع BMW، وانطلقوا نحو المعبر الأخير في جزّين.

"خلال مرور السيّارتين بالقرب من ثكنة الريحان، التقيا بدوريّة إسرائيليّة كانت تمشّط الطريق. توقّفت السيّارتان جانبًا. تحدّث رمزي مع الجنود الإسرائيليّين بلغتهم العبريّة، ورفع لهم لوحة تعريف تحمل كلمات عبريّة أيضًا... ذلك أنّ "جيش الدفاع الإسرائيليّ" كان يزوّد السيّارات المدنيّة "الموثوق بأصحابها" بتلك اللوحات... وقال لهم: "شاباك". فأفسحوا الطريق لتعبر السيّارتان فيما الحلاّق يئنّ في عتمة الصندوق.

"عند مدخل مدينة جزّين، أنيطت قيادة سيّارة المرسيدس بفادي كوزال، وصعد ماهر ومفيد مع رمزي نهرا في السيّارة الأخرى، وسبقوه إلى المعبر لتسهيل مروره.

"وصلوا عند الساعة الخامسة إلاّ خمس دقائق إلى المعبر الذي كان بحراسة ثلاثة عناصر من ميليشيا لحد يتأهبون لإقفاله "رسميًّا" عندما أطلّت سيّارة المرسيدس... دقيقة واحدة ويغلق المعبر.

"غرق رمزي ورفيقاه في حديث مطوّل مع اللحديّين الثلاثة ليستدرجوهم إلى نسيان الوقت... ومرّت السيّارة بأمان وظلّ الحديث المشوّق دائرًا بين هؤلاء، ولم ينقطع إلاّ عندما غابت السيّارة التي في صندوقها الحلاّق عن الأنظار، بحيث أصبح الحلاّق بأيد أمينة... صار لدى القضاء اللبنانيّ.

"سرعان ما عاد رمزي نهرا ورفاقه إلى بيت رمزي في إبل السقي في اليوم التالي لتنظيف الأرض من بقع الدمّ.

"تحرّكت الماكينة الاستخباراتيّة الاسرائيليّة للعثور على الحلاّق فلم تفلح، بينما كانت مديريّة المخابرات في الجيش اللبنانيّ تعلن من بيروت انتصارها.

"بعد ستّ وثلاثين ساعة على إنجاز العمليّة طرق العميل أبو عريضة باب منزل رمزي نهرا واستدعاه على عجل للقاء المخابرات الإسرائيليّة والمثول أمامها... لا مجال هنا للفرار... قاده إلى مستعمرة "المطلّة" حيث حقّق معه الإسرائيليّون، وانتهى التحقيق باعتذارهم منه في بادئ الأمر.

"كان مفيد نهرا وفادي كوزال، الذي عاد في اليوم الثاني إلى منطقة "الشريط الحدوديّ" المحتلّ يختبئان في بيوت إبل السقي، وبعد ثلاثة أيّام من "الأسر الإختياري"، تمكّنا من التسلّل إلى المنطقة المحرّرة والنجاة.

"في هذه الأثناء، كان جهاز الـ"شاباك" الإسرائيليّ يحقّق مع "سليم سلامة" الذي كان الثغرة في جدار العمليّة... لم يتكلّم سلامة عن مشاركته في تنظيف الدماء، بحسب ما يعتقد رمزي نهرا... ويضيف: "لكنّه أعطاهم معلومات عن تورّطي".

"أحضر الشاباك ماهر توما أمامه، وعلى وقع التهديد والضرب، اعترف بالحقيقة التي حملها "شابو" الضابط الإسرائيليّ برتبة عقيد، والمحقّق "روي"، واسمه الحقيقيّ "روعي"، والضابطان "يوسي" و"داني"، وضبّاط آخرون، وواجهوا بها رمزي... وأوقفوه. ثمّ جرى اعتقال إخوة "بسّام الحاصباني" ووالد زوجته، فاضطرّ إلى تسليم نفسه... وبعد تحقيق مطوّل في مركز الشاباك في المطلّة، استمرّ سبعة وعشرين يومًا متواصلاً، أوقف الأربعة: رمزي، وماهر، وبسّام، وسليم، إداريًّا، ونُقلوا إلى سجن "كفريونة" القريب من مستعمرة "تاتانيا"، وأعيد التحقيق معهم ثانية، فأنكر ماهر ورمزي ضلوعهما في عمليّة خطف الحلاّق وبرّأت المحكمة الإسرائيليّة، على غير عادتها، الجميع من التهمة، ولكنّها حكمت عليهم بالسجن خمسة وأربعين شهرًا بجرم إعطاء معلومات للمخابرات اللبنانيّة والمخابرات السوريّة، ولم يُفرج عنهم إلاّ بفضل رجال المقاومة الإسلاميّة في خلال عمليّة التبادل الشهيرة التي جرت عام ١٩٩٨، على أثر مقايضة المعتقلين وجثث الشهداء برفات وأشلاء جنود إسرائيليّين قتلوا في عمليّة "انصاريه". وحده رمزي نهرا من "فريق عمله" أبعد عن بلدته إلى المنطقة المحرّرة، وذلك بعد عشرين يومًا من الإفراج عنه، ليعود إليها بعد التحرير في ربيع سنة ٢٠٠٠. فيما مارس الآخرون حياتهم بشكل عاديّ[١]".

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، عمليّات وقرصنة إلكترونيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص١٤٥ ـ ١٥٥.

قصّة شولا

لم تكن رحلة ترفيهية تلك التي خاضتها "شولا كوهين" من "اليعقوبة" شمالي بغداد، البصرة فميناء عبادان الإيراني.. إنما كانت رحلة مأساة عجيبة شاقة، يخيم عليها القلق والخوف والحذر، وتحمل مع كل خطوة رائحة العذاب والموت، سعيًا وراء الوطن الجديد في إسرائيل.

تحملت شولا ذات السبعة عشر ربيعًا ما يفوق طاقتها، إلى أن وصلت وعائلتها لميناء حيفا.. وما أن استقرت في تل أبيب حتى صفعتها الكوارث واحدة تلو الأخرى، دون أن تدرك الصغيرة الجميلة البضة لماذا؟

فعندما قتل والدها في انفجار عبوة ناسفة بسوق تل أبيب تأوهت هلعًا لا تصدق.. وازداد صراخها المكتوم وهي ترى أحلامها تتحطم فوق صخرة الوهم شيئًا فشيئًا، فإسرائيل ليست هي الجنة الموعودة، بل الخدعة الكبرى التي روجوا لها، ومن أجلها ضحوا بالكثير في سبيل الهرب من العراق.

مات والدها فلم تقوَ أمها على تصديق الحقيقة فخرت صريعة المعاناة والمرض، وألفت شولا صراخ شقيقها الأكبر، محتجًا على ميراث أبيه من الأبناء الستة والمسؤولية التي أثقلت كاهله، حتى التقت "بعازرا"، ونبض قلبها الصغير بالحب لأول مرة، وظنت أن ثمة أمل جديد أشرق بحياتها، بيد أنها فجعت شر فجيعة بقتله هو الآخر في اشتباك مسلح مع أصحاب الأرض والوطن.

هكذا أسودت الحياة في وجهها وركنت إلى الصمت والانزواء تفكر في ما أصابها، وماذا عساها أن تفعل؟ فتملكتها رغبة الانتقام من العرب، لكن شغلتها معاناة الحياة اليومية، والجوع الذي لا يكف صراخه بنهش العقل والبدن..

وبعد عام قضته مقعدة ماتت أمها، وطفق شقيقها ينفث غضبه بوجه إخوتها، فخرجت تسعى للعمل بإحدى العيادات بشارع "تساهالون هاروفيم"، ووفقت في الحصول على وظيفة موقتة، لمؤهلاتها الأنثوية المثيرة الصارخة، فأسبغ عليها الراتب الضئيل مسحة من الطمأنينة والثقة بنفسها. وأحست بالعيون الجائعة تعريها كل لحظة وترغبها.

فالجسد الممشوق المتناسق الأعضاء يغري بالالتهام، والعيون الناعسة الواسعة ذات الرموش الطويلة الكثيفة ترسم أروع العناق، والفم المبسام الأملود الدقيق يوحي بمذاقات القبل.

وطاردتها العيون والشهقات والهمسات والأيدي الجائعة، فاستسلمت لجنرال في الجيش الإسرائيلي من أصل بولندي يجيد العربية، كان دائم التردد على العيادة، وبين يديه تكشفت لها خطوط الحقيقة وتفاصيلها، فقد أدركت لأول مرة أنها تملك سلاحًا فتاكًا تستطيع به أن تقهر أيّ قوة.. أنوثتها الطاغية.. وكانت تشبه قنبلة ذرية تذيب بلهيبها الأجساد، وتسيطر بها في يسر على الأعصاب والعقول.

أغدق عليها الجنرال الإسرائيلي بالمال والهدايا، فظنت أنها امتلكته، حتى استوعبت الأمر في النهاية. فالجنرال ما هو إلاّ ضابط كبير في جهاز المخابرات، تقرب إليها مستغلاً ظروفها، وعلى وعد بتأمين حياتها أغرقها في محيط الجنس والمال، ثم كاشفها برغبته في أن تعمل لصالح الجهاز لتحافظ على أمن إسرائيل من

جهة، ومن جهة أخرى كـي تعيش عيشـة رغدة لا تحلم بهـا فتـاة فـي مثل سنها فـي إسرائيل.

لم تكن شولا أمام واقعها المؤلم تستطيع رفض هذا العرض. فهي تحلم بـالمجد المفقود الذي كم رنت إليه، إضافة إلى استيقاظ الانتقام لديها من العرب الذين قتلوا والدها وحبيبها، وتسببوا في موت أمها كمدًا.

لكل ذلك أعلنت موافقتها راضية مقتنعة، لتبدأ بعدها أغرب مغامراتها في عـالم المخابرات والجاسوسية، فتستحق عن جدارة لقب "الزعيمة" الذي أطلق عليها في الموساد، ذلك لأن ما قامت به لصالح إسرائيل على مدى تسع سنوات متصلة، مثير جدًا.. وجريء.. عجيب كل العجب..!!

مهما تطورت أجهزة الاستخبارت في العالم فلا يمكن إغفال دور المرأة في ميدان التجسس. فامرأة جميلة.. ذكية.. بمقدورها أن تكون جاسوسة كاملـة تفوق الرجل، إذا استغلت مهارتها وحدة ذكائها وسلطان سحرها، خاصة في بلاد يسيطر عليها "الجوع الجنسي" كبلادنا العربية.

فالجاسوس الرجل.. يعتمد في الغالب على مهاراته وقوته البدنية، وشجاعته واندفاعه إلى درجة الإجرام.. وهو عادة يعمل سرًّا في الخفاء.

أما المرأة الجاسوسة.. فسلاحها سحرها وفتنتها وجسدها. ولذلك تظهر في أكثر الحالات ضمن هالات الأضواء على حلبات المسارح والملاهي، تعرض فتنتها فتثير النفوس، وتلقي شباكها ليأتيها من يرغبها طائعًا. خاضعًا.. ضعيفًا.. وخلال اعتراك لهيب الأجساد العارية، والقبلات، ورعشات الرغبة الساحرة، تنسكب المعلومات بلا ضابط، وتفشي الأسرار المصفدة بالكتمان وتباح كل المحظورات.

وقد يتساءل البعض:

هل تقبل المرأة في عالم المخابرات والجاسوسة، أن تضحي بشرفها للسيطرة على أعصاب شخص ما؟

- نعم. فأجهزة المخابرات في العالم كله تعتبر التضحية بالشرف، وبكل ما هو ثمين، أمرًا جائزًا في سبيل الوطن. بل ويُعد ذلك أثمن معاني الوطنية.

وعلى ذلك، يُطلب من الجاسوسات أن يستسلمن لشخصيات بعينها، توصلاً لجمع معلومات سرية تفيد المصلحة العامة. والعنصر النسائي في المخابرات الإسرائيلية بوجه خاص أمر إجباري.

فإسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم منذ عام ١٩٤٨، التي تفرض التجنيد الإجباري على النساء وقت "السلم"، حيث تستخدم النساء والفتيات في شتى المجالات العسكرية والسرية والجاسوسية، لتحقيق أهداف إسرائيل في الأمن والتوسع حتى ولو بالجنس. فالجنس سلاح اليهود منذ القدم، وقد أجادوا استخدامه وأتقنوه لدرجة الاحتراف وتفوقوا بذلك على الأمم الأخرى.

ومن النادر جدًا أن تخلو قصة تجنيد جاسوس لإسرائيل من المرأة والجنس. ويقول باحث:

"لم أصادف أبدًا حتى الآن في عشرات المراجع والملفات التي بين يدي عن الجاسوسية اليهودية، حالة واحدة لجاسوس جندته إسرايل خلت من الجنس، حتى في حالة الخائنة "هبة سليم" التي اشتهرت باسم "عبلة كامل"، فقد استغلت أنوثتها كجاسوسة إسرائيلية، وأغرقت الضابط المصري المقدم "فاروق الفقي"، وفعلت كما تفعل نساء الموساد في غرف النوم. وفي حالة الأردنية "أمينة داود المفتي"، فأؤكد بأنها لم تتعاون

مع الموساد بعد نصب "مصيدة العسل" المعتادة، لكن ارتباطها جنسيًا بطيار يهودي في فيينا ـ وهي المسلمة ـ ثم زواجهما لأمر بشع ومقيت. هذا ما حدث أيضًا مع "انشراح المصرية" التي سيطر عليها ضابط الارتباط الإسرائيلي بالجنس في تركيا. إنه واقع محير وشائك، رجال أوقعت بهم فتيات، وفتيات أوقع بهن رجال. عالم عجيب حقًا، كلما تبصرنا أسراره تملكتنا الدهشة وازددنا اقتناعًا بأن الجنس هو المحرك الأول للجاسوسية، دستورها المقدس عند اليهود منذ الأزل وحتى اليوم.. أما المال فيأتي في المرتبة الثانية مهما بدت رغبة الثراء متوحشة، أثيرة".

التحقت "شولا أرازي كوهين" بالموساد قانعة، وخضعت لتدريب مبدئي في مبنى خاص يقع في "كيريا" بتل أبيب، وأوكلت لأمهر خبراء الموساد مهمة ترويض تلك المخلوقة العجيبة الجمال ليصنعوا منها جاسوسة ذكية، مثقفة، لبقة، تجيد إدارة الحوار واجتذاب الرجال والسيطرة على أعصابهم.

ونظرًا لكونها شرقية من العراق ولم تحظ بقدر كاف من التعليم.. فقد بعثوا بها إلى لندن لتمتزج بالمجتمع والدنيا هناك وتتعلم التحدث بالإنكليزية.

وعلى مدار عام ونصف العام استطاعوا أن يستخرجوا منها خلاصة مخلوقة ثانية، مدربة على فنون التجسس والإغواء والسيطرة. وبأوراق ثبوتية مزورة، سافرت إلى بيروت في أيلول ـ سبتمبر ١٩٥٢، لتبدأ من هناك أولى مهامها التجسسية واثقة من قدرتها الفائقة، لا تحمل أسلحة فتاكة سوى جسدها المثير.

وفي ساحة المطار الخارجية، تهافت عليها سائقو الأجرة، وأوصلها أحدهم إلى وسط بيروت حيث نزلت بفندق "الغراند أوتيل"، وفي المساء غادرت الفندق تملأ مسامعها شهقات الإعجاب طوال تجوالها في شوارع المدينة المكتظة بالجمال.

كان عليها أن تستتر وراء وظيفة ما، أو مهمة جاءت بها إلى بيروت، ولم يكن الأمر بحاجة إلى إثباتات. فقد ادعت بأنها مندوبة لإحدى الشركات السياحية الأوروبية، جاءت للبحث عن وكلاء في لبنان. فانفتحت لها بذلك الأبواب المغلقة، واقتربت كثيرًا من ترسيخ أقدامها تمهيدًا للعمل.. خاصة بعدما تركت الفندق، وانتقلت إلى إحدى الشقق الفاخرة ببناية "الأمباسادور" الشهيرة.

كانت مهمتها الأولى البحث عن مسؤول لبناني له نفوذ قوي في الدوائر الرسمية.. تستطيع من خلاله أن تنفذ إلى ما تصبو إليه.. وأخيرًا عثرت على ضالتها في شخص موظف كبير اسمه "محمود عوض".. كان يشغل آنذاك أكثر من ست وظائف حكومية.. فذهبت لمقابلته للاستفسار عن إجراءات تمديد إقامتها، فسقط في شباكها وخر صريع سحرها، وتعمد تطويل الإجراءات ليراها كثيرًا، فتركت له جواز سفرها وأخلفت ميعادها معه.. ثم اتصلت هاتفيًا به لتخبره بمرضها وأعطته عنوان شقتها ليرسل به إليها.

وكما توقعت الجاسوسة المدربة، فقد ذهب إليها اللبناني الذائب بنفسه يحمل جواز سفرها وباقة من الورود، فاستقبلته بملابس شفافة تفضح معالم جسدها، وكان عطرها الفواح الذكي ينشر جوًّا من الأحلام والرغبة والاشتهاء.. ومنحته في النهاية جسدها مقابل خدمته.. فبات منذ تلك اللحظة عبدًا لجمالها تحركه كيفما تشاء، ولا يرفض لها أمرًا.

انشغل محمود عوض بمعشوقته وهو المسؤول المهم بإحدى الدوائر، وشهدت شقة الأمباسادور لقاءاتهما المحرمة التي تستغرق معظم وقته. فكان ينزف مع رجولته أسرارًا حيوية للغاية تمس لبنان وأمنه، إذ كان يعوض ضعفه الشديد أمام أنوثتها الفتاكة بسرد تفاصيل عمله. وتتملكه نشوة الانتشاء عندما يجيب باستفاضة عن استفساراتها

ويراها منبهرة مشدوهة "متغابية"، وبعد انصرافه تنكب على أوراقها تكتب كل ما تفوه به، وتخطط لما سيكون عليه الحال في اللقاء التالي.

كانت أوليات مهام شولا كوهين في بيروت، السيطرة على أكبر عدد من المسؤولين الحكوميين بواسطة الجنس، حتى إذا ما ترقوا في وظائفهم وأصبحوا ذوي شأن في صناعة القرار، أعيد من جديد إيقاظهم للعمل لصالح إسرائيل. وهؤلاء يطلق عليهم العملاء النائمون. فحينما يتبوؤن المناصب العليا، يسهل إخضاعهم لتمييع المواقف السياسية المستقبلية ضد إسرائيل، ويشكلون بذلك طابورًا من المسؤولين يدور في فلك إسرائيل.. وينفذ سياساتها دونما انحراف عن الخط المرسوم.

لذلك، وسعت شولا من علاقاتها بالمسؤولين اللبنانيين، وكانت الدائرة شيئًا فشيئًا، تتسع لتشمل موظفين رسميين بشتى الجهات الحكومية، سقطوا صرعى الجسد الناعم الملتهب وفورانات الإثارة.

وبالطبع، لم تكن شولا بقادرة وحدها على إشباع رغبات كل هؤلاء، إنما عمدت بحاستها إلى التعرف على فتيات حسناوات، باحثات عن المال، جمعتهن حولها وسخرتهن لتوثيق دائرة معارفها. واستلزم منها ذلك استئجار شقة أخرى، لتخفيف حدة زحام جوعى اللذاذات بشقتها.

وفي عام ١٩٥٦ كانت تستأجر خمسة منازل في مختلف أحياء بيروت، مجهزة بأفخر أنواع الأثاث.. ومزودة بكاميرات دقيقة وأجهزة تسجيل كل ما يجري بغرف النوم. وكانت أشهر فتاة لديها، طفلة أرمنية تدعى "لوسي كوبيليان" عمرها أربعة عشر عامًا تخلب بجمالها الألباب وتذيب العقول.

هذه الطفلة المرأة كانت إحدى نقاط القوة في شبكة شولا.. فقد تهافت عليها الرجال كالذباب، وسجدوا لجمالها وفتنتها. أما شولا: الزعيمة، فآثرت ألا تمنح

جسدها إلا لكبار المسؤولين ذوي المراكز الحساسة كي تستخلص بنفسها ما تريده منهم.

ولما تزاحم العمل، رأت الموساد أن تعضد شولا في مهمتها، فضمت إليها اليهودية "راشيل رافول" في طرابلس. وبانضمام راشيل، اتخذت شبكة شولا مسارًا جديدًا لم يكن في الحسبان.. فالعضوة الجديدة مدربة وماهرة جدًا.. ولها خبرة طويلة بأعمال الدعارة في لبنان.

وبالتعاون مع "إدوارد هيس" ضابط الارتباط الإسرائيلي في بيروت، أمكن القيام بعدة عمليات جريئة لتهريب أموال اليهود اللبنانيين المهاجرين لإسرائيل، بوسيلة "إشهار الإفلاس"، التي سهّلت عملية "إميل نتشوتو" التاجر اللبناني اليهودي، الذي هرب لإسرائيل بعدما سرق ملايين الليرات من البنوك والتجار. وكذا عملية "إبراهيم مزراحي" التاجر الطرابلس الشهير الذي هرب أيضًا بالملايين إلى اليونان، ثم لإسرائيل، بينما انخرطت زوجته "ليلى مزراحي" في خدمة الشبكة.. لتسهيل عمليات تهريب أخرى بما لها من علاقات بزوجات أثرياء اليهود.

وبتهريب يهود لبنان بأموالهم المسروقة إلى إسرائيل.. أضير الاقتصاد اللبناني ضررًا بالغًا، واضطرت بعض المصارف إلى الاستغناء عن خدمات بعض موظفيها المتورطين، وكاد للعملية كلها أن تنكشف لو لم يستطع البعض في الوقت المناسب عمل تغطية للفضيحة وإخمادها إلى حين.

جنت شولا كوهين ثمار عملها، واستشعرت قيمة مهمتها في بيروت للسيطرة على الكبار بالجنس، ذلك لأن محمود عوض أول الخاضعين لها لم يتوان عن التستر على نشاطها، ومساعدتها بما يملك من سلطات في نهب اقتصاد بلده.

هكذا دفع النجاح شولا كوهين لتطور من أسلوب عملها، وتنتهج مسلكًا أكثر فعالية في العمل.

بعدما اتسع نطاق شبكة الجاسوسية، وبالتالي تعددت مصادر التقارير والأسرار، كانت شولا تعاني من صعوبة نقل المعلومات المتدفقة عليها إلى إسرائيل، ورأت أن الحل يكمن في تجنيد أحد اللبنانيين قاطني الجنوب نظرًا لسهولة تسلله إلى إسرائيل بالمعلومات والتقارير، دون أن تثير تحركاته أحدًا.

فكرت جديًّا بهذه الحيلة، في ذات الوقت الذي سعت فيه لإيجاد مركز يجمعها بجواسيسها، فاستأجرت عميلة الموساد إحدى الكافيتريات بشارع "الحمراء"، وحولتها إلى "بار" يزدان بالديكورات والحسناوات أطلقت عليه اسم بار "الرامبو".

ومع الخمر والليل وجدت ضالتها المنشودة في شخص ابن الجنوب الساذج "م.س.ع."، الذي حملته ساقاه ذات مساء إلى البار.. فتسمر منبهرًا بمناظر الإباحيّة، وثقلت عليه رغباته المكبوتة فتاه عقله، وأحكمت شولا سيطرتها عليه بعدما تأكد لديها أنه سقط لآخره في براثنها.

وفي ليلة حمراء، فاتحته في الأمر. وكم كانت واثقة من إجابته، فإنه على استعداد لأن يفعل كل شيء في سبيل ألا يخسرها، أو يضيع لحظة واحدة من أوقات المتعة التي أدمنها. فحمّلته بالتقارير والمعلومات، وتسلل بها إلى الجانب الإسرائيلي.. ولم يرجع إليها بأوامر الموساد الجديدة فقط، بل اصطحب معه ابن عمه "ف.ع." الشاب المغامر.. الذي يعرف الدروب الجبلية ومواطن الضعف الأمني بمناطق الحدود الجنوبية.

وعلى انفراد، أخبر شولا بأن ابن عمه مستعد هو الآخر للانضمام إلى شبكة الجاسوسية مقابل المال. فلم تمنحه شولا المال وحده، بل وهبته أجمل فتياتها اللاتي ضيعن لبه، وسحرنه بما لم يألفه من متع النشوة، ليدور في النهاية كسابقيه في فلك الخيانة والتردي.

وأخيرًا جاء لها س. بابن العم الثالث "ن.ع." طائعًا مختارًا هو الآخر... وبذلك أمكن لشولا أن تنقل ملفات تقاريرها أولاً بأول عبر هؤلاء الثلاثة إلى قادتها في إسرائيل دونما صعوبة.. أو تشكك من الجهات الأمنية اللبنانية. بذلك.. تحول ملهى الرامبو إلى مركز لاصطياد الجواسيس وملتقى لهم في ذات الوقت، وأيضًا، ليعاين كبار الموظفين اللبنانيين الفتيات المثيرات فتتضاعف خدماتهم لشبكة شولا..

تغافل م. ع.، المسؤول اللبناني الكبير عما تقوم به شولا في لبنان.. مكتفيًا بالليالي الملتهبة بين أحضان الحسان، ولما أدرك قيمة الخدمات التي يؤديها مقابل الجنس، صارح شولا بأنه الخاسر بلا شك.. وطالبها بمقابل مادي حيث أن هدفه الأسمى في الحياة هو المال والثراء.

انزعجت شولا لطلبه الجديد فهو ثري في الأصل.. وما كان يطلب منها فتيات صغيرات جميلات يعدن إليه شبابه.

وبرغم سيطرتها عليه بوسائل عدة، منها تصويره في أوضاع شائنة مع أكثر من تسع فتيات، إلا أنها نفت فكرة تهديده، ذلك لأنه يعرف جيدًا كل المتعاملين معها من ذوي المراكز، وكتبت بذلك إلى رؤوسائها فوافقوا على رأيها، فأغدقت عليه الأموال مقابل تقاريره عن موظفي الدولة والدوائر الرسمية، التي كان يحملها أبناء العمّ الثلاثة إلى الإسرائيليين عبر الحدود في أوقات معينة متفق عليها.

وفي أيّار ـ مايو ١٩٥٨، وصل إلى بيروت ضابط سوري مسؤول، اجتمع من فوره بأحد ضباط الأمن اللبنانيين، وأبلغه بنشاطات شولا كوهين المشبوهة.. وإحاطتها بأسرار غاية في السرية عن الجيش اللبناني والسوري معًا.. تجلبها من خلال شخصيات على مستوى المسؤولية في البلدين على علاقة بها.

كانت خيبة أمل الضابط السوري كبيرة، عندما أخبره زميله اللبناني بأن شولا بعيدة عن الشبهات. وتم حفظ محضر الاجتماع في الأدراج برغم تأكيدات السوريين.

وفي بداية عام ١٩٦١ وقع محضر الاجتماع تحت يد ضابط لبناني شهم اسمه "عزيز الأحدب"، فقرأ ما تحويه السطور.. وبدأ في جمع المعلومات في سرية تامة عن شولا.. وفوجئ بعد عدة أشهر من المراقبات والتحريات بأن الفتاة تدير أكبر شبكة جاسوسية إسرائيلية في لبنان.. امتدت نشاطاتها لتشمل كل مناحي الحياة المدنية والعسكرية، ليس ذلك فحسب، بل تجمعت لديه أدلة كافية، بأنها وراء عمليات تهريب اليهود اللبنانيين إلى إسرائيل، بواسطة بعض من آل ع.، الذين يجيدون استخدام الدروب الوعرة في الجنوب.

هكذا، وبعد تسع سنوات من التجسس، ألقى عزيز الأحدب القبض على شولا كوهين في آب ـ أغسطس ١٩٦١، واعترفت في الحال عن شركائها، واثقة من أن نجدة ستجيئها حالاً من إسرائيل.

وأمام القضاء العسكري اللبناني تكشفت حقائق مذهلة، عن تورط شخصيات عديدة مسؤولة، في إمدادها بأدق الأسرار والتقارير التي تمس لبنان وكيانه[1].

---

١ ـ هذه الوقائع بكاملها منقولة عن: الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب (مكتبة مدبولي،٢٠٠٣) ص ٤٦٩ ـ ٤٧٩.

كَشفُ شبَكَة تجسُّس إسرائيليَّة في لبنَان [1]

بالرغم من هزيمة إسرائيل لأول مرّة في تاريخها بذلك الشكل المخزي وانسحابها من جنوب لبنان والبقاع الغربيّ في ملحمة تحريريّة على يد المقاومة اللبنانيّة في أيّار ـ مايو ٢٠٠٠، فقد استمرّ بعض العملاء في عملهم التجسّسي ضدّ شعبهم ووطنهم وأمّتهم، إلى أن تمكّنت مخابرات الجيش اللبنانيّ بالتعاون مع جهاز الأمن في "حزب الله" من اصطيادهم واعتقالهم في شباط ـ فبراير ٢٠٠٢، وذلك من خلال مراقبة فتاة تدعى "هنادي رمضان"، كانت تتردّد إلى منطقة "الحزام الأمنيّ" قبل التحرير، إلى أن تمّ إلقاء القبض عليها. ولدى التحقيق معها اعترفت بأنّ العميل "رضوان خليل الحاج"، وهو تاجر معروف، هو الذي جنّدها للعمل مع المخابرات الإسرائيليّة، ثمّ كرّت حبّات السبحة، وانفرط العقد الذي كان يتألّف من "عماد حسين الرزّ" وهو أحد مدراء مستشفى الشرق الأوسط في بيروت، و"محمّد عبد العزيز أبو ملحم" نائب مدير أحد المصارف، و"حسن هاشم" أحد المسؤولين السابقين المطرودين من حركة "أمل"، بالإضافة إلى رضوان خليل الحاج وهنادي رمضان.

جرى تعقّب الشبكة في لبنان وبعض الدول الأوروبيّة التي كان أفرادها يسافرون إليها للقاء الضبّاط الإسرائيليّين، وكان آخر لقاء لعماد الرز في السفارة الاسرائيليّة في روما في ١٠ شباط ـ فبراير ٢٠٠٢. وتبيّن أن عماد الرزّ كان يُعتبر الرئيس الفعليّ للشبكة، وقد دلّ على ذلك تجهيزه من قبل المخابرات الإسرائيليّة ببطاقة هاتف خلويّ تسمح له بإجراء الاتّصالات الدوليّة عبر الشبكة الاسرائيليّة.

---

١ ـ لائحة بمصادر هذه الواقعة في نهاية الفصل.

وقد أفادت معلومات أمنيّة لبنانيّة أنّ أفراد الشبكة لم يكونوا يعرفون بعضهم بعضًا، ما يعني أنّهم كانوا يشكّلون شبكة غير مترابطة لدواع إستخباراتيّة تهدف إلى الحؤول دون القبض على أفرادها في حال القبض على أحدهم... ولكنّ الاستخبارات اللبنانيّة تمكّنت من جميع أفراد الشبكة التي كانت تؤدّي الدور نفسه وتنفّذ التعليمات نفسها التي كان يكلّفهم بها ضابط ارتباط إسرائيليّ معروف باسم "رينيه".

تبيّن للمحقّقين اللبنانيّين أنّ أفراد العصابة الذين عملوا منذ العام ١٩٩٣ مع المخابرات الإسرائيليّة قد تقاضوا عشرات آلاف الدولارات كبدل للمعلومات التي كانوا ينقلونها. وقد استخلص باحثون أنّه يبدو من الموقع الاجتماعيّ والمهني والثقافي لأفراد الشبكة ومن أعمارهم ونضجهم، أنّ الشبكة كانت تمثّل أهميّة خاصّة للموساد، إذ إنّ مواقع هؤلاء العملاء تعطيهم الفرص المناسبة للقيام بعمليّات اختراق لمختلف القطاعات السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، كما تعطيهم حريّة الحركة داخل لبنان وخارجه، وإمكانيّة القيام بأسفار متكرّرة دون لفت النظر إلى حركتهم.

وتبيّن أنّ نشاط تلك الشبكة لم يقتصر على الاستعلام الأمنيّ المحدود، بل غطّى قطاعات واسعة، على صعيد انتشار الجيشَين اللبنانيّ والسوريّ، وبذل الجهود المكثّفة لاختراق حزب الله والمنظّمات الإسلاميّة، إلى جانب التركيز على المصارف وحركة تبيض الأموال التي شكّلت أولويّة.بعد أحداث ١١ أيلول ـ سبتمبر ٢٠٠١، كما أنّها شملت الرصد السياسيّ وجمع المعلومات عن النوّاب والوزراء والفعاليّات السياسيّة والاجتماعيّة، والمنتجعات السياحيّة البارزة، ولم تغفل بالتأكيد موضوع الأسرى الإسرائيليّين، والمعلومات عن أمكنة دفن بعض القتلى من الجنود الإسرائيليّين. كما كُلّف أفراد الشبكة بمعرفة الدعم الماديّ الذي تقدّمه مؤسّسات تجاريّة واقتصاديّة كبرى في منطقة الضاحية الجنوبيّة لبيروت إلى حزب الله، وحقيقة وضعها الماليّ، وقدرتها

على تأمين الدعم للحزب وللاقتصاد اللبنانيّ بشكل عام. وشمل نشاط بعض أفراد الشبكة تزويد الضبّاط الإسرائيليّين بالمعلومات عن تحرّكات عدد من النوّاب والشخصيّات السياسيّة والحزبيّة البارزة وفي طليعتهم أمين عام حزب الله السيّد حسن نصرالله، إضافة إلى محاولة جمع معلومات عن الطيّار الإسرائيليّ "رون آراد" الذي سقطت طائرته الحربيّة خلال إغارتها على جنوب لبنان في ثمانينات القرن العشرين.

وكان هؤلاء يحدّدون معلوماتهم حول المراكز الحسّاسة على صور جويّة مكبّرة تُعرض عليهم من قبَل ضبّاط إسرائيليّين كانوا يكافئونهم بالأموال في كلّ رحلة خارجيّة، إذ كانت تتراوح قيمة المكافأة بين خمسين ألف ومئة ألف دولار أميركيّ.

وقد اعترف حسن هاشم أمام المحقّق بأنّه قام باتّصالات مع مسؤولين إسرائيليّين في الخارج، وبالتحديد في بعض السفارات الإسرائيليّة لدى عواصم غربيّة مثل برلين وأوسلو وروما وفيينّا. كما اعترف بقبض مبالغ ماليّة تصل إلى ١٥٠ ألف دولار.

كما تبيّن للمحقّقين اللبنانيّين أنّ أفراد الشبكة قاموا بتجنيد أشخاص للعمل لصالح المخابرات الإسرائيليّة وبتأمين لقاءات لهم خارج لبنان مع ضبّاط إسرائيليّين. وقد تقاضوا في مقابل هذه الأعمال مبالغ ماليّة ضخمة.

وقد اعتبر مراقبون أنّ القبض على هذه الشبكة كان بمثابة كارثة أصابت الموساد في الصميم[١].

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص ٢٣٥ ـ ٢٥٠؛ جريدة "الديار" اللبنانيّة، العدد ٤٨١٠، الخميس ٢٨ شباط ـ فبراير ٢٠٠٢، ص١، والعدد ٤٨١٣، الأحد ٣ آذار ـ مارس ٢٠٠٢؛ جريدة "السفير" اللبنانيّة، العدد ٩١٣٦، الأربعاء ٢٧ شباط ـ فبراير ٢٠٠٢، ص١٦؛ جريدة "النهار" اللبنانيّة، الأربعاء ٢٧ شباط ـ فبراير ٢٠٠٢.

كشف شبكة أخرى كانت تعدّ لاغتيال نصرالله ومشعل وآخرين

يوم الخميس في الثالث من حزيران - يونيو ٢٠٠٤، نشرت جريدة "الديّار" اللبنانيّة خبرين منفصلين.

جاء في الأول، تحت عنوان "توقيف وجاهي لأفراد شبكة تجسّس" أنّ قاضي التحقيق العسكري الأول رياض طليع، أصدر مذكّرات توقيف وجاهيّة في حقّ خمسة موقوفين هم جمال فرج زعرورة، كمال حسين العوض، مجاهد عبد المعطي يونس، محمّد المجيد المسعى، وفتحي علي بوباني، وذلك بعدما استجوبهم في جرم إقدامهم بالاشتراك على تأليف عصابة مسلّحة بقصد ارتكاب الجنايات على الناس والتجسّس لصالح إسرائيل، وبيع منتوجات ضارّة من صنع العدوّ الإسرائيليّ. وختم طليع التحقيق في الملفّ وأحاله إلى النيابة العامّة العسكريّة لإبداء مطالعتها بالأساس تمهيدًا لإصدار قراره الاتّهامي.

أمّا الخبر الثاني، فلمراسلة "الديار" في باريس "بدرا باخوس الفغالي"، وجاء فيه:

طلب رئيس الوزراء الإسرائيلي إرييل شارون من رئيس جهاز المخابرات الخارجيّة "الموساد" مائير داغان تشكيل لجنة تحقيق لمعرفة الأسباب التي كانت وراء إلقاء الأجهزة الأمنيّة اللبنانيّة القبض على إحدى الشبكات التابعة للموساد في لبنان، التي كان يعوّل عليها تنفيذ عمليّات اغتيال للشخصيّات الواردة في اللائحة التي صادق عليها المجلس الوزاريّ المصغّر في وقت سابق وتتضمّن أسماء أمين عام حزب الله

السيّد حسن نصرالله، ورئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلاميّة "حماس" خالد مشعل، وزعيم الجهاد الإسلامي رمضان شلح، وأعضاء قيادة حماس موسى أبو مرزون، عماد العلمي، محمّد نزّال، وممثّل حماس في لبنان أسامة حمدان.

وتمثّل العناصر التي تمّ ضبطها الخليّة المعنيّة بالرصد والاستطلاع وجمع المعلومات، في حين أنّ هناك خليّة أخرى معنيّة بالتنفيذ تتلقّى المعلومات الكاملة من الخليّة الأولى ولكن ليس بشكل مباشر.

وكانت خليّة الرصد مكلّفة بجمع المعلومات الدقيقة عن تحرّكات أمين عام حزب الله السيّد حسن نصرالله المصنّف بعدوّ إسرائيل رقم واحد، وبرصد مكتب حماس في حارة حريك وتحديد منافذ الدخول إليه والخروج منه، وجمع التفاصيل عن أرقام وأنواع السيّارات التي ينتقل على متنها أسامة حمدان...

وبالنسبة لمحمّد نزّال، فكانت تحريّات الخليّة تتركّز على مراقبته لدى تردّده إلى بيروت وتحديد مقرّ إقامته في الضاحية الجنوبيّة التي يسكنها أيضًا رمضان شلح، بخلاف خالد مشعل الذي انقطع عن زيارة لبنان منذ اغتيال زعيم حماس في غزّة الرنتيسي.

وقد أصرّ شارون على رئيس الموساد بوجوب الإسراع في تقديم نتائج التحقيقات وتحديد الجهات المسؤولة عن هذا الخلل لمعاقبتها وفصلها من العمل لإنقاذ سمعة الذراع السريّة للدولة العبريّة والتي اهتزّت منذ النصف الثاني من التسعينات.

ويشكّك العديد من أعضاء هيئة أركان قيادة جهاز المخابرات الخارجيّة الموساد في كفاءة مائير داغان لإعادة الاعتبار إلى هذا الجهاز خصوصًا وأنّ تعيينه من قبَل شارون جاء عكس رغبات كبار الضبّاط الذين كانوا يعتبرون أنفسهم بأنّهم أحقّ منه

بهذا المنصب. وتأتي عمليّة ضبط شبكة الموساد في لبنان، ليطرح قادة الأجهزة الأمنيّة السؤال من جديد وهو: هل ولّى عهد الموساد بالرغم من الدعم الماديّ والمعنوي الذي يلقاه من كافّة رؤساء الوزراء الذين تعاقبوا على الحكومات الإسرائيليّة؟

جهاز أمن المُقاوَمة الإسلاميّة في حزب الله

لم يكن أحدٌ من المراقبين قد سمع "جهاز أمن المقاومة الإسلاميّة" في "حزب الله"، عندما عقد السيّد حسن نصرالله، الأمين العام لحزب الله، مؤتمرًا صحافيًّا في قاعة الزهراء في مسجد الإمامَين الحسنَين في "حارة حريك" بجوار بيروت بحضور حشد إعلاميّ محلّيّ وأجنبيّ. كان ذلك في السادس عشر من شهر تشرين الأوّل ـ أكتوبر سنة ٢٠٠٠، وكان موضوع المؤتمر الصحافيّ: "تقديم المعلومات الممكنة والمناسبة حول عمليّة أسر الضابط الإسرائيليّ، وخصوصًا بعد أن أخذ الموضوع مداه الكافي إعلاميًّا". وقد فوجئ العالم بما أعلنه الأمين العام لحزب الله في ذلك المؤتمر، وذُهلت إسرائيل...

أمّا ذلك الضابط الإسرائيليّ فهو العقيد في الموساد "ألخنان تانينبوم"، الذي استدرجه جهاز أمن المقاومة الإسلاميّة في حزب الله من بروكسيل إلى بيروت، حين كان تانينبوم، يحمل جواز سفر أجنبيًّا مزوّرًا، وكان يعمل على اختراق المقاومة والقيام بمهمّة تجسّسيّة في اتّجاه الحزب...

أعلن السيّد حسن نصرالله في مؤتمره الصحافيّ أنّ العمليّة بدأت قبل مدّة من الزمن، حين بادرت جهة أجنبيّة مخابراتيّة، عبر وسيط، بالإتّصال بأحد كوادر حزب

الله المقرّبين من شخصيّة أساسيّة في الحزب، ولطالما حصل هذا الأمر سابقًا، وهذه ليست هي المرّة الأولى التي تتّصل جهة مخابراتيّة بغطاء أجنبيّ بلبنانيّين من أجل تجنيدهم في عمل استخباريّ، ثمّ تبيّن لاحقًا أنّ هذه الجهة المخابراتيّة هي إسرائيليّة تتغطّى وتتستّر بعنوان أجنبيّ. إثر ذلك بادر الكادر المسؤول إلى تبليغ جهاز أمن المقاومة بما حصل معه.

عكف الجهاز الأمنيّ للمقاومة على رسم خطّة للتعاطي مع الموضوع لكشف الجهة، مَن هي هذه الجهة والعمل على استدراجها. وبعد مدّة من المتابعة، بات لدى الجهاز الأمنيّ للمقاومة شكوك حول حقيقة تلك الجهة، وبسبب طبيعة الأسئلة والمعلومات المطلوبة، ساد الاعتقاد بأنّها إسرائيليّة.

من أجل توثيق العلاقة ما بين المسؤول في حزب الله والوسيط مع تلك الجهة، تمّ تزويد تلك الجهة المخابراتيّة الأجنبيّة بمعلومات مهمّة، لكنّها لا تضرّ بالمقاومة. إثر ذلك سعت تلك الجهة المخابراتيّة للقاء المسؤول في حزب الله مباشرة، ولكن خارج لبنان، وفي بلد أوروبيّ قريب. هذا الطلب قوبل بالرفض... وهدّد الكادر المسؤول بقطع العلاقة مع الوسيط ما لم تكن علاقته مباشرة مع الجهة الأجنبيّة. أي طلب أن يتجاوز الوسيط وأن يصبح اللقاء مباشرًا بين المسؤول في حزب الله وبين مندوب هذه الجهة الأجنبيّة، وفي الوقت نفسه تمّ تزويدها بمعلومات أمنيّة إضافيّة مهمّة.

بعد عدّة محاولات، وبين أخذ وردّ، تمّ إقناع مندوب الجهة الأجنبيّة بالمجيء إلى لبنان، على أساس أنّه ليس إسرائيليًّا ولا توجد لديه أيّ مشكلة بالمجيء إلى لبنان، ويلتقي مع المسؤول في حزب الله مباشرة. وبالفعل، جاء هذا المندوب إلى لبنان قادمًا من بروكسيل، ودخل إلى لبنان بشكل قانونيّ وهو يحمل جواز سفر أجنبيًّا تبيّن لاحقًا، وبحسب اعترافاته، أنّ هذا الجواز مزوّر.

بعد سلسلة من الإجراءات تأكّد قياديّو حزب الله ممّا كانوا مقتنعين به، من أنّه ضابط برتبة عقيد في الجيش الإسرائيليّ، يعمل مع جهاز الاستخبارات الإسرائيليّة "الموساد"، فتمّ أسره واحتجازه في لبنان. وتبيّن أنّ اسمه "ألخنان تانينبوم"، وكان سابقًا قائدًا للواء مدفعيّة ميدان، شارك في الاجتياح الإسرائيليّ للبنان عام ١٩٨٢، وفي قصف بيروت وضواحيها، وهو يقيم مع عائلته في تلّ أبيب وليس في أوروبّا.

وقال الأمين العام لحزب الله في خلال مؤتمره الصحافيّ: "المسألة ليست مسألة خطف، لا من بلد أوروبيّ ولا من أيّ بلد في العالم. هناك ضابط برتبة عقيد في الجيش الإسرائيليّ يعمل مع الموساد منذ مدّة زمنيّة طويلة، يعمل على اختراق حزب الله على مستوى عال، تمّت متابعته أمنيًّا، وبخطّة هادئة تمّ استدراجه إلى لبنان وجاء بقدميه إلى لبنان. وعندما يصبح في لبنان هنا على أرضنا ضابط في الجيش الإسرائيليّ ونتأكّد من ذلك، فمن حقّ المقاومة الشرعيّ والقانونيّ أن تأسره وتحتجزه".

وأوضح السيّد حسن نصرالله للصحافيّين أنّ "التفاصيل التي عرضناها هي الحدّ الأقصى الذي يمكن أن نقدّمه لكم".

وردًّا على سؤال عن الإرباك الإسرائيليّ قال: "إنّ هذا الإرباك طبيعيّ لأنّ أهميّة الموضوع أنّنا نحن لم نعلن عن إسم العقيد. يمكن أن يعلنوا أنّ هناك عقيدًا مفقودًا إسمه ألخنان تنينبوم ثمّ يتبيّن أنّ العقيد الذي لدينا غير هذا العقيد، فيصبح هناك فضيحة في الكيان الإسرائيليّ، لذلك صار عندهم تشويش، مَن هو بالضبط العقيد الذي يتحدّث عنه حزب الله؟ ومن الطبيعيّ أن يكون هناك إرباك من هذا النوع لمدّة ١٢ ـ ٢٤ ساعة".

وأوضح ردًّا على سؤال بقوله: "نحن من خلال أسر هذا الضابط الإسرائيليّ، هدفنا العمل على إطلاق سراح الأسرى والسجناء المعتقلين في السجون الإسرائيليّة.

لكن مع هذا الضابط يصبح لدينا ٣ زائد واحد، (في إشارة إلى الجنود الإسرائليّين الثلاثة الذين كان حزب الله قد أسرهم في جنوب لبنان في وقت سابق) من أجل التبادل والعمل على إطلاق سراح السجناء والمعتقلين... ماذا نريد بالضبط؟ هذا ما نتحدّث عنه في قنوات التفاوض وليس في وسائل الإعلام... وإنّ من السابق لأوانه أن نكشف عن وثائق... وهذا يأتي في وقته المناسب... ونحن لسنا مستعجلين في طرح هذه الأمور".

وعن اتّهام إسرائيل إيران بأنّ عمليّة الخطف حصلت في سويسرا ومن ثمّ تمّ نقله مخطوفًا بطائرة إيرانيّة إلى بيروت، قال: "الإسرائيليّون يفترضون فرضيّة. الإسرائيليّون مخطئون بالنسبة للمكان، وهم يقولون إنّه خُطف في سويسرا، وهو لم يُفقد في سويسرا، هو دخل إلى بلجيكا بجواز سفر إسرائيليّ، وخرج منها بجواز سفر أجنبيّ، وثبت في ما بعد أنّه مزوّر، وجاء إلى لبنان. والموضوع ليس بحاجة إلى طائرة إيرانيّة كما يقول الإسرائيليّون ولا إلى حقيبة دبلوماسيّة. هذه مجرّد اتّهامات. على كلّ حال، الإسرائيليّون يستطيعون قول ما يشاؤون، ولكنّهم لا يستطيعون أن يقدّموا أيّ دليل على اتّهاماتهم وادّعاءاتهم. أمّا القول بأنّه رجل أعمال، فهذا يعزّز قناعتنا بأنّه يعمل مع الموساد الإسرائيليّ، لأنّ أجهزة المخابرات، كلّنا يعرف أنّها تحتاج إلى سواتر وإلى غطاء في سفرها وذهابها، وهذا يعزّز القناعة، ويساعد في أدلّتنا على أنّ الرجل يعمل في المجال الأمنيّ".

وعن اتّهام إسرائيل لسوريا في تدبير هذه العمليّة أجاب: "هذا طبيعيّ، فمنذ أن بدأت المقاومة في لبنان في مواجهة قوّات الاحتلال الإسرائيليّ، وحكومة العدوّ دائمًا تحمّل حكومة سوريا مسؤوليّة كلّ ما يحصل. اللبنانيّون يقاتلون دفاعًا عن أرضهم لتحرير أرضهم واستعادة معتقليهم وأسرهم في مواجهة قوّات الاحتلال، وحكومة

الاحتلال تحاول أن ترمي المسؤوليّة على سوريا أو إيران أو الحكومة اللبنانيّة في إطار عمليّة ضغط باتت لا تجدي نفعًا".

اعتبر مراقبون أنّ هذه العمليّة تُعَدّ من أنجح العمليّات في تاريخ المخابرات والتجسّس، كما تُعتبر نصرًا باهرًا أحرزه جهاز أمن حزب الله ضدّ جهاز الموساد الذي يكثر من ادّعاءاته بأنّه جهاز أسطوريّ يصعب اختراقه أو هزيمته أو التغلّب على بعض أساليبه في عالم المخابرات وعالم الجاسوسيّة[1]...

المعلومات التي كشف عنها الأمين العام لحزب الله في مؤتمره الصحافيّ حول عمليّة أسر الكولونيل الإسرائيليّ ألخنان تانينبوم، ألقت الضوء على "جهاز الأمن المضادّ"، أحد أبرز الأجهزة الأمنيّة التابعة لـ"المقاومة الإسلاميّة" في جنوب لبنان، وهو الجهاز المعنيّ بمواجهة الاختراقات التي تحاول أجهزة الأمن الإسرائيليّة القيام بها داخل الحزب والمقاومة. كما سلّطت هذه العمليّة الأضواء على القدرات المتميّزة التي تتمتّع بها الأجهزة الأمنيّة للحزب، والتي استطاعت خلال العقدين الأخيرين تحقيق العديد من الإنجازات في مواجهة المخابرات الإسرائيليّة والأميركيّة والأجنبيّة.

جاء في بعض الأبحاث أنّه في بدايات عمل الأجهزة الأمنيّة لـ"حزب الله" والتي نشأت بشكل موازٍ لعمل المقاومة الإسلاميّة، فإنّ أضخم عمليّة قام بها جهاز الأمن في الحزب كانت كشف المجموعة التي نفّذت عمليّة تفجير "بئر العبد" التي استهدفت السيّد محمّد حسين فضل الله في العام ١٩٨٥، وأدّت إلى استشهاد نحو ثمانين شخصًا وجرح عشرات الأخرين، ونجا السيّد فضل الله بأعجوبة. وقد نجح جهاز أمن حزب الله

١ ـ بقي الضابط الإسرائيليّ ألخنان تانينبوم محتجزًا لدى حزب الله حتّى ٢٩ كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٣ حيث كان في عداد صفقة تبادل الأسرى والمخطوفين التي أُجريت بين حزب الله وإسرائيل بوساطة ألمانيّة.

يومها في القبض على المجموعة وتبيّن أنّها تابعة للمخابرات الأميركيّة والإسرائيليّة، وقام أحد المسؤولين في المخابرات الأميركيّة بتأكيد معلومات حزب الله عن المجموعة ونشر ذلك في كتاب بعنوان "الحجاب". أمّا العمليّات الأخرى التي نجح الحزب في إنجازها فتركّزت على كشف مجموعات أمنيّة تعمل لمصلحة العدوّ الصهيونيّ، منها: مجموعة "عبّاس دباجة"، المجموعة التي عمل فيها "محمود جلّول"، وكانت تعمل بغطاء جهاز مخابرات أوروبيّ؛ ومجموعة "حسين عليان"، بالإضافة إلى العديد من الأشخاص والمجموعات الصغيرة التي كانت تبحث عن معلومات عن المقاومة والحزب أو تنوي القيام بأعمال أمنيّة. كما نجحت عبر عمليّة استدراج أمنيّة في القضاء على الوحدة الإسرائيليّة الخاصّة التي قدمت لتنفيذ عمليّة عسكريّة في انصاريه. تضاف إلى ذلك قدرة جهاز أمن المقاومة الإسلاميّة على اختراق ما سُمّي بـ"جيش لبنان الجنوبي" المتعاون مع إسرائيل، وقد ساعدت عمليّات الاختراق في تنفيذ العديد من العمليّات العسكريّة والأمنيّة ضد قادة جيش الاحتلال و"جيش لبنان الحنوبيّ" ومنها عمليّتا اغتيال "عقل هاشم" و"إيريز غيريشتاين".

وجاء في بعض الدراسات[1] أنّه في حوالي بداية الألفيّة الثالثة، تمّت إعادة هيكلة الأجهزة الأمنيّة والعسكريّة التابعة لحزب الله، وتمّ ربطها مباشرة بالأمين العام للحزب، ما ساعد في نجاحات تلك الأجهزة. ويستعين الحزب في كلّ أجهزته العسكريّة والأمنيّة بمجموعة كبيرة من أصحاب الاختصاص في مختلف المجالات العلميّة والتقنيّة ويستخدم أجهزة اتّصال متقدّمة.

---

١ ـ زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، في موسوعة الأمن والاستخبارات في العالم، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣) ص١٩٨ ـ ٢١٧؛ جريدة "النهار" اللبنانيّة، عدد ١٧ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ٢٠٠٠، ص١٣؛ جريدة "السفير" اللبنانيّة، عدد ١٧ تشرين الأوّل ـ أكتوبر ٢٠٠٠، ص٤.

ويتميّز حزب الله والأجهزة التنظيميّة والأمنيّة والعسكريّة التابعة له بالنظام الصارم والالتزام الدقيق بالانضباط وبروح التديّن الرفيع الذي يفرض على أيّ عضو في الحزب مراجعة القيادة أو المسؤول عنه في أيّ عمل يريد القيام به، حتّى ولو كان في إطار اهتماماته الخاصّة. كلّ هذه الميّزات جعلت من الصعوبة بمكان للأجهزة الأمنيّة المعادية اختراق مؤسّسات الحزب مهما بلغت الإغراءات الماديّة وغير الماديّة التي تقدّم لأعضائه أو كوادره[1].

---

١ ـ المصادر السابقة.

مَا هُوَ دَورُ الاستخبَارَات الأردنيَّة في اعتقَال صدَّام حُسَين

مَا هُوَ دَورُ الاستخبَارَات الأردنيّة في إلقاء القبض على الرئيس العراقي المخلوع صدّام حسين؟ وهل صحيح أنّ عمّان وافقت على استضافة "رغد" وشقيقتها "رنا" صدّام حسين بطلب من المخابرات المركزيّة الأميركيّة CIA لتتمكّن في ذلك من التنصّت على مكالماتهما الهاتفيّة ورصد زوّارهما الذين ربّما كانت لهم علاقة بوالدهما لتدبير عمليّة اعتقاله؟ وهذا ما يُرجّح ما حدث مع شقيقيهما "عُدي" و"قُصي" بعد أن تمّ الكشف عن مكان وجودهما من خلال هؤلاء الزوّار الذين كان بينهم، على ما يبدو، مَن فضّل مقايضة العهد والوفاء بحفنة من الدولارات؟

لا يستبعد الخبراء هذه الافتراضات، لا بل اعتبروها من بديهيّات العمل الأمني، وقد استخدمت هذه الوسيلة في مراحل متعدّدة من الحروب خصوصًا في أعقاب انتهاء الحرب العالميّة الثانية في العام ١٩٤٥ وما تبعها من ملاحقات طالت بعض رموز العهد النازيّ الذين فرّوا بعد سقوط ألمانيا النازيّة على يد الحلفاء، وأثمر عدم ملاحقة عائلات المطلوبين الذين فضّلوا البقاء في بلادهم عن الكشف عن أسماء دول اللجوء.

وبالرغم من أنّ هؤلاء الخبراء لا يربطون في أيّ حال من الأحوال بين ما جرى في العهد النازيّ وما حصل في قضيّة صدّام حسين ووجود ابنتيه في الأردن، غير أنّهم لا يقلّلون من شأن التعاون الاستخباراتيّ الأميركيّ ـ الأردنيّ في العراق الذي كان

---

١ ـ مصدر البحث في حاشية الصفحة ٥١.

مرشّحًا للاتّساع أكثر فأكثر خلال المراحل التالية. وبحسب المعلومات الواردة من المنطقة فإنّ القوّات الأميركيّة كانت تستعين بعناصر من المخابرات الأردنيّة ومجموعة من أفراد العشائر والقبائل الأردنيّة في مطاردة أنصار النظام العراقيّ المخلوع، وقد لعبت الأجهزة الأردنيّة دورًا كبيرًا في تجنيد عدد من المقرّبين من الرئيس السابق صدّام حسين في حقبة ما قبل الغزو الأميركي للعراق. ولعلّ أوّل المعنيّين بذلك كان وزير الدفاع السابق الفريق "أحمد سلطان هاشم" الذي بقي بجانب الرئيس العراقي حتّى اللحظات الأخيرة من سقوط بغداد. والفريق هاشم هو الذي وقّع اتّفاق الهدنة مع الجنرال "شوارزكوف" في العام ١٩٩١. وهو الذي أصبح بعد سقوط العراق بأيدي قوّات التحالف المرشّح الأوفر حظًّا لتولّي قيادة الجيش العراقي الجديد. وقد خضع لعدّة ساعات من الاستجواب الشكليّ لدى القوّات الأميركيّة قبل أن يُطلق سراحه ويقوم بزيارة إلى الولايات المتّحدة لعدّة أيّام لتفقّد عائلته التي كانت تعيش فيها منذ سقوط بغداد. ثمّ انتقل ليعيش في مسقط رأسه في الموصل. أمّا الشخصيّة العراقيّة الثانية المعنيّة بالتعاون الأردنيّ - الأميركيّ فهي، على ما تردّد، مدير جهاز المخابرات العامّة العراقيّة السابق اللواء "طاهر جليل الحبوش". هذا الأخير خرج برفقة أمين السجلّات في جهاز المخابرات "أكرم نعمة" من بغداد إلى عمّان ومنها أقلّته طائرة خاصّة إلى قبرص ومنها سافر إلى الولايات المتّحدة عبر القاعدة العسكريّة الأميركيّة في ألمانيا. وهذا ما يفسّر عدم قصف الطيران الأميركيّ لمقرّ المخابرات العامّة العراقيّة على الرغم من كونها أحد الأهداف الرئيسيّة الاستراتيجيّة في العاصمة بغداد[١].

---

١ ـ الفغالي بدرا باخوس، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢١ كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠٣، ص١٨.

الجاسوس الإسرائيليّ "يانا بقاعي"

كان "يانا بقاعي" من أهمّ العناصر التي قدّمت خدمات للموساد في اختراق المجتمع الأردنيّ لسنوات طويلة، فقد كان يجيد التنكّر وعمليّات التسلّل إلى الأردنّ، وأقام شبكة معلومات واسعة، وجمع أخبار المقاومة الفلسطينيّة وقادتها وفصائلها المختلفة، واخترق مجتمع الصفوة الأردنيّ، واستطاع الحصول على معلومات عسكرية دقيقة.

اكتشفته أجهزة الأمن الأردنيّة وحاكمته وتمّ إعدامه[١].

العمَلِيَّة التي أزّمت العلاقات الأردنيَّة ـ الإسرائيليَّة

في ٢٤ أيلول ـ سبتمبر ١٩٩٧، وصل إلى العاصمة الأردنية عمّان فريق اغتيالات تابع للموساد ليقوم بالتصفية الجسدية لقائد منظّمة حماس الإسلاميّة "خالد مشعل". وقد جاء أعضاء الفريق من أثينا وأوروبا وباريس، وكان اثنان منهم، وهما العنصران المكلّفان بالقتل، يحملان جوزاي سفر كنديّين بإسمي "باري بيدس" و"شون كندال"، وقد زعما أنّهما سائحان.

كانت عمليّة الاغتيال ستتمّ بطريقة مختلفة، حيث أنّها لن تعتمد على إطلاق الرصاص على مؤخرة الرأس كما هو معتاد من قبل الموساد، بل كانت ستتمّ من خلال استعمال نوع من غاز الاعصاب القاتل.

---

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص٢٦٥.

وضعت تفاصيل الخطّة وتمّت المتابعة بالسيّارات حتّى حدثت المقابلة المباشرة بين القاتلين وخالد مشعل، وحاول أحدهم أن يلقي الغاز في أذن زعيم حماس، ولكنّه لم يستطع إكمال العمليّة بالسرعة المطلوبة، فقد حاول الهرب بعد تجمّع الناس حوله، ولم يتمكّن العميلان من الفرار، بحيث تم القبض عليهما. وادخل خالد مشعل المستشفى حيث تمّ إنعاشه. وتأكد عملاء الموساد بأن "بيدس وكندال" قد تمّ القبض عليهما، ففرّا متسللين إلى داخل إسرائيل بعد أن فشلت الموساد في عملية اغتيال خالد مشعل بواسطة الغاز القاتل[1].

أحدثت هذه العمليّة التي تمّت بناء على أوامر رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو نفسه، أزمة في العلاقات بين الأردن وإسرائيل. وقد اتّصل الملك الأردني حسين شخصيًّا بنتنياهو وطلب منه إرسال الترياق الشافي من الغاز المستعمل في محاولة قتل مشعل. فامتثل نتنياهو للطلب، وبذلك تمّ إنقاذ حياة مشعل.

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣) ص٢٦٧.

نجاة عمّان من نحو ٢٠ إلى ٨٠ ألف قتيل

في السابع عشر من نيسان ـ إبريل ٢٠٠٤ قال مسؤول مقرّب من التحقيقات التي كانت تجري مع أفراد شبكة إرهابيّة تمّ القبض عليهم أنّ الشبكة كانت تنوي استخدام قنبلة كيماويّة ضدّ مقرّ المخابرات في غرب عمّان كان يمكن أن توقع ٢٠ ألف قتيل.

وقال المسؤول الذي طلب عدم كشف هويّته "لقد وجدنا مواد أوليّة لتصنيع قنبلة كيماويّة كان بالإمكان إذا انفجرت، أن تقتل حوالى ٢٠ ألف شخص وتؤدّي إلى دمار على امتداد لا يقلّ عن كيلومتر واحد".

وأضاف أن الاعتداء "كان يستهدف من ضمن المنشآت الأردنيّة مبنى المخابرات" الواقع في إحدى تلال غرب عمّان، كذلك استخدام "الغاز السامّ ضدّ السفارة الأميركيّة ومقرّ رئاسة الوزراء في عمّان".

وتابع أنّ "الشبكة كانت تستهدف أيضًا وزارات حيويّة"، مشيرًا إلى أنّها "مرتبطة على الأرجح بفضيل نزال الخلايلة المعروف باسم أبو مصعب الزرقاوي".

وكان العاهل الأردنيّ الملك عبدالله الثاني أكّد قبل وقت قصير على أنّ المخطّط الإرهابيّ الذي تمكّنت الأجهزة الأمنيّة من إحباطه كان سيحصد "أرواح آلاف المواطنين"، واصفًا إيّاه "بجريمة لم تكن المملكة لتشهد مثيلاً لها"، وذلك في رسالة إلى أجهزة المخابرات الأردنيّة.

وكان مسؤول أردنيّ رفيع المستوى أكّد على أنّ السيّارات التي ضبطتها الشرطة كانت محشوّة بالمتفجّرات و"مواد أوليّة لتصنيع قنبلة كيماويّة". وكان مسؤولون في وزارة الخارجيّة الأميركيّة أعلنوا أنّ السلطات الأردنيّة أحبطت هجومًا

كان تنظيم القاعدة بزعامة أسامة بن لادن يخطّط لشنّه على السفارة الأميركيّة في عمّان.

وقال المسؤولون إنّ الخطّة كشفت بعد اعتقال أعضاء خليّة إرهابيّة يُعتقد أنّها على علاقة بأبي مصعب الزرقاوي كانوا يخطّطون للهجوم على منشآت حكوميّة أردنيّة.

وقد حكمت محكمة أمن الدولة الأردنيّة في السادس من نيسان ـ إبريل ٢٠٠٤ بالإعدام على أبو مصعب الزرقاوي الذي وضعت واشنطن مكافأة ماليّة لمن يساعد في إلقاء القبض عليه، إلى جانب سبعة متّهمين آخرين في قضيّة اغتيال الدبلوماسي الأميركيّ لورانس فولي في عمّان[1].

وفي تاريخ لاحق[2] أكّد مسؤولون أمنيّون أردنيّون أنّ الهجوم بالأسلحة الكيميائيّة الذي كان يخطّط له عناصر مرتبطون بتنظيم القاعدة ضدّ مقرّ الاستخبارات الأردنيّة في عمّان والذي أحبطه الأردن، كان يمكن أن يؤدّي إلى سقوط ٨٠ ألف قتيل.

وقال المسؤولون عبر تلفزيون الأردن أنّ أجهزة الأمن الأردنيّة تمكّنت من اعتقال أو قتل أعضاء الشبكة وضبط شاحنات محمّلة بأطنان من المتفجّرات.

وعرض التلفزيون الأردني صورًا أكّد أنّها "المواد الكيماويّة التي كان إرهابيّون من تنظيم القاعدة يعملون على تحويلها إلى متفجّرات"، وكذلك "الشاحنات التي كان سيقودها إرهابيّون إنتحاريّون إلى دائرة المخابرات العامّة، وهي محمّلة بحوالى ٢٠ طنًّا من المتفجّرات الكيمياويّة". وأضاف التلفزيون في تقريره أنّ "العمليّة التي كانت

---

١ ـ أ ف ب، ١٦ نيسان ـ إبريل ٢٠٠٤.

٢ ـ أ ف ب، ١٧ نيسان ـ إبريل ٢٠٠٤.

ستكون الأكبر في تاريخ المملكة من حيث حجمها وعدد ضحاياها، كانت ستؤدّي إلى قتل ٨٠ ألف مواطن أردنيّ".

وطبقًا للمسؤولين الأردنيّين فقد تمّ اعتقال ستّة من أفراد الشبكة، فيما قتل أربعة آخرون في سلسلة غارات شنّتها قوّات الأمن الأردنيّة، كان آخرها في العشرين من شهر نيسان - إبريل ٢٠٠٤.

وأضاف التلفزيون الأردنيّ أنّ "الإرهابيّ أحمد فضيل الخلايلة الملقّب أبو مصعب الزرقاوي، أحد أبرز قيادات القاعدة، هو الذي خطّط لهذه العمليّات وحدّد أهدافها وجنّد عناصرها".

وأضاف أنّ الزرقاوي، وهو إسلاميّ فار من العدالة حكم عليه بالإعدام في الأردن في وقت سابق من نيسان إبريل ٢٠٠٤ لدوره في عمليّة اغتيال دبلوماسيّ أميركيّ في عمّان في تشرين الأوّل – أكتوبر ٢٠٠٢ "قرّر أن تكون المخابرات العامّة هي أوّل أهداف المجموعة وقام بتوظيف أشخاص لشنّ الهجوم".

وتمّ تقديم "قائد" الشبكة الإرهابيّة بوصفه "عزمي الجيوسي" الذي قالت المصادر إنّ الزرقاوي قام بتجنيده في العراق.

وأضاف المسؤول الأردنيّ أنّ "الجيوسي بدأ التخطيط للعمليّة في العراق التي كان انتقل إليها من أفغانستان". مضيفًا أنّ الجيوسي كان يعمل "بأمر مباشر من أميره أبو مصعب الزرقاوي، الذي بايعه الجيوسي بالطاعة المطلقة منذ أن التقاه في معسكرات القاعدة في أفغانستان".

وبثّ التلفزيون صور الجيوسي الذي قال في اعترافاته إنّه تدرّب في هراة في أفغانستان، "لحساب أبو مصعب"، حيث قال إنّه تلقّى "دورات متفجّرات وسموم".

وأضاف الجيوسي "بايعت أبو مصعب الزرقاوي على السمع والطاعة، وبدون مناقشة أمشي معه".

وأضاف الجيوسي أنّه قابل الزرقاوي مرّة ثانية في العراق وتمّ تقديمه إلى مواطن أردنيّ آخر من أتباع الزرقاوي، قال إنّه يدعى موفّق عدوان، وقُتل موفّق عدوان في اشتباكات مع قوّات الأمن الأردنيّة في العشرين من نيسان ـ إبريل ٢٠٠٤. وقال الجيوسي "كلّمني أبو مصعب بالنزول إلى الأردن أنا وموفّق عدوان لتأسيس عمل عسكريّ على الساحة الأردنيّة".

وأضاف الجيوسي أنّه التقى في الأردن "بأحد العناصر التابعة لأبو مصعب، وهو سوري الجنسيّة يدعى هيثم عمر ابراهيم وكان قد رتّب بيوتًا آمنة". وقال إنّه بدأ مع موفّق عدوان بجمع معلومات حول أهداف الهجوم، والمواد الكيماويّة التي ستستخدم فيه.

وقال الجيوسي إنّه وموفّق تمكّنا "من شراء كميّات كبيرة جمعت حوالى عشرين طنًا كانت كافية لجميع الأعمال على الساحة الأردنيّة" قبل أن يبدأ بتصنيع وتجهيز القنابل.

وفي الأوّل من أيّار ـ مايو ٢٠٠٤، أفاد مراسل جريدة "الحياة" اللبنانيّة في لندن أنّ أحمد الخلايلة المعروف بأبو مصعب الزرقاوي قد تبنّى في تسجيل صوتيّ جديد منسوب إليه، عمليّة التفجير التي كانت ستستهدف مقرّ قيادة الاستخبارات الأردنيّة في عمّان وكشفتها الأجهزة الأمنيّة الأردنيّة قبل تنفيذها. لكنّه نفى ما أعلنته السلطات من أنّ الهجوم كانت ستُستخدم فيه "مواد كيماويّة"، الأمر الذي كان سيؤدّي إلى سقوط آلاف الضحايا. وردّ الزرقاوي في التسجيل الصوتيّ الذي وزّع في مواقع إسلاميّة على شبكة الإنترنت على ما سمّاه "الضجيج" الذي أثير بعد كشف مؤامرة تفجير مقرّ

الاستخبارات. وقال إنّ "الاستخبارات الأردنيّة كذبت مرّتين: مرّة حين زعمت إنّنا كنّا نعدّ للفتك بأهل الإسلام وقتل الأبرياء من السكّان، وثانيًا حين زعمت إنّها أفشلت المخطّط صيانة لدماء أهل الإسلام"... وتابع: "ما ذُكر من أرقام خياليّة وأنّها قنبلة كيماويّة تقتل الآلاف من الناس كذب محض" في إشارة إلى ما أعلن من أنّ التفجير كان سيؤدّي إلى مقتل قرابة ٨٠ ألف شخص. وقال إنّه لو امتلك مثل القنبلة التي تحدّثت عنها أجهزة الأمن الأردنيّة "لما تردّدنا لحظة واحدة في ضرب مدن إسرائيل كايلات وتل أبيب".

وأكّد أنّ "الأطنان التي صنعت منها القنبلة هي من الموادّ الأوليّة التي تباع في الأسواق كما ذكر الأخ عزمي الجيوسي" قائد الخليّة التي حاولت القيام بالعمليّة والذي ظهر في التلفزة الأردنيّة قبل أيّام يدلي باعترافات عن علاقته بالزرقاوي.

وبرّر الزرقاوي الذي يقود جماعة مسلّحة في العراق تدعى "التوحيد والجهاد" سبب استهدافه الأردن بالقول إنّ هذا البلد "قاعدة إمداد خلفيّة" للأميركيّين في العراق، وإنّ الاستخبارات الأردنيّة تطارد الذين يشاركون في الجهاد أينما كانوا "حتّى تحوّل سجنها بحقّ إلى غوانتانامو العرب". وأشار إلى أنّ الأميركيّين يرحّلون إلى الأردنّ من لا يستطيعون التحقيق معه من المعتقلين في باكستان وأفغانستان"، قائلاً "إنّ سجون الاستخبارات الأردنيّة تحوي إسلاميّين من الخليج والشيشان والعراق ومصر ومنهم الأخ المجاهد أبو زبيدة"، في إشارة إلى القياديّ الفلسطينيّ في تنظيم القاعدة الذي اعتقله الأميركيّون في باكستان عام ٢٠٠٢.

وختم الزرقاوي رسالته بالقول: "الحرب سجال والأيّام أول، ولنا مع حكومة الأردن وقائع تشيب لهولها الولدان... والقادم أدهى".

المخابرات السودانيّة

عندما استولى تنظيم الضبّاط الأحرار على السلطة في السودان في ٢٥ أيّار ـ مايو ١٩٦٩، كان عليهم مسؤوليّة بناء جهاز استخبارات حديث يقع على عاتقه حماية الثورة والدفاع عنها. وقد أُعلن عن قيام جهاز أمن الدولة في عام ١٩٧٨ بعد سلسلة من التجارب الأمنيّة التي أدّت في النهاية إلى دمج كلّ من جهاز الأمن القومي الذي كوّنته ثورة أيّار ـ مايو مع جهاز الأمن العام الذي كان يعمل ضمن وزارة الداخليّة. وقد تطورت عمليّة توحيد النشاط الاستخباراتيّ إلى حالة الدمج كما يلي:

أوّلاً: جهاز الأمن العام:

يعتبر جهاز الأمن العامّ السودانيّ التابع لوزارة الداخليّة امتدادًا لـ"القلم المخصوص" الذي أنشأه المستعمر البريطانيّ للسودان لمواجهة التهديدات السياسيّة التي كان يقوم بها العناصر والأحزاب الوطنيّة. وتعرّض القسم السياسيّ لمتغيّرات عديدة أثناء حقبة ما بعد الاستقلال سنة ١٩٥٦، وكان له دور بارز في عهد حكم الرئيس إبراهيم عبّود (١٩٥٨ ـ ١٩٦٤) الذي وصل إلى الحكم عن طريق انقلاب عسكري. وقد طاولت التغيّرات خصوصًا مجال مكافحة الشيوعيّة ومطاردة الشيوعيّين والنقابيّين ورجال الأحزاب السياسيّة والمنظّمات المختلفة، والتي كانت تعارض الحكم العسكريّ. وقد أبرز الجهاز كفاءة في هذا المجال حيث كانت عناصر الحزب الشيوعي تتمتّع بقدرات حركيّة عالية وخبرات في العمل السرّي وإجادة الاختفاء

والتحريض المستمرّ للقضاء على الحكم العسكريّ. وبعد انتصار ثورة تشرين الأوّل – أكتوبر ١٩٦٤، تحرّك الشارع الثائر منددًا بقيادات جهاز الأمن العام، ما أدّى إلى فصل العديد من عناصره وتقديم بعضهم لمحاكمات تحت شعار تطهير وزارة الداخليّة من العناصر الأمنيّة المؤيّدة للنظام العسكريّ الذي أطيح به. وكانت الهجمة محصورة في قيادات جهاز الأمن العامّ، ولم تتعدّ ذلك لاستصدار قرار بحلّه، بل بقي تابعًا لوزارة الداخليّة تقوده عناصر ذات ميول تتوافق مع الوضع السياسيّ العامّ الذي أفرزته ثورة تشرين الأوّل - أكتوبر ١٩٦٤.

عيّنت ثورة أيّار - مايو واحدًا من أبرز عناصرها وزيرًا للداخليّة، وهو الرائد "فاروق عثمان حمدالله"، ليعيد بناء جهاز الأمن العامّ، مستعينًا بالمخبرات الألمانيّة الشرقيّة والروسيّة. وضمّ الجهاز يومذاك عناصر من أعضاء الحزب الشيوعيّ والبعث العربيّ والناصريّين باعتبارهم القوى التقدّميّة التي تعتمد عليها الثورة في مواجهة القوى الرجعيّة والتقليديّة التي تمّت الإطاحة بها. إلا أنّ بقاء الرائد فاروق حمدالله لم يدم طويلاً في وزارة الداخليّة، فقد تمّ إعفاؤه مع آخرين من عضويّة مجلس قيادة الثورة في ١٦ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٧٠. وتتابعت الأحداث بقيادة الرائد "هاشم العطاء" بانقلاب الحركة التصحيحيّة في ١٩ تمّوز - يوليو ١٩٧١، الذي استمرّ ثلاثة أيّام. بعدها تحوّل النظام من اليسار إلى اليمين... وتمّ الاستغناء عن التعاون الروسيّ والكتلة الشرقيّة، وطُردت العناصر العقائديّة التي سبق استيعابها في الجهاز تباعًا، في ما يُعرف بعمليّة تطهير جهاز الأمن العامّ من العناصر العقائديّة، وإن كانت بصمات الخبراء الألمان كانت واضحة عندما تمّ استبدال طريقة العمل في جهاز الأمن العامّ من "العمل من خلال المناطق الجغرافية" إلى نظام العمل "للمناشط والفاعليات والقطاعات".

وبالرغم من هذه الهزّة العنيفة، فقد استمرّ جهاز الأمن العامّ السودانيّ في أداء مهامّه ضمن إطار وزارة الداخليّة. وقد تناوب على قيادته عناصر مشهود لها بالكفاءة والاحتراف للعمل الشرطيّ، وبالمعرفة بطبائع أهل السودان، وبذلوا جهدًا كبيرًا للموازنة بين أداء عملهم وفق أسس وواجبات الدفاع عن الأمن القوميّ للدولة، وبين طموح الرئيس جعفر النميري في استغلال الجهاز للقضاء على خصومه السياسيّين وكافّة العناصر المعارضة له، حيث برزت تجاوزات باتّباع بعض الأساليب المستنكرة بالنسبة للشعب السودانيّ، والتي تعتبر بدايات الهجوم على الحريّات وانتهاكًا للحقوق الإنسانيّة، بإزدياد أعداد المعتقلين السياسيّين في الكثير من معتقلات وسجون السودان.

ثانيًا: جهاز الأمن القوميّ:

تم إنشاء جهاز الأمن القوميّ في السودان برئاسة عضو مجلس قيادة ثورة أيّار ـ مايو الرائد "مأمون عوض أبو زيد" في عام ١٩٦٩ لحاجة البلاد الماسّة لجهاز أمنيّ لحمايتها. وكان الجهاز عسكريًا مستقلاً عن سائر الإدارات، يتبع رأسًا لرئيس الدولة، ويعنى بمكافحة التجسّس الأجنبي والتخريب والسيطرة على العمل السياسيّ الداخليّ، وتحجيم النشاط السياسيّ المعارض، وجمع المعلومات وتحليلها.

وكان لرئيس الجهاز خبرة واسعة في مجالات الأعمال الأمنيّة والاستخباراتيّة، وقد استعان بضبّاط من القوّات المسلّحة، وبعدد من الجامعيّين الذين ليست لديهم خبرات سابقة في مجالات العمل الأمنيّ، وبعضه حاصل على درجات علميّة متفوقة. كما تمّ انتداب عدد من موظّفي الخدمة المدنيّة في هذا الجهاز الذي ضمّ الأقسام التالية:

١ ـ القسم السياسي.
٢ ـ قسم المخابرات.
٣ ـ القسم الدبلوماسي.
٤ ـ القسم الاقتصادي.
٥ ـ القسم الفنّي.
٦ ـ قسم المراقبة والتحرّي.
٧ ـ قسم السجلات.
٨ ـ قسم المعلومات.
٩ـ المستشار القانوني.
١٠ـ الشؤون الإداريّة والماليّة.

وقد ساعدت المخابرات الروسيّة في بناء هذا الجهاز وتدريب عناصره. إلاّ أنّ الحقبة الأولى بعد تأسيس الجهاز كانت مضطربة وغير مرتكزة على مفاهيم ورؤية أمنيّة واضحة في ما يتعلق بالمصالح الوطنيّة العليا، فقد كان ملموسًا أن عناصر الجهاز قليلة الخبرة ومندفعة وتمارس عملها بما يتزاحم في دواخلها من كيد سياسيّ، خاصّة وأنّ معظم العناصر المدنيّة التي انتمت إلى الجهاز كانت تسيطر عليها مسألة الالتزام الحزبيّ العقائديّ، وهي على استعداد تامّ للتصارع مع بعضها البعض وخلق التوتّرات المستمرّة. وقد أحدث انقلاب الرائد "هاشم العطا" في ١٩ تمّوز ـ يوليو ١٩٧١ هزّة قويّة داخل جهاز الأمن القوميّ حيث تمّ الاستغناء عن العناصر الشيوعيّة المنضمّة إليه، ولم يشفع لها تقديم خبراتها في كشف مواقع الحزب الشيوعيّ السريّة والعلنيّة والمتعاطفين معه، وإثارة الرأي العامّ ضده من خلال وسائل الإعلام التي كانت توجّهها. وكما حدث في جهاز الأمن العامّ، فقد بدأ التخلّي تباعًا عن أنصار ثورة

العقائديين الذين كان يصفهم النميري بالتقدميّين، وواصلت مجموعات المزايدات السياسيّة والتلوّن الحزبيّ تواجدها داخل الجهاز الذي بدأ يستوعب أهل الثقة والمحاسيب والوساطة... وعُين العميد "الرشيد نور الدين رئيسًا" للجهاز لمدّة قصيرة، ثم تبعه الرائد "علي عبد الرحمن النميري" رئيسًا للجهاز، وقد شهد عهده توسّعًا ملحوظًا في الأداء الخارجيّ والانتشار والنجاح في اختراق الأحزاب السياسيّة المعارضة. وكان آخر رؤوساء الجهاز قبل إعلان دمجه مع جهاز الأمن العامّ اللواء "عمر محمد الطيّب"، وهو عسكريّ نال دراسات استراتيجيّة عليا وحقّق ما ورد في مقترحات جهاز المخابرات السوفياتيّ عند إنشاء الجهاز، وهو ضرورة دمج أجهزة الاستخبارات في جهاز واحد.

ثالثًا: جهاز أمن الدولة:

نشأ جهاز أمن الدولة السودانيّ نتيجة دمج جهازَي الأمن العامّ والقوميّ وفق قانون جهاز أمن الدولة لعام ١٩٧٨. وقد كان رئيس جهاز أمن الدولة في نفس الوقت النائب الأوّل لرئيس الجمهوريّة حيث بدأ عهدًا جديدًا لأجهزة المخابرات السودانيّة التي أصبحت تتدخّل في كافّة مناحي الحياة، وتفرض سيطرتها بعنف على من يخالفها. فيبدو أنّ عمليّة دمج جهاز الأمن القوميّ والأمن العامّ قد نتج عنها ولادة لجهاز شرس عدوانيّ متأثر بشكل كبير بأجهزة المخابرات الفاشيّة التي تمّ تدريب عناصره فيها. والجدير بالذكر أنّ الجهاز كان على علاقة وثيقة بالمخابرات الأميركيّة والموساد والعديد من المخابرات الغربيّة، وكان يتبادل معها بعض العمليات القذرة المتعارف عليها في عالم المخابرات السرّي، كما كان يتلقّى دعمًا من أجهزة المخابرات التي كان يتعاون معها في مجالات بيع المعلومات وتسليمها العناصر المعارضة لها بما في ذلك

ترحيل يهود "الفلاشا" إلى إسرائيل. وبدأت عناصر جهاز أمن الدولة تعمّق عدائيّتها للجماهير بممارسة أساليب التعذيب في استجواب المتّهمين سياسيًّا، وباختطاف بعض العناصر المعارضة من دول الجوار. وتشابهت ممارستها في معاملة المعتقلين السياسيّين بالمعاملة التي يتعامل بها جهاز الموساد الإسرائيليّ في التعذيب البدنيّ والنفسيّ للمعتقلين، وقد أقحمت النساء في العمل الاستخباراتي، وتمّت الاستعانة بالمومسات كمصادر أمنيّة، ما كان له أثر كبير في إفساد الحياة الاجتماعيّة.

دخل جهاز أمن الدولة السودانيّ الحياة الاقتصاديّة والتجاريّة كعنصر طفيليّ في ترويج الاتجار بالعملات الأجنبية والمضاربات في السلع التموينيّة، وحقق العديد من أفراده من خلال الممارسات الفاسدة الثراء غير المشروع. واتّسمت حقبات عمله الأخيرة بانعدام الضوابط والخروج عن السلوك القويم وبعدم التقيّد بالواجب المهنيّ، حتّى بدأ الشكّ يدور حول الانتماء الوطنيّ لبعض عناصر الجهاز الذين ارتبطوا كليًّا وبشكل مكشوف بأجهزة المخابرات الأجنبيّة. وساعد الكثير من الممارسات في ابتعاده عن التعاطف الشعبيّ بالرغم من المحاولات الكثيرة التي كان يحاول من خلالها إثارة المشاعر الوطنيّة، وقد سعى إلى تأليف عمليّات تآمريّة خياليّة زعم أنّه قام بكشفها وإفشال مفعولها في اللحظات الأخيرة... وكانت أجهزة الإعلام تحاول إحداث الضجيج من خلال حملات إعلاميّة كبيرة في صالح الجهاز عندما يدّعي بأنّه أخمد محاولة تآمريّة داخل القوّات المسلّحة يزعم أنّها كانت تستهدف حكم النميري، أو أنّ عناصره اكتشفت مجموعة إرهابيّة تسلّلت من دولة مجاورة للقيام بعمليّات تدمير واغتيالات للقيادة السياسيّة. وكم من مرّة زعم جهاز أمن الدولة السودانيّ بأنّه قضي على مؤامرة لقتل الرئيس ونائبه تمّ كشفها دون أن يكون لهذه المؤامرة أيّ أساس من الواقع... كما كانت توجّه للمعتقلين المشتبه فيهم تهم لا علاقة لهم بها، وكانت تؤخذ لبعضهم صور

على ظهر سفينة يُزعم أنهم تسللوا من خلالها مهرّبين أسلحة لإثارة تمرّد مسلّح، وفي كثير من الحالات كانوا يقومون باعتقالات لا مبرّر لها لأشخاص لا علاقة لهم بالعمل المعارض للنظام. ويبدو أن عناصر الجهاز كانت تطبّق ما تلقته من تدريب في أجهزة المخابرات "الصديقة". وقد حاول رجال الجهاز أن يصنعوا سيناريوهات لتفريغ الشحنات والجرعات التدريبيّة دونما إدراك بأن الواقع السودانيّ وطبائع الناس بعيدة عن الحذر الأمنيّ، بل إنّهم يسخرون ممّن يهتمّون بأمنهم الشخصي.

أثار جهاز أمن الدولة السودانيّ الرعب والهلع في نفوس المواطنين إلى الدّرجة التي أصبح معها على الناس جميعًا أن يكونوا منفّذين لسياسات الجهاز، فتوسّعت المصادر وشملت كافّة الولايات واتُّخذت عمليّة الانتساب لجهاز أمن الدولة للابتزاز وتحقيق السيطرة على الآخرين، خصوصًا وأنّ مجموعات من المفسدين قد التحقت بالجهاز وسبّب أفرادها له الكثير من الانتكاسات والنكبات، ولم يتمكّن القادة الذين كانوا على رأس الجهاز من التخلّص من هؤلاء أو من تحجيمهم.

ولمّا كان جهاز أمن الدولة السودانيّ قد نشأ لحماية النميري، فقد فشل في مهمّته فشلاً ذريعًا... ذلك أنّه في الواقع قد عجّل بالزحف الجماهيري للقضاء على نظام النميري في نيسان ـ أبريل ١٩٨٥، وقد وضعت تلك الانتفاضة النهاية المحتومة لجهاز أمن الدّولة والذي مات موتًا طبيعيًّا من خلال إصدار المجلس العسكريّ الانتقاليّ قرار حلّه وإعفاء العاملين فيه، وتم اعتقال ضبّاط جهاز أمن الدولة في نفس المعتقل الذي كانوا يعتقلون فيه المعارضين السياسيّين لسلطة النميري. كما أُلّفت لجنة لتصفية جهاز أمن الدولة. وتمّ تقديم رئيس الجهاز والنائب الأول لرئيس الجمهورية اللواء "عمر محمد الطيّب" ومعه بعض ضبّاط الجهاز للمحاكمة بتهمة تهريب يهود "الفلاشا" حيث تم الحكم عليه بعد إدانته في القضيّة.

ويشير باحثون في هذا المجال إلى مسألتين في غاية من الأهمية وهما:

أوّلاً: لجأ اليساريون وغيرهم، من الذين صادمهم جهاز أمن الدولة وزجّ بهم في المعتقلات وتسبّب في عرقلة نشاطهم السياسيّ وعذّب بعضًا من المنتمين لتلك الأحزاب، إلى تحريض الجماهير وبشكل واسع في مظاهرات صاخبة تهتف بسقوط جهاز أمن الدّولة باعتباره جهازًا فاشستيًّا، وكان قرار المجلس العسكريّ الانتقالي الذي كُوّن عقب الانتفاضة في نيسان ـ أبريل ١٩٨٥ من مبادرة قيادة القوات المسلحة بأفرعها وأسلحتها المختلفة، متجاوبًا مع هتافات الجماهير، واتّخذ قرارًا بحلّ جهاز أمن الدولة... وبالمقارنة بالأحداث التي مرّت بها ثورة تشرين الأوّل ـ أكتوبر ١٩٦٤، حيث طالب المتظاهرون بطرد قيادات جهاز الأمن العام، الذي كان يمارس عمليّاته العدوانيّة دفاعًا عن حكومة الرئيس وضدّ حركة المعارضة، فقد تمّ تطهير جهاز الأمن العام من الضبّاط موضوع الاتّهامات، وتمّ الإبقاء على الجهاز كما هو، تابعًا لوزارة الداخليّة، فقد كان بالإمكان اتخاذ نفس الموقف حيال جهاز أمن الدولة بالتخلّص من الضبّاط المشتبه في ارتكابهم الجرائم ضدّ الوطن والمواطنين، والإبقاء على جهاز أمن الدولة حتّى لا يكون هناك فراغًا أمنيًّا، لأنّ اعتبار أنّ كل الجهاز فاسدًا أمر غير طبيعيّ.

ثانيًا: إنّ الفصل الجماعيّ لكافة الضبّاط أعضاء جهاز أمن الدولة واعتقالهم أدّى إلى إثارة الحقد والكراهية تجاه الانتفاضة، ما أدّى إلى عدم تعاون المواطنين مع اللجنة المكلّفة بحلّ الجهاز، وامتناعهم عن تقديم المعلومات وإخفاء الحقائق على ما كان يجري من ممارسات داخل الجهاز، إمعانًا في التحدّي لسلطة الانتفاضة. وقد كان من الممكن أن يقتصر الفصل والاعتقال على المشتبه فيهم كمذنبين لحين تقديمهم للعدالة، والانتفاع بالعناصر الوطنية التي كانت ذات مواقف مشهودة لا تبغي من وراء عملها

إلا المصالح الوطنيّة والقوميّة العليا، حيث كـان من الممكن حصر ومعرفـة الأقـارب والمحاسيب الذين فُرضوا على الجهاز، وكلّ من قـام بأعمـال مخلّـة بالأمانـة ومنافيـة للأخلاق.

فقد كـان من المفترض الإبقاء على جهاز أمن الدولـة ومعاقبـة المنحرفين من عناصره، والاستفادة من القدرات والمهارات التي كان يتمتّع بها معظم أعضاء الجهـاز بعد أن تُعاد صياغة مبادئ وأهداف وبرامج الجهاز لتبتعد عن الموقف التقليديّ في التستّر على مفاسد الحكم والحكّام، ومواجهة المعارضين السياسيّين بوسـائل قمعيّـة إرضاءً للمتربّعين على عرش السلطة، إلى مضمون الدفـاع عن الوطن ومواجهة المهدّدات والمخاطر التي تواجهه، وخصوصًا أنّ حلّ جهاز أمن الدولة السوداني قد أوجد فراغًا أمنيًّا كبيرًا.

ويخلص باحثون إلى اعتبار أنّ تجربة جهاز أمن الدولة في الحفاظ على السلطة التي قامت بتأسيسه بغرض الدفاع عنها وحمايتها، قد أثبتت فشلها، كمـا فشل من قبلـه جهاز "السافاك" الإيراني في الحفاظ على حكم الشاه الذي أنشأ السـافاك لنفس الغرض الذي أنشئ من أجله جهاز أمن الدولة السودانيّ. وهذا ما يؤكّد على أنّ هناك خللاً في أجهزة الأمن والاستخبارات التي تحاول المخاطرة بمصـالح البلاد العليا وتتحوّل إلى أدوات عسف وإرهاب للمحكومين لصالح الحكام.

قانون جهاز أمن الدولة السودانيّ لسنة ١٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

رئيس الجمهورية

عملاً بأحكام المادة ١٠٦ من الدستور أصدر الأمر المؤقت الآتي نصه:

الفصل الأول

أحكام تمهيدية

١ ـ يسمى هذا الأمر الموقت قانون جهاز أمن الدولة لسنة ١٩٧٨م ويعمل به من تاريخ التوقيع عليه في ١٢/٨/١٩٧٨م.

٢ ـ يلغى قانون الأجهزة المركزية لأمن الدولة لسنة ١٩٧٤م على أن تظل جميع اللوائح والأوامر الصادرة بموجبه سارية المفعول إلى أن تلغى أو تعدّل وفق أحكام هذا القانون.

تعاريف

إستيعاب العاملين وأيلولة الممتلكات

١ ـ يعتبر أعضاء بالجهاز كلّ الأعضاء العاملين بجهاز الأمن العام وجهاز الأمن القوميّ من تاريخ العمل بهذا القانون كما لو كانوا معيّنين وفق أحكامه.

٢ـ تؤول إلى الجهاز، أي أمن الدولة، بعد عمليّة الدمج كلّ ممتلكات جهاز الأمن العامّ وجهاز الأمن القوميّ وجميع الحقوق والالتزامات التي كانت لكل منهما.

الفصل الثاني

مجلس الأمن القومي

إنشاء المجلس واختصاصاته

١ ـ لتنفيذ أغراض هذا القانون ينشأ بموجب هذا القرار من رئيس الجمهورية مجلس يسمّى الأمن القوميّ يحدّد القرار سلطات وواجبات ذلك المجلس.

٢ ـ يختصّ المجلس برسم سياسات الأمن العامّ والارشاد فيما يتعلق بالأمن وتنسيق أعمال أجهزة أمن الدولة المختلفة وقيادة وضبط الأجهزة.

٣ ـ يجوز للمجلس أن ينشئ لجانًا يحدّد واجباتها وصلاحيّاتها بغرض تنفيذ أحكام هذا القانون.

الفصل الثالث

إنشاء الجهاز

ينشأ لأغراض الأمن جهاز عسكريّ مستقلّ عن باقي التنظيمات العسكرية ويتبع لرئيس الجمهوريّة ويسمّى جهاز أمن الدولة.

تكوين الجهاز

يتكون الجهاز من:

أ ـ رئيس يعيّنه ويحدّد درجته رئيس الجمهوريّة.

ب ـ ضبّاط أمن يعيّنهم ويحدّد عددهم رئيس الجمهوريّة بناءً على توصية من رئيس الجهاز.

ج ـ أعضاء آخرين يعيّنهم ويحدّد عددهم ودرجتهم رئيس الجهاز.

د ـ يجوز لرئيس الجهاز بعد موافقة المجلس ندب ضبّاط أو موظّفين للعمل في الجهاز لفترة يحدّدها ويكون لهم خلال فترة الندب جميع السلطات المخوّلة لعضو الجهاز.

شروط العضوية

يشترط في عضو الجهاز:

أ ـ أن يكون سودانيّ الجنسيّة ومن والدين سودانيّين.

ب ـ ألاّ يكون متزوّجًا من أجنبيّة أو من سودانيّة لا يحمل والدها الجنسيّة السودانيّة على أن يجوز لرئيس الجهاز التوصية بالتجاوز عن هذا الشرط لمن تحمل زوجته ووالدها جنسيّة إحدى الدول العربيّة والأفريقيّة.

ج ـ أن يكون حسن السمعة ولا يكون قد أدين في جريمة مخلّة بالشرف والأمانة.

د ـ ألاّ يكون قد عُزل عن وظيفة عامّة بقرار تأديبيّ.

شروط خدمة الأعضاء

أ ـ تنطبق على الأعضاء شروط خدمة القوات المسلحة لحين وضع اللائحة الخاصّة بالجهاز المشار إليه.

القسَم

يؤدّي رئيس الجهاز قبل مباشرة عمله القسَم أمام رئيس الجمهورية.

إختصاصات الجهاز

يختصّ جهاز أمن الدولة بالآتي:

أ ـ البحث والتحرّي اللاّزمين للكشف عن أيّ نشاط خارجيّ أو داخليّ معاد للدولة.

ب ـ مكافحة أيّ نشاط موجّه ضد الدولة داخل السودان ورصد أيّ نشاط أو أعمال تكون من شأنها المساس بأمن الدولة.

ج ـ اتّخاذ الاجراءات والتدابير القانونيّة المناسبة في تحرّي واستجواب بشأن المسائل المشار إليها.

د ـ يجوز لرئيس الجمهورية أو المجلس تكليف الجهاز بالقيام بأيّ أعمال أخرى لم ينصّ عليها.

سلطات الجهاز

١ ـ يكون للجهاز في سبيل مباشرة اختصاصاته سلطة الرقابة والتحرّي بوسائله الفنيّة المختلفة ولا يجوز لأيّ شخص الاضطلاع على تحريّات الجهاز إلا بإذن من رئيس الجهاز أو من يفوّضه في ذلك.

٢ ـ يكون لأعضاء الجهاز في سبيل مباشرة اختصاصاتهم المنصوص عليها في هذا القانون سلطات رجال البوليس الواردة في قانون الشرطة لسنة ١٩٧٧ وقانون الاجراءات القانونية لسنة ١٩٧٤ وأيّ قانون آخر.

٣ـ بالإضافة إلى السلطات المشار إليها ـ يكون لعضو الجهاز السلطات التالية:

أ ـ أن يستدعي من يرى ضرورة سماع أقوالهم على أن تدوّن الأقوال في محضر يوقّع عليه محرّر المحضر والشخص الذي دوّنت أقواله ويجوز للعضو أن يأمر أيّ رجل بوليس بالقبض على أيّ من يمتنع عند تنفيذ طلب الاستدعاء.

ب ـ أن يطلب من أيّ شخص أو أيّ جهة تقديم أيّ ملفات أو بيانات أو وثائق للاضطلاع عليها أو الاحتفاظ بها أو الحصول على نسخة منها ويجب على الشخص أو تلك الجهة تقديم تلك الملفّات والبيانات أو الوثائق حتّى ولو كانت سريّة.

٤ ـ يعفى أيّ شخص أو أيّ جهة تكون قد قدّم أو قدّمت ملفّات أو بيانات أو وثائق أو مستندات سريّة أو غير سريّة تنفيذًا للطلب المقدم، يعفى من أي مسؤوليّة سواء كانت جنائيّة أو مدنيّة أو إداريّة تترتّب على تقديم الملفّات والبيانات والوثائق والمستندات.

إختصاصات وسلطات رئيس الجهاز

١ ـ يتولّى رئيس الجهاز سلطة الإشراف الفنّي والإداري على أعمال الجهاز وعلى أعضائه ويصدر القرارات اللازمة لتنظيم الجهاز وتنظيم سير العمل به.

٢ ـ يكون رئيس الجهاز مسؤولاً أمام المجلس عن تأمين نشاط الجهاز والمحافظة على ما يحصل عليه من معلومات سريّة ووسائل الحصول عليها ومصادرها، ولا يجوز له الإدلاء بأيّ شيء عنها إلا لمصلحة العمل أو بإذن من المجلس أو من رئيس الجمهوريّة.

٣ـ يقدّم رئيس الجهاز إلى المجلس أو رئيس الجمهوريّة تقريرًا دوريًّا عن إنجازات الجهاز ومتطلّباته على أن يتضمّن التقرير الملاحظات والتوجيهات المتعلّقة بتنفيذ السياسة العامّة التي وضعها المجلس. ويجب على الرئيس في الحالات المستعجلة أو الهامة أن يبلّغ رئيس المجلس أو رئيس الجمهوريّة فورًا بكل المسائل ذات الطبيعة المستعجلة والعامّة.

يتحدّث "الفصل الرابع" عن شروط وضوابط الإبعاد من الخدمة في الجهاز ولمن تعود هذه الصلاحيات؛ ويتحدث "الفصل الخامس" عن الجرائم المخلّة بأمن الدولة والعقوبات المقرّرة على كلّ فعل مخلّ لأيّ عضو من أعضاء جهاز أمن الدولة؛ و"الفصل السادس" يتحدّث عن الجرائم المتعلّقة بعمل الجهاز، مثل إساءة استعمال

السلطة، واستغلال الوظيفة، والإغراء بترك الخدمة؛ "الفصل السابع" يتحدّث عن الجرائم المتعلّقة بالخدمة النظاميّة، والهروب من الخدمة، والسلوك المخلّ بالضبط والربط، والنظام والسلوك المشين؛ "الفصل الثامن" يتحدث عن جرائم الأموال مثل تحقيق منفعة غير مشروعة، وقبول رشوة...؛ "الفصل التاسع" يتحدّث عن إنشاء محاكم عسكريّة لهذه الجرائم وفق قانون القوّات المسلّحة؛ ويتحدّث بعض الفصول عن النظام المالي للجهاز والمعاشات... وبعض الأحكام العامّة وأخيرًا القسَم[1].

تورُّط النميري وجهاز استخباراته في نقل "الفلاشا" إلى إسرائيل

عندما توطّدت العلاقات بين جهاز أمن الدولة السودانيّ والمخابرات الأميركيّة والموساد الإسرائيليّ، تمّ وضع الترتيبات اللازمة لنقل يهود "الفلاشا" الإثيوبيّين إلى إسرائيل وفقًا لاتّفاق تمّ مع القيادة السياسيّة، حيث وجّه الرئيس "جعفر النميري" نائبه الذي يشغل في الوقت نفسه منصب رئيس جهاز أمن الدولة اللواء "عمر محمد الطيّب" المعروف باسم "أبو الطيّب" باتخاذ الإجراءات اللاّزمة لتنفيذ الخطّة، ومن ثمّ تمّ تكليف بعض من الضبّاط المنتمين لجهاز أمن الدولة بتنفيذ العمليّة بأوامر مباشرة منه، دون أن يتّخذ الأمر الإجراءات المتّبعة في مثل هذه الحالات، حتّى لا يتسرّب الموضوع وتُكشف المؤامرة.

وقد أشارت صحيفة "الاوبزبرفر" اللندنيّة إلى أنّ الرئيس النميري تلقّى وعدد من أعضاء حكومته حوالي ٥٦ مليون دولار مقابل عمليّة تهريب يهود الفلاشا، بينما تلقى

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٩٢ ـ ١٠٣.

الرئيس الإثيوبي "منغستو هيلا مريام" معدّات عسكريّة في مقابل السماح للفلاشا بمغادرة إثيوبيا. وإلى أنّ منظّمات صهيونيّة عالميّة قامت بجمع هذا المبلغ، وقد دفعت أجزاء منه في بداية العمليّة لبعض معاوني النميري من ذوي النفوذ، ومن بينهم نائبه أبو الطيّب. ويُذكر أن "إرييل شارون" قد حضر للخرطوم وناقش ترتيبات نقل الفلاشا مع النميري وأبو الطيّب، وقد استطاع بعض الجهات تسريب صورة تذكاريّة تجمع بين شارون والنميري تمّ عرضها على نطاق واسع في ما بعد. كما جاء للسودان العميل المتمرّس في جهاز الموساد في أفريقيا "ديفيد كيمحي" لمتابعة الموضوع. وتردّدت زيارة اليهودي السوداني "سوش ماسون" أوّل سفير إسرائيليّ لدى مصر. وأصبحت السفارة الأميركيّة في الخرطوم غرفة عمليات لتنفيذ عمليّة تهريب يهود الفلاشا إلى إسرائيل وتصريف الأمور الماليّة.

بدأت المجموعة المكلّفة بتنفيذ تعليمات رئيس جهاز أمن الدولة في عمل التغطيات الإعلاميّة المضلّلة، والإيحاء لبعض المنظّمات لإصدار بيان لصرف الأنظار وعدم التحدّث عن تدفّق اللاجئين اليهود من إثيوبيا إلى السودان، وعرض بعض النداءات الوهميّة لبعض منظّمات الإغاثة الدوليّة، حتّى يبدو الأمر في إطار الأعمال الانسانيّة، والمنح من المنظّمات التطوعيّة العالميّة.

بدأ تحضير مراكز استقبال الفلاشا في مطار الخرطوم، وقيام جهاز أمن الدولة بكلّ الخدمات والاجراءات لاستقبال الطائرات البلجيكيّة التابعة لشركة "ترانس يوروب" التي يملكها المليونير البلجيكيّ اليهوديّ المتديّن "جورج ميتلمان". وقد تمّت هذه الرحلات بدون تطبيق اللوائح المتّبعة أو الخضوع للقوانين الدوليّة والمحليّة للطيران المدنيّ، فلم يكن هنالك قوائم ركّاب ولا إذن خروج ولا تذاكر سفر ولا إجراءات جمركيّة أو إجراءات صحيّة، كما انعدمت قوائم الأمتعة وأوزانها. وكانت الخدمات

الأرضيّة تتمّ عن طريق رجال جهاز أمن الدولة. وأصبح مطار الخرطوم يسير وفق تعليمات أمنيّة متخطّيًا اللوائح والقوانين الدوليّة والمحليّة التي تحكم منظومة الطيران، حيث تمّ إطلاق شيفرات أمنيّة على الرحلات والعمليّات المتلاحقة. وكانت هذه العمليّة تتّخذ الشكل العلنيّ بضمان المخابرات الأميركيّة وجهاز الموساد الإسرائيليّ، والتغطية الخدماتيّة لجهاز أمن الدولة السودانيّ، بعد العمليّات السابقة التي كانت تتمّ بسريّة تامّة منذ عام ١٩٨٠ عبر المنافذ بين الحدود الإثيوبيّة ـ السودانيّة والموانئ السودانيّة على البحر الأحمر، وما تيسّر ترحيله بواسطة المنظّمات الصهيونيّة العاملة في مجالات العمل التطوّعي والإنسانيّ والإغاثة وعملاء الموساد بأفريقيا.

وبسقوط نظام النميري في ٦ نيسان ـــ أبريل ١٩٨٥، شُكّلت محكمة أمن الدولة الخاصّة لمحاكمة المتّهمين في قضيّة ترحيل يهود الفلاشا، وتقديم المتّهم الأول في القضية اللواء عمر محمد الطيّب النائب الأول للرئيس المخلوع ورئيس جهاز أمن الدولة الذي تمّ حلّه.

تلا القاضي على المتّهم الأوّل التّهم الموجّهة إليه والبالغة تسع تهم، بمخالفة ١٨ مادة من قوانين: العقوبات، الهجرة، الطيران، الثراء الحرام، وقانون مقاطعة إسرائيل، حيث تتعلق التهم باستغلاله لمنصبه الرسميّ في الإعداد والتسهيل والتدخّل عمدًا في تحريض بعض ضبّاط وجنود جهاز أمن الدولة السابق لوضع أنفسهم في خدمة الاستخبارات الأميركيّة والحكومة الأميركيّة ودولة الكيان الصهيونيّ ومخابراتها الموساد، وذلك بتسهيل مهمّة الشبكات العاملة في ترحيل يهود الفلاشا إلى دولة الكيان الصهيونيّ عبر الخرطوم ـ جوبا ـ نيروبي. وبمساعدة شبكة من الأجانب تمّ استغلال قرية "عروس" السياحيّة لترحيل مجموعات أخرى من الفلاشا بالطائرات، إضافة إلى مساعدته في ترحيل الفلاشا بطائرة شركة "ترانس يوروب" عبر ٢٨ رحلة سريّة من

مطار الخرطوم إلى بلجيكا ثم إسرائيل. هذا بشأن المادة ٩٧هـ والمادة ٧٦ من قانون مكافحة الثراء الحرام، والتي توضح أن المتّهم ساعد وحرص وتدخل عمدًا لترحيل يهود الفلاشا مقابل حصوله لنفسه ولمن معه على أموال وعربات ومواد غذائية ومنافع أخرى من وكالة المخابرات المركزيّة الأميركيّة بقصد ارتكاب عمل يضرّ بمصلحة البلاد العامّة. كما خالف المادة ٩٧ج عقوبات و٩٦ب عقوبات والمادة ٨٤، ٩٦ من نفس القانون والمادة ٩٦د. كما قام المتهم بالاتصال المباشر وغير المباشر والتآمر مع الحكومة الأميركيّة وعبرها مع الدولة الاسرائيليّة، وسعى لديها وساعد وتخابر معها للقيام بترحيل يهود الفلاشا لمعاونة دولة الكيان الصهيوني في عمليّاتها الحربيّة ضدّ الوطن العربيّ، بما فيه السودان، ممّا يُعتبر عملاً عدائيًّا ضدّ البلاد.

أمّا التهمة السادسة فهي مخالفة للمادة ٢ مع ٧ من قانون مقاطعة إسرائيل.

كذلك خالف المتّهم المادة ٤٥٧ عقوبات، وهي أنّه قام بالإدارة والمشاركة في إدارة شبكة منظّمة ومخطّطة لارتكاب الجرائم موضوع الاتّهام، ممّا يشكّل إفساد للحياة العامّة في السودان، وممّا يُعدّ جريمة، وذلك مقرونًا مع المادّة ٣ من أصول الأحكام.

كذلك خالف المتّهم قانون الطيران ومكّن طائرات حربيّة أميركيّة من دخول السودان، وحجب الجهات المختصة عن مراقبتها.

والتهمة التاسعة مخالفة المتّهم لقانون جوازات السفر حيث مكّن يهود الفلاشا من السفر خارج السودان عن طريق مطار "العزازا" وهو غير مخصّص لخروج الأجانب.

وقد قدّم النائب العامّ خطبة الاتهام بقوله: إنّ المتّهمين انتهكوا كرامة الوطن مقابل منافع ماديّة بلغ نصيب المتّهم عمر محمّد الطيّب منها مليونَي دولار أميركيًّا وضعت في حسابه بلندن بواسطة المخابرات الأميركيّة، وإنّهم وضعوا أنفسهم تحت تصرّف

المخابرات المركزيّة الأميركيّة، بل إنّ المتهم عمر محمد الطيّب أشرف بنفسه على تنفيذ عمليّتي "موسي وسبأ"، كما أنّه سمح للسفارة الأميركيّة بالخرطوم أن تتحوّل إلى غرفة عمليّات لإدارة وتمويل هذه العمليّات بعيدًا عن أعين الجهات المختصّة، كما قام بزيارة لواشنطن والتقى برئيس المخابرات المركزيّة الأميركيّة وتلقّى منه التعليمات المباشرة لتمكين سلاح الطيران الأميركيّ من إنجاز عمليّة عسكريّة بغرض نقل المزيد من يهود الفلاشا من مطار "العزازا" بالقرب من مدينة "القضارف" إلى إسرائيل.

وقال النائب العام إنّ المتّهمين على تفاوت أدوارهم قد خطّطوا وشاركوا في نقل ما يقرب من ١٠ آلاف فلاشي من الأراضي السودانيّة إلى تل أبيب أو عبر مطارات غربيّة أخرى للتمويه. وأضاف أن المتّهم الهارب في ذلك الوقت، جعفر النميري، وعمر محمّد الطيّب، استغلاّ منصبَيهما السابقَين لتسهيل عمليّات نقل ما يقارب من العشرين ألف فلاشي طوال السنوات السابقة على عمليّتي "موسى وسبأ"، وبذلك يكون العدوّ الصهيونيّ قد كسب خلال أشهر قلائل نصف عدد اليهود الذين فقدهم خلال عشر سنوات كاملة. وأكّد النائب العامّ أنّ السودان شعبًا وحكومة ظلّ على استعداد للتضحية بكلّ غال ونفيس من أجل قضيّة الوطن العربيّ المركزيّة حتّى وصل إلى كرسي الحكم من جعلوا من العمالة في دوائر الاستعمار العالميّ دينًا لهم. وأنّ المتّهمين زوّدوا العدوّ بأهمّ احتياجاته الاستراتيجيّة من العامل البشريّ، وأضافوا رصيدًا جديدًا من المجنّدين لمؤسّسات العدوّ العسكريّة واليد العاملة الرخيصة في ماكينة اقتصاده، ومعمّرين للأراضي العربيّة المحتلّة.

وكانت محاكمة المتّهمين بتهريب يهود الفلاشا من السودان إلى إسرائيل لاسترداد سيادة وكرامة وعزّة السودان، والتي تمّ تشويهها بتنفيذ مخطّطات العدوّ الصهيونيّ، وموقفًا ثابتًا وجريئًا للحكومة العسكريّة الانتقاليّة في سنة ١٩٨٥ تضامنًا مع قضايا

الأمّة العربيّة وحشد الطاقات في مواجهة العدوّ الصهيونيّ وكشف عملائه في السودان، والتأكيد على سريان قانون المقاطعة لإسرائيل، ومعاقبة المفسدين والمنحرفين عن الثوابت الوطنيّة والقوميّة. وقد تمّ إصدار أحكام متفاوتة بعقوبة السجن ضدّ المتّهمين.

لقد كانت مؤامرة نقل يهود الفلاشا من إثيوبيا عبر السودان إلى إسرائيل تدلّ على تدخّل أصابع جهاز الموساد الاسرائيليّ في الشأن السودانيّ بدعم من المخابرات المركزيّة الأميركيّة التي احتوت النظام بأكمله عن طريق القنوات المتعدّدة مع جهاز أمن الدولة، الذي مارست قيادته عمليّة التفريط في أمن الدولة، وكان مصيرها الإدانة والعقوبة بالسجن على المخالفات التي ارتكبتها في حقّ الوطن والمواطنين والإخلال بقواعد الحفاظ على الأمن الوطنيّ والقوميّ.

وبكشف عمليّة تهريب يهود الفلاشا، تمّ كشف جانب من جوانب التغلغل الصهيونيّ في السودان، والذي يُعتبر امتدادًا لتدخّلات سابقة منذ عام ١٩٦١، حيث دعم الموساد الإسرائيليّ حركة التمرّد بالجنوب بالتدريب والسلاح والمرتزقة وما زال[١].

١ ـ مصدر جميع المعلومات الواردة في هذه الحادثة: صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص١٠٤ ـ ١٠٨.

حرب المخابرات العراقيّة الإسرائيليّة[1]

يمكن للباحث المدقق أن يستخلص بسهولة، اختلاف منهج الجاسوسية الإسرائيلية في العراق عنه في سائر الدول العربية الأخرى. ذلك أن مخابرات إسرائيل ابتعدت تمامًا عن اللجوء إلى جواسيس "غرباء" عن داخل القطر العراقي.. بل استثمرت، وبذكاء شديد، وجود الآلاف من اليهود العراقين، في "تخريج" كوادر قادرة على تنفيذ أهدافها وسياساتها، مستغلة في ذلك تغلغلهم داخل نسيج المجتمع العراقي كله، من البصرة جنوبًا، إلى الموصل شمالاً.

فمنذ قيام الدولة اليهودية، حرص حكام إسرائيل على كسب تعاطف يهود العراق، وبناء جسور من الود والتواصل بينهم لتحقيق هدفين أساسيين:

أولهما: تشجيعهم على الهجرة إلى إسرائيل، لسد الفراغ الناشئ عن فرارالسكان العرب بسبب المذابح الوحشية، وخلو قرى عربية بكاملها من سكانها.

ثانيهما: التجسس على العراق، جيشًا، وسياسة، واقتصادًا.

ولكي تضمن إسرائيل ولاء يهود العراق الكامل لها، والسعي إلى الهجرة إليها، عمدت إلى استخدام أساليب شيطانية ماكرة لإرهابهم، وتفجير بعض معادبدهم، وقتل العديد منهم لإلقاء التبعية على السلطات العراقية، فنجحت بذلك في ما سعت إليه.

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص٢١٢ ـ ٣٨٨.

لقد كان اليهود في العرق لأحقاب خلت، ينعمون بالأمن وبالأمان، ويمارسون حياتهم وأعمالهم وطقوسهم في حرية بلا منغصات أو أحقاد، إلا أن خطط حكام إسرائيل، صورت لهم الحياة في العراق على أنها جحيم ما بعده جحيم.. ورسمت في أذهانهم صورة مثالية للحياة في "الوطن" الجديد.

ولأننا لسنا بصدد دراسة تاريخ وأحوال اليهود في العراق، فإنه يلح علينا السؤال:

ـ لماذا كانت تتجسس إسرائيل على العراق الذي لا يشترك معها في الحدود؟ ولا يُعد من دول الواجهة؟

وللإجابة على هذا السؤال، لا بدّ من القول: إن العراق يمثل بالنسبة لإسرائيل عدوًّا مبينًا، ومطمعًا ثمينًا، فشل "تيودور هرتزل" في تحقيقه، منذ كتب في ٤ تمّوز ـ يوليو ١٩٠٣ إلى عزت باشا العابد، رئيس الوزارء العثماني، يذكره بمقترحات سبق أن بعث بها إليه في آذار ـ مارس ١٩٠٢، حول قروض يهودية للإمبراطورية العثمانية، مقابل تحقيق الوعد الذي قطعه على نفسه للمنظمة الصهيونية، بالسماح بإقامة مستعمرات يهودية في العراق، وفي لواء عكا، عن طريق فتح الباب أمام الهجرة اليهودية.

فمنذ تحركت الصهيونية العالمية فعليًا، بعد مؤتمر بال بسويسرا عام ١٨٩٧، رسمت مخططات شرسة للسيطرة على الاقتصاد العراقي، وإحكام القبضة اليهودية عليه، بواسطة أعداد اليهود الضخمة في العراق، التي اتجهت الغالبية العظمى منها، كما في بقية الدول العربية والعالم، إلى العمل بالتجارة والاستثمار، والاستحواذ على أنشطة بعينها، تحكم من خلالها السيطرة على عصب الحياة الاقتصادية في الدولة، بامتلاك ناصية أمور التجارة والصرافة. ونظرًا للمناخ الآمن الذي كانوا يعيشون فيه، كان أن تغلغلوا ببطء داخل البنية الأساسية للحياة في العراق، وصاروا بالفعل جزءًا

حيويًا مهماً في عجلة الاقتصاد. وبرغم ابتعادهم عن الزراعة، إلا أنهم إمعانًا في الامتزاج والتداخل، اشتروا مساحات شاسعة من الأراضي، وشغلوا قرى وإقطاعيات بكاملها، حتى امتدت أراضيهم للمناطق الشمالية في نينوى، فتمركزوا بكثافة كبيرة في "دهوك" شمالي الموصل، وانتشر الآلاف منهم في بغداد... يمتهنون الحرف المختلفة، ويتبوأون المراكز الاقتصادية الهامة بصبر وسعي عجيب. بعض هؤلاء كانوا هم الركيزة الأساسية للجاسوسية الإسرائيلية في العراق.

من ناحية أخرى، بذلت إسرائيل جهودًا جبارة منذ قيامها، لكسر الطوق العربي المحيط بها، عن طريق الدخول في علاقات مصالح متشابكة مع إيران وتركيا، والدول الأفريقية الأخرى، لتطويق الدول العربية، وحصارها من الشمال والجنوب والشرق.

ففي الشمال والشرق، وهو ما يهمنا الآن، أسست المخابرات الإسرائيلية أواخر عام ١٩٥٨، منطقة ثلاثية تسمى "ترايدانت TRAIDANT" بالاتفاق مع جهاز الأمن الوطني التركي "المخابرات"، والمنظمة الوطنية للاستخبارات "السافاك" في إيران. وبتوقيع هذه الاتفاقية، توفرت للموساد علاقات حميمة إضافية بهذين الجهازين، حيث نصت بنود الاتفاق على تنظيم تبادل مستمر للمعلومات، بالإضافة إلى اجتماعات شبه دورية على مستوى رؤوساء الأجهزة الثلاثة. وأيضًا، نص الاتفاق الأصلي مع تركيا، على إضفاء الشرعية على الارتباط الاستخباراتي بين البلدين، على أن تقدم الموساد معلومات حول نشاط عملاء السوفيات في تركيا، وكذا العملاء الذين يعملون ضد الأتراك في الشرق الأوسط، مقابل إمداد الإسرائيليين بمعلومات حول ما يمكن أن يؤثر على أمن الدولة اليهودية من النوايا السياسية والعسكرية للدول العربية، وحول نشاط وشخصيات عملاء "الجمهورية العربية المتحدة" (هكذا في النص) الذين يعملون ضد إسرائيل.

إن الغرض الأساسي للعلاقة الاستخبارية بين إسرائيل وتركيا، يكمن في تطويق العراق وسوريا من الشمال، وأيضًا، تطويق العراق من جهة الشرق، بإقامة علاقة وطيدة بالنظام الذي كان قائمًا في إيران.

هكذا عملت الدولة اليهودية على تنمية سياساتها مع الإيرانيين لمعاداة العرب، ودخلت في "عمليات" مشتركة مع السافاك الدموي منذ أواخر الخمسينات، ودعمت أكراد العراق لزعزعة استقرار الحكم في بغداد.

ولكي ترتكز الموساد على أرض صلبة في إيران، قدمت للسافاك معلومات وافية عن اتجاهات السياسة في العراق، والنشاط الشيوعي في البلاد العربية المؤثرة على إيران.

لقد تصاعدت علاقة التنسيق الاستخباري بين الجهازين، لتصل إلى قمتها في منتصف الستينات، خاصة بعدما ازداد التوغل السوفياتي في المنطقة العربية، مما اضطر شاه إيران لفتح الأبواب السرية المغلقة لرجال الموساد، وإسباغ صفة الشرعية على عملياتهم الاستخباراتية ضد العراق، إذ جعل من المناطق المتاخمة للحدود العراقية نقاط انطلاق، ومراكز لتجنيد وتدريب الجواسيس العراقيين على اختلاف الملل والاتجاهات، بل وكانت توجد بهذه المناطق محطات استقبال لاسلكية للمعلومات المتدفقة من بغداد.

لكن ذلك مكّن ضباط المخابرات الإسرائيليين من أن ينعموا بالأمن والانتشار والتحرك، بمعاونة ضباط من السافاك، فاستطاعوا تكوين شبكات جاسوسية خطيرة ومتشعبة، تمد الموساد بما يشبه خريطة سير العمل اليومي، وبسجل للحياة المختلفة في العراق، كما تقوم بتنفيذ المهام والأوامر التي تكلف بها، لرسم خطط السياسة الإسرائيلية واستراتيجيتها لكل مرحلة.

إن أهم ما كانت تسعى إسرائيل إليه هو العمل على هجرة يهود العراق. لذلك، اعتمدت وبشكل أساسي على أنّ جلب اليهود يرتبط ارتباطًا قويًّا بالرغبة العارمة في اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه، وتشريده، إما في الداخل كما حدث لمسيحيي قريتي "أقرت" و "كفر برعم"، وإما إلى خارج الحدود كما هو الحال بالنسبة للفلسطينيين النازحين إلى الدول العربية المجاورة، هربًا من المذابح الجماعية الإرهابية، التي اتخذها اليهود دستورًا لإقامة دولتهم.

لقد أرادوا "صهينة" فلسطين ونزع طابعها العربي عنها، وذلك بزرع المستوطنين الآتين من كل بقاع الأرض، ولا صلة بينهم إلا الدين ولا رابطة إلا العنصرية، مكان سكان البلد الأصليين.

لهذا السبب، لجأوا إلى الإرهاب الذي لم يقتصر على الشعب الفلسطيني وحده، بل تعداه ليشمل كل العرب، والبريطانيين، والأمم المتحدة، حتى اليهود أنفسهم. ولأن العشرات من القرى العربية خلت من سكانها، فكان المطلوب، والهدف، هو إعمار هذه القرى المهجورة باليهود الجدد.

لقد وقع على الاستخبارات الإسرائيلية عبء هذا الأمر.. ومن أجل ذلك، تأسست في العراق عام ١٩٤٢ منظمة سرية عرفت باسم: "حركة الرواد البابليين"، مهمتها تعليم الشباب اليهود كيفية استعمال الأسلحة وصنع المتفجرات، فتكون بذلك منظمة مستقلة لها أسلحتها ومجندوها، ومستعدة للعمل في أيّ لحظة طبقًا لبرنامج محدد مدروس. إلا أن ظهور معارضة شديدة بين يهود البلاد العربية ضد الحركة الصهيونية، أدى لانزعاج قادة الفكر الصهيوني وأداة سياساته.

وخوفًا من انتشار موجة المعارضة، كان اللجوء للإرهاب هو أقصر الطرق لنجاح مهمة تشكيل شبكة جاسوسية، تأخذ على عاتقها مسؤولية تهجير اليهود.

فماذا فعل العميل الإسرائيلي؟

إنها قصة عجيبة من قصص المخابرات والجاسوسية في العراق...

ميدان "العلاوى" في بغداد، كان يعتبر من الميادين الكبيرة.. المزدحمة.. الذي تقع بأحد جوانبه محطة الأتوبيس الدولي عمان ـ بغداد، حيث تصطف عدة مقاه فسيحة، يملك إحداها يهودي عراقي، جذب إليها الكثيرين من اليهود الذين اعتادوا التلاقي بها. فكانوا يشكلون أغلب روادها، ولذلك سميت مقهى "اليهود".

وفي أحد أيام آذار ـ مارس ١٩٥٠، وفد إلى المقهى "زبون" غامض، كان يجلس الساعات وهو يشرب الشاي ويقرأ الصحف، واضعًا حقيبته الجلدية السمراء أسفل المائدة، متعمدًا حجب ملامحه.

وذات مرة، ترك حقيبته وصحيفته وخرج. وبعد دقائق، دوّى انفجار شديد دمر المقهى عن آخره، أسفر عن مقتل سبعة عشر يهوديًا وأصابة ضعفهم أو أكثر.

الحادث المجهول ألقى الرعب في قلوب اليهود، خاصة وأنّ الشرطة عجزت عن القبض على الفاعل، أو الاستدلال على شخصيته، إلا أنه لم تكد تمر عدة أيام، حتى انفجرت قنبلة أخرى في المعبد اليهودي المعروف باسم "ماسودا شيمتوف".. أدت إلى مقتل طفل يهودي دون العاشرة، كان يلهو بالردهة الداخلية التي انفجرت بها القنبلة.

أسرع الموجودون داخل المعبد بالفرار يحفهم الرعب، وأصيب العديد منهم أثناء الهرب، وللمرة الثانية، وقفت الشرطة عاجزة عن فك اللغز المحير.

وفي ذات الوقت الذي انطلقت فيه أبواق الدعاية الصهيونية، تصور الحادث على أنه مذبحة مدبرة من العراقيين ضد اليهود، توالت الانفجارات لترويع الآمنين، وكان

لفشل رجال الأمن في إيقافها أو القبض على الجناة، عامل مساعد لتأكيد الإشاعات التي ملأت أرجاء العراق؛ وتناقلها اليهود في دهشة وهلع.

بعد عام من الحادث الأول، كان "باسم الصايغ" يمشي بأحد شوارع بغداد عند الظهيرة.. يحمل أطنانًا من المعاناة والهموم، فهو شاب فلسطيني أجبر على الفرار من فلسطين، هربًا من مذابح العصابات الإرهابية التي نكلت بأفراد أسرته.

وبينما هو يمشي فوجئ بما لم يتوقعه أبدًا، إذ شاهد ضابط مخابرات إسرائيلي ينتظر أمام واجهة أحد المحلات... تمالك الشاب الفلسطيني نفسه وظل يراقبه عن بعد، وبحذر شديد اقتفى خطواته إلى أن رآه يدلف إلى مقهى، ويجلس بركن قصيّ.

كان باسم يثق تمامًا في ذاكرته، فهذا الضابط كان أحد أفراد فرقة "الهاغاناه" الإرهابية التي قتلت عمه وابن عمه أمام عينيه، فصورته المتوحشة لم تغب أبدًا عن مخيلته، وللحظة.. فكر باقتحام المقهى وقتله ثأرًا، لكن حسه الوطني منعه، فالإسرائيلي ما جاء إلى بغداد حتمًا إلا لمهمة سرية.

ومن أقرب جهاز هاتف، اتصل "باسم" بالشرطة التي جاءت على الفور وألقت القبض على الضابط الإسرائيلي.

أخضع الضابط الإسرائيلي لتحقيقات أمنية مطولة، لم تسفر عن شيء في البداية، برغم مواجهته بهويته السورية المزيفة، حيث لم ينهر أو يعترف، فأعيد استجوابه بأسلوب "التعامل" مع المجرمين، إذ جرد من ثيابه، وأودع حجرة ضيقة جدًا، سلطت عليه فيها لمبات كهربائية شديدة الوهج، كفيلة بأن تسقط مقاومته.. لكنه ظل يقاوم. فلقد دربوه في أكاديمية الجواسيس في الموساد على تحمل شتى أنواع التعذيب البدني والنفسي، بما فيه الجوع والعطش،

والحرمان من النوم لفترات طويلة، فكان برغم قسوة "التعامل" معه، يبدو في كامل صلابته وإرادته.

لكن ضابطًا عراقيًا خبيرًا، كان قد جاء لتوه من موسكو وقد تدرب جيدًا على كيفية استجواب الخونة، تمسك بالكماشة ونزع ظُفر إصبعه الوسطي، فاندهش أمام ذلك المخلوق الذي لا يحس بالألم. وتساءل الضابط العراقي في نفسه: ألهذا الحد دربوه في إسرائيل؟ أظافر يده اليسرى بكاملها انتزعت، ولا يزال مصرًا على أنه سوري من "السويداء" في الجنوب. وعندما غمس الضابط العراقي يده في الماء المملح، لم يتحمل الإسرائيلي صاعقة الألم التي نهشت بدنه، فصرخ وهو يلتوي، ويصيح في ذعر بأنه ضابط مخابرات إسرائيلي، جاء إلى العراق بأوراق مزورة للاتصال بأحد العملاء اليهود.

وبالقبض على العميل العراقي "يعقوب الكالب" بمنزله القريب من ساحة الوثبة بحي الرصافة، لم يستغرق التحقيق معه وقتًا طويلاً، إذ انهار حين مواجهته بالضابط الإسرائيلي، واعترف في الحال على أعوانه الأربعة في شبكة الجاسوسية، التي قامت بعمليات التفجير المروعة في بغداد، وأدلى "الكالب" بتفاصيل مذهلة عن نوايا الموساد، والمخططات المرسومة لترويع اليهود لدفعهم إلى الهجرة. كما أرشد عن مخابئ الأسلحة والذخيرة والمفرقعات بداخل المعابد اليهودية نفسها، وببعض المخازن على أطراف بغداد.

وأثناء محاكمة الجواسيس الستة بتهمة التجسس لصالح إسرائيل، تبارت الصحف العراقية ووكالات الأنباء العالمية في نشر أخبار المحاكمة أولاً بأول، إلا أن إسرائيل خرجت كعادتها تنفي علاقتها بتفجيرات بغداد، أو بشبكة الجاسوسية، بل وادّعت بأن "الضابط" الإسرائيلي لا صلة له بالمخابرات، فهو ينتمي لمنظمة متطرفة محظور

نشاطها، واستمرت أبواق الدعاية الصهيونية تؤكد بأن السلطات العراقية تزج باسم إسرائيل في مشاكلها الداخلية، دون الاستناد إلى حقائق أو أدلة. وأصرت إسرائيل، لتضمن عطف اليهود، على موقفها حتى بعدما أدين الستة وحكم عليهم جميعًا بالإعدام.

هكذا.. سقطت أولى خلايا المنظمة السرية الصهيونية في العراق، التي تحركها الموساد، وتؤيدها سياسة إسرائيل. واستفادت المخابرات الإسرائيلية كثيرًا من أخطاء شبكة "الكالب" التي أدت إلى سقوطها، وأعد خبراؤها تقارير حوت ملفات عديدة عن كيفية التعامل مع العراقيين، وتلافي سقوط شبكات مستقبلية في قبضتهم.

لقد كان هناك صراع مرير، شرس. صراع عقول ونظريات وسياسيات، أو لنقل إنه صراع "أدمغة" يحمل الشر ونقيضه، يبدأ في تل أبيب، وينتهي في بغداد.

فهل وقفت الأدمغة في إسرائيل موقف المتفرج السلبي؟

لا، فهي أعادت تنظيم خططها، وهاجمت من جديد.

وفي بغداد.. كانت "الأدمغة" أيضًا تتوقع كل شيء.. وتعمل.

لذا، اشتد الصراع، وحمى وطيسه بين الجانبين.

زكي حبيب: الانتصار الهزيل

أفقدت لطمة إعدام الضابط الإسرائيلي والعملاء الخمسة في العراق أسرائيل توازنها، إذ كان لا مفر من القيام بعملية ناجحة في بغداد تحفظ ماء وجهها، وتعيد الثقة لعملائها هناك، الذين تملكهم الرعب خوفًا من الإعدام كزملائهم السابقين. وكان انتصار الموساد في عملية واحدة، كفيل بأن يعيد ثقة هؤلاء المهتزة، في حتمية التعامل معهم. وما هي سوى شهور وجيزة، إلا ونصبت المخابرات الإسرائيليّة شباكها حول "زكي حبيب" التاجر اليهودي الشاذ.

كان حبيب شابًا يافعًا ثريًا، تعدى السابعة والثلاثين من عمره يعمل تاجرًا للملبوسات، اشتهر بميوله الشاذة مع الأطفال، وكثرة إنفاقه على هوايته بإغداق الهدايا على ضحاياه.

وحدث أن تمكن صبي يهودي من سرقة مبلغ كبير من خزانته انتقامًا لاغتصابه، فجن جنونه، وألهاه البحث عن الصبي عن تجارته، فتعرض لخسائر أخرى أغرقته في الديون وأوشك على الإفلاس. وساقت إليه الصدف صائدًا ماهرًا، يبحث عن ضعاف النفوس للإيقاع بهم في فخ الجاسوسية والخيانة.

ولأنه ضعيف بطبعه أمام نزواته، وخائن لا يعرف الأمان طريقًا إليه، كان من السهل اصطياده. فانخرط في الجاسوسية لصالح الموساد دون جهد يذكر، بعدما حصل على المال اللازم لتسديد ديونه، مستغلاً متجره بشارع الرشيد ـ أكبر شوارع بغداد ـ

في إدارة عمله التجسسي، مستعيناً بعدد لا بأس به من العملاء اليهود الذين يسكبون المعلومات بين يديه كل يوم.

لقد كان مكلّفًا بجمع أكبر قدر من المعلومات العسكرية عن الجيش العراقي، وإمداداته، وتشكيلاته، وقواعده، ومعلومات عن الضباط الذين كانت تربطهم به بعض العلاقات. وانصب محور اهتمامه على القطاع الشمالي والغربي من العراق، حيث كانت قواعد الصواريخ والرادارات والدفاع الجوي.

وبعدما قطع شوطًا في عمله، جاءته أوامر قاطعة بالكف عن البحث في الأمور العسكرية، وتوجيه نشاطه لدفع حركة الهجرة اليهودية لإسرائيل.

ابتهج حبيب لذلك كثيرًا، ففي النشاط الجديد تمكن غاية لذته.. كيف..؟

استغل حبيب رغبة أعداد كبيرة من فقراء اليهود في الهجرة، وأقام محطات "تجميع" سرّية لهم بأماكن مختلفة خارج بغداد. وغذّى ضالته بين أطفال إحدى الأسر، فانتهز الفرصة ومارس هوايته الشاذة تحت التهديد بإيقاف ترتيبات الهجرة، فكان يضطر الأباء إلى غض الطرف عن أفعاله، في احتجاج صامت جريًا وراء الحلم الأكبر، حلم الوطن القومي والخير الموعود.

هكذا ظل العميل الإسرائيلي طوال عام ١٩٥١ يتصيد الفقراء ويأويهم، في انتظار الوقت المناسب، لتسريبهم عبر شط العرب إلى إيران فإسرائيل، منتهزًا الفرصة بين آونة وأخرى للانفراد بالصغار، إلى أن حدث ووقع في خطأ داهم، عندما اغتصب صبيًا يهوديًا عنوة اسمه "عقيد"، يتيم الأبوين، تملؤه الرغبة في الهجرة للحاق بخالته في حيفا. وما أن تخلص منه الصبي ذو الأربعة عشر عامًا، حتى أسرع من فوره إلى الشرطة، واعترف بما حدث له مع حبيب، ونشاطه السري في تهريب اليهود.

استشعر العميل الإسرائيلي الخطر، واستطاع الهرب في آخر لحظة والاختباء لدى أحد أعوانه بمنطقة نائية، وعلم فرع الموساد في "عبادان" بأمر الجاسوس الهلوع، فأُبلغ أن يظل بمخبئه إلى أن يجدوا له وسيلة آمنة لإخراجه من العراق.. حتى لا تثار فضيحة أخرى تهدد خطة تهجير اليهود.

ولأن المخابرات البريطانية كانت قد دأبت على خدمة الصهيونية، فقد تطوعت بالمساعدة، وتحملت هي وحدها مسؤولية العملية كلها.

أمضى رئيس فرع المخابرات البريطانية في بغداد وقتًا طويلاً مع ضباطه للتشاور والبحث، وأسفر الأمر في النهاية عن وضع خطة دقيقة محكمة، يقوم فيها أعوان زكي حبيب بدور رئيسي لإنجاحها.

في ذلك الوقت كانت فرق كاملة من مخابرات الشعبة الثانية العراقيّة، تمشط بغداد وضواحيها بحثًا عن الجاسوس الهارب وأعوانه، الذين لا يعرف الصبي "عقيد" سوى أشكالهم فقط؟ لذا فقد كان ضيفًا مقيمًا لدى الشعبة الثانية، يجوب الشوارع والأحياء مع رجالها في محاولة للتعرف على أحد هؤلاء العملاء المجهولين.

هذا في الوقت الذي استقل فيه حبيب شاحنة بضائع، انطلقت به في سواد الليل وأنزلته بجوار سور مطار بغداد، فارتقاه في غمضة عين، وظل يزحف لمسافة طويلة على أرض المطار باتجاه طائرة بريطانية كانت تقف على ممر فرعي في طريقها إلى لندن.

كان باب الشحن مفتوحًا، وثمة عمال يجيئون ويذهبون بعربات البضائع القطارية يفرغونها ببطن الطائرة، ومن خلال إحدى النوافذ بالطائرة، كانت هناك عيون ترقب الزاحف المتربص، الذي سنحت له الفرصة أخيرًا، فقفز في سرعة مذهلة إلى عنبر

البضائع، واندس بين الأمتعة حابسًا أنفاسه. بعدها، تحركت الطائرة وأسرعت جريًا على الممر ثم صعدت إلى السماء..!!

استُقبل العميل الهارب بحفاوة في لندن من قبل رجال الموساد، الذين سفَّروه رأسًا إلى تل أبيب ، حيث استقبل هذه المرة بضجة إعلامية مثيرة، ومُنح اسم "مردخاي بن بوارت" وألحق من فوره بالعمل في جهاز الموساد..

أما صورته فقد وضعت بداخل إطار زجاجي ضخم بمدخل مبنى المخابرات، يضم "الأبطال" الذين قدموا خدمات عظيمة لإسرائيل.

كانت الضجّة الإعلامية في إسرائيل على أشدها، واحتلت قصة "بن بوارت" صدر الصفحات الأولى في الصحف والمجلات، إذ أحيطت عملية هرب الجاسوس بهالة مبهرة من الثقة والتفاخر، أوصلت بأحد ضباط الموساد إلى التصريح عبر الإذاعة بأن يد إسرائيل الطولى تطوق أعوانها أينما كانوا، وأن لا شيء يصعب على مخابرات إسرائيل، في أي موقع من العالم.

وفي خضم النشوة المسكرة، أعلن فجأة في بغداد نبأ هو بمثابة اللطمة القوية التي أفقدت الموساد توازنها للمرة الثانية، وضيَّعت عليها نشوة الانتصار الهزيل الذي تحوَّل إلى انتكاسة، وفضيحة مدوية..

كان الصبي "عقيد" يجوب شوارع بغداد برفقة رجال مكتب الشعبة الثانية، بحثًا عن أيٍّ من أعوان زكي حبيب، وتوقفت بهم السيارة بالقرب من مدخل شارع النهر الموازي لشارع الرشيد، وترجل الصبيّ ليلتحم بزحام الشارع التجاري المشهور. لم يكن "عقيد" يهتم بالفرجة على السلع والبضائع، فمهمته صعبة ومحددة: التفرس في وجوه المارة.. لعلّ وعسى. وبشرفة أحد المكاتب التجارية بالشارع، جلس يتابع أفواج

البشر التي تملأ المكان ضجيجًا وحركة. وبينما هو كذلك، لمح ضالته المنشودة، فصرخ لمرافقيه الذين انطلقوا كطلقة مدفع، إلى رجل كان يشق طريقه بصعوبة وسط الزحام. أمسكوا به فتعرف عليه الصبي عن قرب، واقتادوه مكبلاً إلى مبنى الشعبة الثانية، حيث عثروا بمحفظته على جيب سري، به كمية من سم "الساكسيوتوكسين"، الذي يسبب الموت الفوري بسبب شل أجهزة التنفس والعصب والعضلات.

أنكر المعتقل في البداية معرفته بالصبي أو بزكي حبيب، وادعى بأنه ترك اليهودية وتنصر، لذلك، فهناك مؤامرات تحاك ضده من اليهود الذين يطاردونه وينغصون عليه حياته، وبرّر سبب وجود السم معه بأنه يعاني مشاكل نفسية سيئة، كان سببها موت ابنته بحمى التيفوئيد، وبوار تجارته، وتراكم الديون عليه... مما دفعه للتفكير بالانتحار كثيرًا؛ وعجز عن إيضاح كيفية حصوله على السم.

وبتضييق الخناق حوله تفجرت مفاجآت مذهلة، إذ انهارت أعصاب "سعيل يا جو" على حين بغتة، بعد تجويعه لأربعة أيام في حبس انفرادي، وطلب منهم راجيًا ألا يعدموه، مقابل أن يدلي باعترافات تفصيلية عن النشاط الاستخباري الإسرائيلي في العراق. وبعدما وعدوه، اعترف بأنه عضو بإحدى شبكات التجسس، وأنه اشترك بالفعل في تهريب اليهود مع زكي حبيب، كما أدلى بسيل جارف من الأسماء والعناوين، والأسرار التي لم تخطر ببال.

وخلال ساعات معدودة منذ لحظة اعترافه، استطاعت المخابرات العراقية القبض على ٣٤ يهوديًا عراقيًا، تضمهم عدة شبكات، يمتهن أفرادها التجارة والتدريس والطب والمحاسبة... ويعيشون حياتهم بشكل طبيعي في المجتمع.

بعد اكتمال التحقيق معهم، أعلنت وسائل الإعلام الخبر الذي تلقته إسرائيل كالصاعقة. وأصيب رجال الموساد بخيبة أمل كبرى، إذ اكتشفوا وقوعهم في خطأ

مخابراتي جسيم، عندما سمحوا لعملائهم بالعمل مع أكثر من شبكة جاسوسية في آن واحد، يقودها أفراد معروفون للجميع.

نقلت وكالات الأنباء العالمية وقائع المحاكمة العلنية في بغداد، وتكشفت أمام العالم أجمع نوايا إسرائيل القذرة تجاه العراق، وقوبل الأمر باستنكار شديد من الجمعيات الأهلية اليهودية في بغداد والبصرة، التي رأت أن تدخّل إسرائيل فيه إفساد للمناخ المستقر لليهود في العراق.

وكانت الفاجعة الكبرى لإسرائل، هروب جواسيسها الباقين في بغداد إلى إيران، خشية سقوطهم في قبضة المخابرات، فيلقوا مصير من سبقوهم إلى حبل المشنقة.

أمّا الصبي "عقيد"، فقد تحول إلى بطل قومي، تسابقت الوزارات والهيئات والمؤسسات لتكريمه، وبعدما أدرك بنفسه حجم المؤامرات الصهيونية التي تحاك ضد اليهود العراقيين، وقف أمام جمع غفير من الصحافيين والمراسلين الأجانب، ليعلن على الملأ بأنه يهودي عراقي يحب وطنه، ولن يفكر يومًا بالهجرة إلى إسرائيل لأنها دولة إرهابية، ووجه نداءًا لخالته هناك لتعود ثانية إلى العراق. وقد انهالت التبرعات عليه من كل صوب، وتحول فجأة إلى ثري يمتلك المنزل الفاخر والأرصدة. وفي عام ١٩٥٥ عندما بلغ الثامنة عشرة من عمره، أشهر إسلامه وتحول إلى "عبد الرحمن".

غير أنّ تورّط المخابرات الإسرائيليّة في العراق لم ينته عند هذا الحدّ.

عانى جهاز الموساد من إحجام عملائه الباقين في العراق عن العمل. وكان العدد القليل المتبقي منهم لا يفي بالغرض المطلوب. لذلك قام رئيس الموساد بزيارة سرية سريعة إلى إيران، حيث التقى برئيس المخابرات "السافاك"، وطلب منه "تسهيل" دخول بعض ضباط الموساد لإيران، لتدريب كوادر جديدة من العراقيين.

كانت إيران في ذلك الوقت، يدفعها حافز قوي في إزالة معالم العروبة عن "الخليج العربي"، الذي أطلقت عليه تسمية "الخليج الفارسي"، فأرادت أن تنسبه إليها، متجاهلة نصف دستة من الدول العربية التي تطل عليه، ولها فيه أكثر ما لإيران.

ومدفوعا.. كان الشاه يريد أن يتحول الخليج العربي إلى "بحيرة" إيرانية، ليفرض سطوته على المياه والشواطئ، وسكان الدول وحكوماتها، ووجَدها فرصة سانحة من خلال إسرائيل، التي سارع للاعتراف بها عند قيامها. إذ وعدته إسرائيل بالقيام على خدمة مصالح إيران، للهيمنة على آبار النفط في الخليج، وتنظيم مرور الناقلات، وبمساندتها له ضد العراق بتأليب الأكراد العراقيين ضد السلطات، بل وشجعت الشاه على الاستحواذ والسيطرة على ميناء الفاو، وشط العرب، المنفذ الوحيد للعراق على الخليج.

لكل هذه الاعتبارات مُنحت المخابرات الإسرائيلية صلاحيات كثيرة في إيران. وتحولت مدينتا "عبادان" و"المحمرة" إلى مركزين لانطلاق الجواسيس إلى العراق عبر شط العرب إلى البصرة ثم لسائر المدن. وأقيمت لذلك مراكز متعددة لتدريب الجواسيس على أعمال النسف، والتخريب، وتسميم المياه، وتدمير المراكز الحساسة والمباني الهامة في بغداد، وإشعال الحرائق في المعابد اليهودية والمقاهي لترويع اليهود والمواطنين، وتزييف العملة، وترويج الإشاعات الكاذبة.

من ناحية أخرى، استعان جهاز السافاك بخبرة رجال المخابرات الإسرائيلية، في كيفية إجهاض المظاهرات، وأساليب القمع والتعذيب الوحشية لتطبيقها على معارضي نظام حكم الشاه. وكان هناك عدد ضخم من ضباط الموساد على أرض إيران، منهم ستة عشر ضابطًا يقيمون بصفة دائمة في الأراضي المحاذية للعراق، يشرفون على عمليات التجسس، ويوجهون شبكات الجواسيس داخل القطر الآمن.

وبرغم يقظة المخابرات العراقية، وجهاز مكافحة التجسس بها، إلا أنّ جهاز الموساد كان كلما سقطت له شبكة جاسوسية، يقيم أخرى مكانها، معتمدًا على الجالية اليهودية التي يصل عددها لسبعين ألف يهودي. وكان سلاح الموساد دائمًا وأبدًا المال والجنس، مستغلاًّ تعدد الطوائف المذهبية والديانات والتعصب.

ذلك أن الدين أو المذهب يسهل من خلاله التغلغل، إذا ما كان هناك عدم استقرار سياسي يقابله اضطراب بين أفراد العقائد المختلفة.

فالعراق هو القطر العربي الأول الذي يعج بأصحاب الملل والمذاهب المتعددة، الذين يمارسون طقوسهم في حرية لا يشوبها القلق، مهما ارتجت مقاعد السلطة.

ففي العراق جنبًا إلى جنب يعيش المسلمون من أهل السنة، والشيعة، والأكراد، والزيديون، والمسيحيون، واليهود، والصابئة، وعبدة النار.. إلخ. تعدد عجيب في الديانات والمذاهب والنحل، هو بمثابة مناخ خصب لنمو ضعاف النفوس، ومرتع سهل لهواة صيد الجواسيس، الذين أجادوا اللعب على أوتار العقائد.

فإسرائيل كانت تتعامل مع العراق، شأنها كشأن مصر، بحذر شديد، نظرًا لما تملكه من ثروة بشرية واقتصادية كبيرة، وجيش منظم مدرب مسلح.

لقد كان النمو الاقتصادي المضطرد، مع وجود الجيش المدرب في العراق، أمرًا مفزعًا حقًّا لإسرائيل. خاصة مع وجود سبعين ألف يهودي عراقي، كانوا ما زالوا يحتفظون بولائهم الشديد للوطن الأول، ولم تغرهم الدعايات الصهيونية الكاذبة عن واحة الديمقراطية في الوطن العربي التي هي إسرائيل.

لذلك.. لم تتوان الدولة اليهودية للحظة، عن الدفع بأعداد هائلة من الجواسيس داخل نسيج المجتمع، وتعويض الشبكات التي تسقط بأخرى أكثر تدريبًا وحرفية وفنًّا.

واستمر التقاتل بالأدمغة في حرب شرسة لا هوادة فيها بين جهازي المخابرات. فطالما هناك إغراءات، يتواجد الخونة، ويشتعل الصراع.

في بداية عام ١٩٦٦، حدثت مفاجأة لم تتوقعها الموساد أبدًا، ولم تحسب لها حسابًا من قبل. إذ كانت الخسائر فادحة جدًّا، والدوي يجلجل صداه في جنبات الكرة الأرضية...

رصدت أجهزة المراقبة الإلكترونية في المخابرات العراقية، انبعاث رسائل لاسلكية متكررة، يبثها أحد الجواسيس في ساعة محددة كل أسبوع. وكان البث يستغرق من خمس دقائق إلى نصف الساعة تبعًا لفحوى الرسالة.

تشكلت على الفور عدة فرق ضمت أكفأ الفنيين، مهمتها البحث عن جاسوس إسرائيلي في بغداد، واختصت كل فرقة بحي من أحياء المدينة الكبيرة. ولأن أجهزة التتبع اللاسلكية المتنقلة لم تكن متوافرة لدى الجهاز، فقد كان على كل فريق حصر أجهزة "الإيريال" الهوائية فوق أسطح المنازل. علمًا بأن إيريال اللاسلكي يختلف كلية عن الإيريال المعتاد.

وبينما فرق البحث تمشط أحياء المدينة، ويصادفها الفشل في الوصول إلى مصدر الإرسال، ألقي القبض على فتاة يهودية شابة، تعمل سكرتيرة بإحدى الشركات الإنشائية الكبرى، أبلغ رئيسها سلطات الأمن بأنه يشك في "إخلاصها"، حيث دأبت على إغرائه لإقامة علاقة خاصة معها، فوقع بالفعل في حبائلها، لكنه لاحظ كثرة أسئلتها، واهتمامها بالعمليات الخرسانية التي تنفذها الشركة داخل الوحدات العسكرية، والتي يحتفظ بملفاتها وخرائطها الهندسية بنفسه داخل خزنة مكتبه الحديدية. وفوجئ ذات صباح في مقر عمله، باختفاء مفاتيحه الخاصة من درج مكتبه... ولما أعياه البحث عنها، تبين له أن سكرتيرته اليهودية "زالة" خرجت كغير عادتها، ثم عادت بعد دقائق، فتشاغل عنها

للحظات تمكنت خلالها من إرجاع المفاتيح إلى مكانها. لذلك فهو يشك في كونها غير آمنة، فأوصوه بألا يظهر لها شكوكه، وأن يستمر في علاقته بها بشكل طبيعي دون أن تلحظ تبدلاً في تصرفاته.

ما أن كانت الشركة تغلق أبوابها حتى تخضع لمراقبة شديدة، ويرابض بها بشكل سري عناصر من رجال الأمن، تحسبًا لمحاولة تسلل يقوم بها عميل لإسرائيل. كما وضعت شقة "زالة" أيضًا تحت المراقبة المستمرة.

وبينما فريق المراقبة يقوم بعمله ليلة الخميس بعد الإبلاغ بثلاثة أيام، فوجئ بالفتاة اليهودية تخرج مسرعة في منتصف الليل، لتركب بجوار رجل كان ينتظرها بسيارته على بعد خطوات من المنزل. فتابعهما فريق المراقبة بحذر. وأمام مقر الشركة، توقفت السيارة وغادرتها الفتاة بمفردها، بينما جلس الرجل يراقب المكان. لحظات وأطبق عليه رجال الأمن، في ذات الوقت الذي سمعت فيه صرخة أطلقتها الفتاة، التي ما إن فتحت الباب بمفتاحها المصطنع حتى وجدتهم بانتظارها بالداخل.

اقتيدت الفتاة وحدها للتحقيق دون شريكها، إذ إنه اصيب بصدمة عصبية مات على إثرها حال مفاجأته بالقبض عليه...

ولأنها حديثة العهد بالجاسوسية، اعترفت في الحال دون ضغوط بأنها تعمل لصالح الموساد، وكشفت عن أسماء بعض شركائها.

وبتوالي إلقاء القبض عليهم واحدًا بعد الآخر واستجوابهم، تمكنت المخابرات العراقية من كشف تسع شبكات للتجسس دفعة واحدة.

وفي ١٦ كانون الثاني - يناير ١٩٦٦، أعلنت العراق النبأ الذي أذهل "عقول" رجال الموساد، فجحظت عيونهم لهول الفاجعة، وأحس أكثرهم بأن مصيرهم

ومستقبلهم كله سيتحدد خلال أيام قليلة. فقد ارتكب عملاؤهم في العراق ذات الخطأ الذي أوقع بالكثيرين منهم من قبل، ألا وهو نظام الاتصال، والانضمام إلى خليتين في آن واحد.

وبالفعل، أجريت تحقيقات عاجلة لتفسير أسباب هذا السقوط المتكرر، وحدثت تنقلات وتعديلات داخل شعبة القسم العربي في الموساد، وتم استبعاد من ثبت خطؤه في سقوط الشبكات التسع، التي هي عماد الجاسوسية الإسرائيلية في العراق[1].

ومن بين الشبكات التسع، شبكة عيزرا خزام

عيزرا خزام، أغوته "جنّة" فسقط

قديمًا قالوا "الحب يصنع المعجزات"، وفي هذا القول حقيقة تنطبق على أبطال هذه القصة. ففي حي الكاظمية ببغداد وُلد "عيزرا خزام" عام ١٩٢٤ لأسرة ثرية تعمل بتجارة الذهب والمشغولات الثمينة. ونشأ منذ طفولته نشأة يهودية تقليدية، منكبًا على كتبه الدراسية بعيدًا عن مهاترات الشباب وطيشهم، إلى أن التحق بكلية الطب في بغداد وتخرج منها عام ١٩٥٣، ليعمل طبيبًا بالمستشفى المركزي، مرتقيًا السلم الوظيفي والمهني سريعًا نظرًا لمهارته الفائقة في عمله.

وفي المستشفى تقابل مع إحدى الممرضات اليهوديات وتدعى "جنة" التي تسلمت عملها حديثًا، فانبهر بجمالها الفتان وأنوثتها الفتاكة، وغرق في حبها دون أن يدري.. أو يقاوم. ففي ذلك الوقت، كانت ضغوط أسرته ليتزوج تزداد يومًا بعد يوم.. واختار

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب (مكتبة مدبولي،٢٠٠٣) ص٢٨٧ ـ ٢٩٧.

له والده ابنة تاجر يهودي ثري، رآها عيزرا عدة مرات في المناسبات الدينية والعائلية، لكنها لم تترك لديه أثرًا يدعوه ليتقرب إليها. فصارح والده بمشاعره تجاه ابنة صديقه، وانشغل بعمله وبحبه لممرضته الحسناء.

وحدث ذات مرة أن تجرأ وأعلمها بحبه، فاستكثرت ذلك منه للفروق الشاسعة بينهما، فهي ابنة يهودي فقير، يمتهن النحت والنقش على النحاس، ولا قبَل لأسرتها به. لكنه تناسى كل الفروق غير عابئ بفقرها، فهي غنية بالجمال الوفير.. وهذا يكفيه.

استجابت جنة لعواطفه، وانقادت هي الأخرى تجاهه، مانحة إياه مشاعرها وقلبها عن قناعة. لكن حبه لها كان أضعاف ما تكنه هي من حب. لذلك كان شديد الغيرة، يطاردها في ردهات المستشفى، وفي كل مكان. ولما صارحته بأنها لم تعد تطيق تصرفاته، عرض عليها الزواج في أسرع وقت، فرفضت بإصرار دون أن توضح لذلك سببًا. فتحير الدكتور عيزرا في أمر حبيبته، وساورته الشكوك والريب، لكنها قطعت عليه الطريق، واعترفت له بأنها قررت ألا تتزوج في بغداد مهما امتد بها العمر، إذ هي تحلم بالحياة في إسرائيل، والزواج هناك بمن يحبها، ويريدها.

أُسقط في يده، ولم يسعفه عقله ليقول أي شيء. فلما طال صمته، همت بالانصراف، لكنه جذبها بشدة وبعينيه شعاعات من تحد، وقال إنه يوافق على زواجها في بغداد ثم يسعيان معًا بعد ذلك للهروب إلى إسرائيل. رفضت جنة ما أبداه من رأي.. ذلك لأن أسرته لن توافق على زواجهما، وبالتالي سيخسر الكثير وهو الذي اعتاد الحياة الناعمة بما يغدقه عليه والده من أموال.

وتمر الأيام وحبيبته في تبدل مستمر تجاهه، فيضمر قلبه، ويسير كطفل يسعى لحضن أمه الدافئ، يتلمس بين أحضانها الأمن والحنان. فكانت ترقب حبه الطاغي لها في تدلل، حريصة على ألا تمنحه ولو جرعة قليلة من أمل في زواجهما ببغداد.

لقد بدّد إصرارها على الهجرة أمنه، وأحال ليله إلى كابوس مقيم خوفًا من صدمة اختفائها المفاجئ. لذلك أسرع باستئجار شقة جديدة بشارع السعدون كعيادة، ورجاها أن تقبل العمل معه لتكون بقربه طوال اليوم، فوافقت واثقة من شدة تعلقه بها، وكانت تضمر له أمرًا.

لقد تحينت الوقت المناسب، وصارحته بأنها تعمل لصالح الموساد الإسرائيلي منذ مضى العام، وتنتظر انتهاء المهام المكلفة بها ليتحقق حلمها بالهجرة.

هزه الأمر وبعثر عقله، واضطربت له قسمات وجهه وحياته كلها، ولأنه يحبها لدرجة الجنون، لم يشأ أن يرفض مسلكها فيخسرها. لحظتئذ.. عانقته في امتنان، وأذاقته قبلة كالبركان أذهبت بإرادته، فكبلته معها بسلاسل من إثارة أنثوية فضحت ضعفه وخضوعه.

وبعد مرور عدة أيام، كانت أثناءها تختلي به كثيرًا لتمنحه المزيد، طلبت منه أن يستقبل رئيسها في "العمل". ومثله.. مغيّب العقل والإرادة، لم يستطع أن يرفض هذا الأمر.

في اللقاء الأول بينهما، شرح له العميل الإسرائيلي الكثير عن معاناة السواد الأعظم من اليهود في العراق، ورغبة الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة في العمل على تهجير أكبر عدد منهم، إشفاقًا لحالهم أولاً، ولحاجة الدولة اليهودية إليهم ثانيًا.

هكذا تم اللقاء بينهما في هدوء.. ولم يغادر "الرئيس" العيادة إلا وأقنع الدكتور عيزرا، بضرورة الانضمام للمنظمة السرية الصهيونيّة التي تنتشر فروعها في كل العراق. لقد كان للحب أثره العجيب.. إذ رحب الدكتور عيزرا بالعمل مع المنظمة، واتخاذ عيادته مقرًّا للقّاءات السرية، بعيدًا عن أعين رجال المخابرات، الذين ينقبون

عن الخونة في كل مكان. وباع الدكتور عيزرا وطنه بخسًا للصهيونية، وكأنه ما ولد وعاش وتعلم على أرضه، وشرب من مائه، وتنسم هواءه. وأُخضع لدورة تدريبية على أعمال التجسس، بواسطة ضابط إسرائيلي تسلل خصيصًا عبر شط العرب لتدريبه، ثم سافر إلى البصرة للحصول على دورة أخرى في استعمال جهاز اللاسلكي، ورجع إلى بغداد يحمل حقيبته الطبيّة، بداخلها الجهاز الثمين.

لقد اشتد إيمانه، كيهودي، بمهمته، وتعاظم حبه لإسرائيل متوازيًا مع حب جنة، قانعًا بضرورة الهجرة اليهودية لتشتد الدولة، وتقوى أمام الجبروت العربي والجيوش التي تتسلح سرًّا لتدميرها.

ثم انقلب اهتمامه بقضية التهجير، إلى البحث في خبايا القوة العسكرية العراقية. هذا الأمر شغله تمامًا واستحوذ على تفكيره. فقد كان يرى أن لديه قدرات هائلة، للعمل في مجال الأسرار العسكرية، التي تتنامى في الخفاء. أما مسألة التهجير فبإمكان آخرين أقل حرفية منه القيام بها.

كانت حبيبته وعشيقته جنة توافقه في رأيه، وتؤيده، وتدفعه دفعًا بغريزة الخيانة التي ولد بها اليهود، فأقنعته بضرورة استخدام جسدها معبرًا للوصول إلى معرفة نوايا العراقيين، وخطط التسليح التي يضعونها للجيش، بالسيطرة على أعصاب عدد من الضباط، يتم الإيقاع بهم في حبائلها.

إن تعدد الانقلابات العسكرية للوصول إلى الحكم، منذ الإطاحة بالملكية عام ١٩٥٨، جعل من الجيش العراقي لغزًا يصعب التكهن به. فكل رئيس جديد، وهو عسكري بالطبع، له بعده السياسي وقراءته الخاصة لخريطة الجيش وتضاريسها. ولقصر مدد الحكم، أصبح من العسير وضع رؤية محددة تترجم السياسات والنوايا. فالعراق يأتي في طليعة البلدان في عدد الانقلابات التي وقعت فيه منذ استقلاله، حتى

وصول صدام حسين إلى الحكم. من هنا، ولهذه الأسباب، انشغل الدكتور عيزرا بأسرار السياسة والجيش في العراق، بعدما تبين له أن هناك دلائل قوية، تشير إلى مساع جادة لتسليح الجيش بأحدث الأسلحة السوفياتية، لمساندة دول المواجهة في صراعها ضد إسرائيل من جهة، وللوقوف ضد أطماع إيران من جهة أخرى.

فسياسة التخويف التي اتبعها الشاهنشاه محمد رضا بهلوي في المنطقة، كانت سببًا مهمًا للبحث عن مصادر السلاح، وتدريب الجيش، ورفع درجة كفاءته واستعداده وتأهبه.

فكيف طوع الدكتور عيزرا جسد حبيبته لخدمة الجاسوسية؟

كانت البداية بطريق الصدفة البحتة، عندما لاحظت جنة نظرات ذات مغزى تفهمها الأنثى، لأحد المترددين على مكتب المحامي المواجه للعيادة. فلم تعر الأمر انتباهًا في البداية، لكن بعدما شاهدت الشخص نفسه بعد عدة أيام، وهو يرتدي البزة العسكرية برتبة عقيد، رمقته بسهم من لحاظها فأردته قتيلاً، وفوجئت به يدلف إلى العيادة كالمنوم التائه، يطلب منها مستأذنًا استعمال التليفون. كانت حجّة واهية تفضحها نبرات صوته ونظراته العطشى، زادتها ثقة في مواهبها، وطغيان أنوثتها.

ولأنه صيد ثمين لا يقاوم، تعاملت معه برقة متناهية، مبدية إعجابها بزيه العسكري المهندم. فأذكت غروره، وايقظت لديه روح المغامرة والشوق إلى العشق وأندفاعات الشباب، فداوم على الاتصال بها تليفونيًا يسمعها كلمات الإطراء، بينما هي تصده في دلال جاذب ساحر.

أطلعت عيزرا على ما تنويه للإيقاع بالعقيد عبد الجبار، فوافقها معربًا عن سعادته بإخلاصها للعمل، ورسما معًا خطة اصطياده المحكمة.

أعدت إحدى حجرات العيادة إعدادًا جيدًا، حيث زودت بأحدث كاميرات التصوير والأجهزة اللاقطة للصوت، ولما اتصل بها عبد الجبار ذات مساء أنبأته أنها بمفردها بالعيادة لسفر الطبيب. ابتلع الضابط الطُّعم، وعرض عليها أن يتناولا العشاء سويًا فأجابته باستحالة ذلك لأنها تنتظر مكالمة هامة من الدكتور عيزرا. حينئذ عرض عليها أن يحمل العشاء إلى العيادة ليتناولاه معًا، فرحبت بعد تمنع خبيث. وهكذا ذهب برجليه إلى النهاية.

فبعد العشاء سحبته إلى الحجرة "الملغومة"، واكتشفت أن العقيد الفارع الطول، ذا الوجه العسكري الصارم والشارب الكث، يعاني ضعف رجولته. إلا أن العميلة المحنكة، أشعرته بأنه فحل من فحول "نينوى"، وثور من ثيران "آشور" القديمة. فأقبل عليها نهمًا كالجائع المجوّع، لا يمل مذاقها أبدًا ولا يشبع.

ولأنه يعرف "قدر" نفسه جيدًا، أراد تعويض هشاشة رجولته بالظهور بمظهر الضابط الكفء، لذلك استجاب لتساؤلاتها، متباهيًا بأهميته وعمله بأمور الجيش وأسراره، تندفع منه المعلومات العسكرية كالشلال المحبوس، لا شيء يصده، أو يمنعه، للدرجة التي جعلت عيزرا يستغيث برؤوسائه في "عبادان"، أن يبعثوا بمن يتسلم عشرات التقارير الغاية في الأهمية، والتي لا يستطيع اختزالها وبثها لاسلكيًا.

لقد تحول العقيد عبد الجبار لكلب طيع أليف، أوهمته جنة بفحولته فعوضها بأدق الأسرار العسكرية، وحمل إليها خرائط تفصيلية لقواعد الصواريخ، والدفاع الجوي والمطارت، ليستعين بها في شروحه. فكانت تبدو متغابية أمامه ليسترسل أكثر في فضح ما برأسه من خبايا الجيش، وتتضاعف بذلك أشرطة التسجيل والأفلام التي تحمل إلى إيران، ثم تنقل فورًا لإسرائيل.

اتسعت عضوية شبكة الدكتور عيزرا، بفضل جسد الحبيبة المثير، لتشمل فئات أخرى عديدة في المجتمع العراقي ببغداد.

خمس سنوات كاملة اكتسب خلالها الطبيب اليهودي خبرات واسعة في فنون التجسس، وكيفية تجنيد العملاء والسيطرة عليهم، ملتزمًا بالحس الأمني العالي، والسرية المطلقة لتحركاته. فتعدى نشاطه التجسسي نطاق الجيش، والتسليح، وانشغل بكل ما يخدم مصالح إسرائيل في العراق.

وبفضل علاقاته وتشعب مهامه، أمكن له تهريب أكثر من مائتي يهودي عبر "الفاو" وشط "العرب" إلى ميناء عبادان، وتسريب تقارير اقتصادية وعسكرية لإسرائيل لا تقدر بثمن، فأغدقت عليه مخابراتها بالمال الوفير الذي ينفق منه بسخاء على أعوانه، ويشتري به ذمم الضعفاء في كل موقع يريد اقتحام أسراره.

هكذا استمر عيزرا يعمل في الخفاء، ملتزمًا بمبادئه كيهودي يعمل لصالح وطنه الجديد، مشجعًا حبيبته في استدارج ضعاف النفوس إلى فراشها، حيث تنزف الرجولة وتنسل مع غياب العقل كافة الأسرار سهلة بلا ضوابط.

لقد سخّر نفسه ووقته وحياته للجاسوسية، ونسي في خضم التزاحم أمر الحب والغرام، على العكس من "جنة" التي التصقت به، ولم تنس للحظة أن هناك اتفاقًا بينهما على الزواج في تل أبيب.

كانت تحس أحيانًا كثيرة بأن آمالها مجرد سراب كاذب. فبعد سنوات في الجاسوسية، لا شيء يتحقق، ولا أحد يحس بمعاناة خوفها. فالعمر يجري وتذبل فيه أوراق الشباب، وتنطفئ رويدًا.. رويدًا، أغاريد الجمال وروعة الأنوثة.

تساءلت كثيرًا: ما النهاية..؟ ما المصير..؟ وهل تحدث معجزة ويتحول الوهم إلى واقع؟

الشهور والسنوات الطويلة في انتظار الأمل أرهقتها، ودمرت بداخلها البهجة، وقطعت حبال الصبر والثقة، وزعزعت إيمانها بالعمل الذي "كان" مقدسًا، إذ تملكها إحساس مقيت بأنها مجرد داعرة حقيرة، تخلع ثيابها تلقائيًا لكل عابر في سبيل ماذا؟

وهل يحس من تعمل لصالحهم بمعاناتها..؟ بامتهانها لذاتها..؟ بجسدها الرخيص المنتهك..؟ بالقرف الذي يصيبها بالغثيان وهي تشم رائحة الأفواه النتنة، والعرق اللزج المتعفن الذي يزيد التصاق الأجساد العارية كل ليلة؟..

أعداد من البشر لا تستطيع حصرها، من كل لون وحجم، هتكوا ستر أنوثتها، وذبحوها ضحية لأمزجتهم الشاذة.

كل ذلك من أجل من؟ الأمل المنتظر بعيد المنال. عيزرا الحبيب ابتعد هو الآخر. لم تعد تشغله أو تثيره كما كانت من قبل.. فقد فترت غيرته ورغبته فيها، ولم تعد تمثل لديه أي شيء. فقط.. تحولت في حياته إلى مجرد "معاونة" تساعده في خدمة الموساد، وامرأة تستجيب له بلا تمنع كلما أرادها.. ونادرًا ما كان يفكر بذلك طوال الفترة الأخيرة.

.. قتامة بشعة عششت بأفقها، وطحنتها رحى الفكر بعدما أضحت هشيم امرأة تتعذب، تنشقق ألمًا، لكنها آمنت بألا تخسره.

حساباتها المعقدة أوصلتها إلى تلك النتيجة، فتمنت أن يرجع إليها الحبيب، العاشق، الغيور، وأن يعاود عرض رغبته بالزواج. لو فعلها ونطق.. لوافقت في الحال، لقلبّت يديه ورأسه وقدميه فرحة مطمئنة، لكن.. هل ينطقها بعد سنوات من الصمت؟ إذن.. فلتحاول هي، فلا زالت تملك قدرًا من جاذبية، وسحر، بل هي تملك ينابيع من حنان. كان عليها أن تهدأ قليلاً لكي تستعيد توازنها وتتكلم معه، فتستريح.

لكن.. يا لسخرية الأقدار، فعندما تتعارض الرغبات وتتصادم الأماني، فالخسائر عندئذ بالقطع فادحة. والنتائج، قد تكون مهلكة..!!

حوادث بسيطة قد تمر بحياتنا، لكن لا أحد يتصور أنها قد تجرفنا إلى طريق آخر، ربما نجد فيه سعادتنا، أو ينتهي بنا إلى كارثة لا نتوقعها.

بديهيات فشل الفيلسوف فردريك نيتشه في تعرية مشاعره والتسليم بها، إذ أضاع عمره كله مؤمنًا بفلسفة "القوة"، والدعوة لمجتمع "السوبر مان"، بمعنى أن تعمل الحكومات على التخلص من الضعفاء والمرضى، وتبقى فقط على الأقوياء الأصحاء لكي ترقى وتزدهر. فالضعفاء يستهلكون جهد الأقوياء ووقتهم، وفي هذا استنزاف لثروات المجتمع. وعندما كان في زيارة لشمال إيطاليا، رأى حوذيًّا يضرب حصانه بلا هوادة لأنه عجز عن جر العربة في طريق صاعد، فأشفق نيتشيه على الحصان، وأسرع بدفع العربة مع المارة، صابًّا جام غضبه على الحوذى غليظ القلب، ثم اكتشف فجأة فداحة خطإه، فندم ندمًا شديدًا، وتراجع عن فلسفته التي ذهبت بعقله.. وقتلته.

أما الدكتور عيزرا خزام، فلم يكن يشك للحظة أن "جنة" التي تعشقه لدرجة العبادة قد تسعى لتدميره، وقتله. لذلك.. استعذب تلهفها عليه وتذللها له.. وفي أعماقه كان يغمره انتشاء محبب كلما رآها خاضعة مستسلمة.. خائرة أمام حبها.. وخوفها من ذلك المجهول المتوثب المنذر بالخطر.

كان طوال خمس سنوات قد مل مذاقها، وأصبح هاجسه الأكبر هو السعي بإخلاص لخدمة إسرائيل. لهذا.. نبذ حبه القديم منذ اقتحم عالم الجاسوسية، وخطا فيه خطوات تفوق ما كان يعتقد في نفسه، وقدراته. إلا أن حادثًا عابرًا بدل فجأة كل شيء، وعجل بالنهاية.

لقد توقف ذات نهار بسيارته في إحدى إشارات المرور ببغداد. وبينما كـان ينتظـر الإشـارة الخضـراء، لمـح فتـاة سـاحرة تعبر الشـارع، كـانت قسـماتها تفـوق الإلهـة "عشتروت" جمالاً، خطواتها الرشيقة كظبي يحجل طربًا فيزداد حسنًا... فتسمر مكانـه يتابعها بناظريه منجذبًا... وطاردها من بعدها بإصرار صياد لا يهمد.

كانت الفتاة تدعى "زهيرة"، صبية في ريعـان شـبابها، غضـة بضـة، تسـلب العقل والفؤاد. تقدم الدكتور عيزرا لخطبتها باذلاً أمواله لاسترضاء أهلها، مستعدًا للتخلي عن يهوديته فور إعلان الموافقة.

أحست جنة بنفوره منها، برغم مشاعر الحب الفياضة التي تغدقها عليه، وبحاسـتها الأنثوية أدركت بأن هناك امرأة. وبدأت رحلة البحـث عنهـا حتـى وقفـت علـى الحقيقـة المرة، فصعقتها الصدمة، وزلزلت ما بقي عندها من أمل ضعيف، لمّا طالبته بأن يقطع علاقته بزهيرة ويتزوجها، سخر منها قائلاً:

ـ المرأة التي اعتادت كل الرجال يشق عليها أن تكتفي برجل واحد.

صرخت في حدة:

ـ عيزرا.. ماذا تقول؟ أنت تعرف بالقطع أنه "عملي".. وليس حبًا في الرجال.

قال فيما يشبه التهكم:

ـ نعم.. أعرف ذلك.. وأعرف أيضًا أن "عملك" انقلب إلى "هوس" ما له من علاج.

قالت صارخة وقد تحشرج صوتها:

ـ هوس؟ أتسمي ما يحدث بيننا هوسًا..؟

ـ جنة..

تقاطعه:

ـ خمس سنوات وأنا أمنحك نفسي.. أتظنني "مريضة" لا حل لي؟.. ماذا.

قال في حدة:

ـ جنة.. أرجوك...

ـ ألأنني أحبك أكثر من نفسي.. وأعمل كل ما يرضيك ويسعدك توصمني بالشذوذ؟.. إذن.. ماذا كنت تظنني أفعل مع طوابير أتباعك وزبائنك؟ أأكون الداعرة المهذبة؟ هم يرونني مهووسة.. فكنت أفتعل ولا أنفعل.. كنت أمنح ولا أُمنح.. أنت بنفسك طلبت مني مرَّات ومرَّات أن "أُمثّل" جميع الأدوار.. أنسيت ذلك..؟ أم أنك زهدت فيَّ؟

ـ أحببتك يومًا وطلبتك للزواج فتمنعت...

ـ "يومًا ما"؟ أكنت تكرهني طوال السنوات الفائتة؟ لماذا إذن كنت تعاشرني حتى شهر مضى؟

ـ كفى.. كفى.. جنة..

ـ لا.. أريد أن أعرف يا عيزرا.. أرجوك، لا تخجل من مصارحتي.. أرجوك قلها لأستريح.

ـ لا وقت للحديث الآن.. وراءنا عمل ينتظرنا..

ـ عيزرا.. سأنسى كل ما قلته الآن.. لكن، عاهدني أن تكون لي.. ستجدني خادمة لك.. أنا أحبك فلا تذبحني بسكين بارد أكثر من ذلك..

ـ جنة.. قلت لك كفى الآن، فما عساك تريدين؟

- نعم يا عيزرا.. هذا يكفي؛ لكن عليك أن تعلم أنني متعبة وبحاجة للراحة بالمنزل، فلا تطالبني بأي عمل على الأقل.

ومصدومة، محطمة، منكسرة، لملمت بقاياها، وذهبت إلى السلطات تطلب السماح لها بالسفر إلى إيران للعلاج. وبعرضها على القومسيون الطبي، تبين أنها سليمة من الأمراض التي تستدعي السفر إلى الخارج.

لزمت جنة بيتها في محاولة "لتجميع" ذاتها المهترئة، إلى أن حدثت كارثة يناير ١٩٦٦، عندما ألقي القبض على "زالة" العميلة اليهودية، أثناء اقتحامها مقر شركة الإنشاءات ليلاً.

لقد اعترفت "زالة" بحداثتها في عالم الجاسوسية، وبأن شريكها الذي مات بالسكتة القلبية في الشارع لحظة القبض عليه، هو رئيسها المسؤول عنها "ضابط الحالة". وأن التكليفات تجيء من عبادان لباقي أعضاء الشبكة الذين لا تعرفهم. ومع إعادة التحقيق معها مرات، أوضحت بأن هناك طبيبًا يهوديًا لا تعرف اسمه الحقيقي كان يأوي رئيسها الذي مات.

قامت أجهزة الأمن باعتقال عدد كبير من الأطباء اليهود المشكوك في تصرفاتهم وولائهم، ووضعتهم رهن التحقيق والاستجواب. وكان من بينهم الدكتور عيزرا خزام.

ولما علمت جنة بأمر اعتقال عيزرا، سيطر عليها الرعب والهلع، وفكرت في نهايتها إذا ما اعترف. وباتت تنتظر كل لحظة طرقات رجال الأمن على بابها. فانضوت هلوعة، ذابلة، زائغة البصر. وبينما تقلب الصحف بحثًا عن أخبار تهمها، قرأت تصريحًا لمسؤول كبير تعهد بمكافأة سخية لكل من يدلي بأي معلومات، تؤدى

للقبض على جاسوس، وحماية أي عراقي يبلغ عن تورطه في أعمال جاسوسية، مهما كان حجمها.

قامت جنة على الفور وبدلت ملابسها، ثم غادرت منزلها إلى وزارة الداخلية، وطلبت مقابلة المسؤول الكبير لأمر هام فسمح لها.. وأحست بصدق نبرته وهو يعيد تأكيد ما صرح به للصحف. فاعترفت تفصيليًا بأمر الدكتور عيزرا، وقصتها مع الخيانة.

هكذا كشفت كل الأسرار والخبايا، وهدمت المعبد على من فيه، إذ ألقي القبض على أثني عشر جاسوسًا في شبكة عيزرا وتكشفت حقائق مذهلة عن تورط العديد من اليهود العراقيين، وانخراطهم في عمليات تجسس ليس بنية العمل على تهجير اليهود فحسب، إنما طالت الأسرار العسكرية وكل نواحي الجيش في العراق.

وكانت وقائع المحاكمة عجيبة.. والأحكام التي صدرت أعجب.. فقد صدر الحكم بإعدام الدكتور عيزرا وعبد الجبار رميًا بالرصاص، والشنق والحبس للباقين الأحد عشر.. أما جنة المصدومة، فقد حكم عليها رأفة بالسجن خمسة أعوام.

أما زهيرة، فقد عادت من جديد تجوب شوارع بغداد كغزال شارد[١]...

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص ٣٠١ ـ ٣١٠.

ناجي زلخا: جاسوس في شوارع بغداد

بانكشاف أمر الدكتور عيزرا وأعوانه، توالى سقوط شبكات الموساد في العراق، نتيجة الخطأ الجسيم في نظام الاتصال بين الشبكات.

ذلك الخطأ الذي أفاد العراقيين، ومكنهم بسهولة من كشف تسع شبكات دفعة واحدة، مما أحدث فراغًا مخابراتيًا كبيرًا في إسرائيل، بسبب توقف سيل المعلومات عن الحياة المختلفة في العراق.

لقد ألقي القبض على رؤوس الشبكات وأعوانهم، ففضحت اعترافاتهم المذهلة المخططات الإسرائيلية في المنطقة العربية.

كان "عيزرا ناجي زلخا" أحد هؤلاء الرؤوس.. واحدًا من أشرس الجواسيس وأمهرهم، الذين قادوا الصراع بالأدمغة بين المخابرات الإسرائيلية والمخابرات العراقية..

فهو يهودي عراقي، ماكر كالثعلب، وديع كالأرنب، شرس كالنمر ذو ألف مخلب، سهل جدًا أن يتلون كالحرباء وفقًا للظروف والمواقف، لكنه على كل حال ثعباني الخطر، قلما يفلت مخلوق من لدغته.

ولد عيزرا ناجي زلخا بالموصل شمالي العراق في أول كانون الثاني - يناير ١٩٢٧، وحصل على شهادة متوسطة أهلته للعمل موظفًا في أرشيف وزارة التجارة ببغداد.

تعرف بمعلمة يهودية اسمها "ملاذ" في المعبد اليهودي، لا تحمل قدرًا كبيرًا من الجمال، لكنها رقيقة تفيض عذوبة وحنانًا. فأحبها بإخلاص وتزوجا عام ١٩٥٢، وعاشا معًا هانئين ترفّ حولهما السعادة، إلى أن أصيبت ملاذ فجأة بحمى التيفوئيد التي سرعان ما فتكت بها، ورحلت بعد عام واحد من الزواج، فعاش حياته من بعدها وحيدًا، مهمومًا، منشغلاً عن متع الحياة بالسباحة في بحر الذكريات.

أشفق عليه نفر من صحبه، وفي محاولة لمساعدته ليخرج من محنته، دُفع دفعًا للعمل فترة مسائية بأحد المختبرات الطبية، فاستنزفه العمل ليل نهار، لكنه برغم ذلك، ظل وفيًّا لزوجته الراحلة، لم يغتنم فرصة واحدة للتجاوب مع أيّ امرأة أخرى تتقرب إليه.

وفي أحد الأعياد اليهودية، حمل باقة زهور إلى قبرها. استند برأسه إلى جدار القبر، وهجمت عليه الذكريات كالأعاصير. فاستغرقته تمامًا، وتلبد حاله لينخرط في بكاء مرير، حفرت دموعه الثخينة أخدودين نازفين على خديه.

التفت فجأة إلى صاحب اليد الحانية التي تربت على كتفه، فوجد رجلاً قارب الستين نحت الزمن آثاره على وجهه. جذبه الكهل فمشى إلى جواره يقص عليه حكايته وأحزانه فتأثر الرجل وطالبه بالصبر، وأخذ يقص هو الآخر حكايات ومأثورات ليخفف عنه، ثم حدثه عن نفسه وعن زوجته فائقة الجمال، التي ماتت هي الأخرى في شبابها وهي تلد، فلم يعثر على من تماثلها جمالاً، وعاش بلا زوجة واهبًا حياته لابنته الوحيدة التي أنجبها.

كان اليهودي الكهل، واسمه "بوشا"، يعمل تاجرًا متجولاً بين أحياء بغداد الشعبية، يبيع بضائعه المختلفة بالأجل، فاشتهر بين النساء الفقيرات اللاتي أقبلن على سلعه، باسمات فرحات بحديثه العذب، ومداعباته الرقيقة لأطفالهن.

وكانت زيارة عيزرا لبوشا لأول مرة.. بداية مثيرة لقصة الحب، والجاسوسية، والتوحش.

فبوشا التاجر المتوسط الحال، وقع منذ زمن في شرك الجاسوسية، وانضم لإحدى الخلايا السرية التي تعمل لصالح إسرائيل. وكانت مهمته جمع المعلومات عن فقراء اليهود في الأحياء الشعبية، ظروفهم المعيشية، وأعدادهم، وتعليمهم، وحرفهم، واتجاهات الرأي عندهم في مسألة الهجرة. فكان لذلك يكثف من زياراته للأحياء اليهودية ليكتب تقاريره عنهم. ويتردد على القبور لتصيد الأخبار من أفواه المكلومين. دون أن تعلم ابنته بنشاطه التجسسي، أو يحاول هو جرها إلى العمل معه.

ذهب عيزرا مطمئنًا إلى صديقه الجديد بوشا الذي استقبله بترحاب كبير، وصارحه بأنه مغتبط لوفائه العظيم لزوجته الراحلة مثله. ونادى على ابنته، فأقبلت.. أقبلت "روان".. كأنما أقبلت معها رائعات الحياة جميعها، وتجمعت في وجهها الرائق الصافي الساحر.

كالأبله فغر فاه، لا يصدق أن هناك من بني البشر من هي بمثل ذلك الجمال الفتان.

مدت يدها مرحبة بالضيف فارتبك عقله، إذ سلب بريق عينيها النجلاوين ما بقي عنده من إدراك. ومست أصابعها يده فمست فؤاده.. ووجدانه.. حتى النخاع. وهتف في نفسه: "يا إلهي.. من أي سماء أتيت..؟ ومن أي بطن ولدت..؟. أمثلك يمشي على الأرض مثلنا ويلوك الشعير..؟".

رجع عيزرا إلى مسكنه إنسانًا آخر، يشعر في قرارة نفسه بأن ابنة بوشا دحرته، وانتصرت على ذكرى الراحلة. فها هي قدماه تقودانه رغمًا عنه إلى "روان". وها هو

القلب يدق كلما ذكرها في خياله، أو جلس قبالتها. إن شرايينه عادت تنبض بالعشق من جديد. في تحنان وانتعاش، حتى الحياة كلها من حوله، تبدلت فيها الصور.. وتجملت.

زار بوشا ذات مساء وكانت روان بمفردها.. دعته ابنة السابعة عشر للدخول فلبى، وجلس إليها كالتلميذ الغبي البليد الذي يجهل النطق والكلام.

تمنى لحظتئذ أن يصارحها بحبه. أن يضمها بين أحضانه ويدفن رأسه بين شعرها المنسدل كأستار الليل. أن يلثم أناملها وراحة يدها، ويتأمل هذا الوجه الساحر عن قرب.

استجمع جرأته وسألها هل تقبل به زوجًا، ضحكت كطفلة بريئة ملأى أنوثة، وقالت له: إن هذا الأمر بيد والدها لا بيدها، فصارح بوشا برغبته، ولحظتها.. ضحك العجوز ساخرًا، وسأله كم دينارًا يملك مهرًا لها؟

فأجابه عيزرا بأنه يدخر ألف دينار، ولديه سكنًا وعملاً حكوميًا، وراتبه يفي بمتطلبات الحياة الزوجية.

قهقه اليهودي الذي يدرك مدى هيامه بابنته، وأخبره أن مهر ابنته الوحيدة عشرة آلاف لا تنقص دينارًا واحدًا.

وجم عيزرا العاشق الموله، وغادر المنزل مقهورًا، تسبح روان بدمه وتسيطر على عقله، وفؤاده، وأعصابه. ومرت به ليال طويلة مريرة وهو يفكر ما العمل؟ وصدق حدس بوشا عندما زاره عيزرا عارضًا ألفي دينار مهرًا لروان.

سأل العجوز بخبث عن مصدر الألف الثانية فقال إنه تقدم إلى العمل بطلب "سلفه" تخصم من راتبه. ولما رفض طلبه للمرة الثانية، عرض عيزرا أن يستكتبه صكًا بألف دينار أخرى. لكن بوشا وافق أن تكون قيمة الصك ثمانية آلاف دينار.. على شرط.

سأله عيزرا عن شرطه الأخير، فأحكم اليهودي الخبير خنقة الشد، عندما عرض عليه مساعدته في إقناع من يعرفهم من اليهود للهجرة إلى إسرائيل. فإن تحديد موعد زواجهما مرهون بمدى ما يبذله من جهد في هذا المجال.

وافق عيزرا على الفور طالما أزيلت عثرة المهر، أما مسألة هجرة اليهود فذاك أمر واجب ولا يعد تضحية في نظره. فالدولة اليهودية كانت عبر إذاعتها العربية، تبث دعايتها ليل نهار بأحقية يهود العالم في أرض الميعاد. وهو كيهودي.. تمنى أن يسافر لإسرائيل ليراها فقط قبل أن يقرر. فالدعاية المضادة في الإعلام العربي، كانت تصف إسرائيل أنها دولة الإرهاب والمذابح، وتصور الحياة بها كأنها الجحيم، وتنشر الكثير من الحوادث المؤسفة، تفضح إدعاءات إسرائيل التي واجهت كل ذلك بالرفض والاستنكار، متهمة الإعلام العربي بأنه يكذب، ويدعي، ويتحايل، لخداع اليهود، والكذب عليهم ليحجموا عن الهجرة.

كانت الحرب الدعائية دائمًا في حالة غليان لا يتوقف. وكان إيمان عيزرا ناجي زلخا بقضية الوطن: إسرائيل، مزعزعًا. فهو ما عرف سوى العراق وطنًا.. آمنًا، يضم عشرات الآلاف من اليهود على أرضه، وينعمون جميعًا بالحرية وبالأمن. وتسائل: لما لا تكون إسرائيل صادقة في ما تدعيه؟ إن اليهود عاشوا على أرض فلسطين منذ آلاف السنين، ولهم حق تاريخي في فلسطين. فلماذا يحاربهم العرب؟

ثم ماذا سيخسر ليكسب روان..؟ إن مجرد "إقناع" بعض اليهود بالهجرة ليس بالأمر الصعب. فالفقراء الذين سيتكلم معهم، يحسون بالضيق لسوء أحوالهم المعيشية، وقد يرون في الهجرة مخرجًا لهم من أزمتهم. إذن.. ماذا سيخسر؟

هكذا استطاع بوشا اصطياد عميل جديد للموساد، يعمل "مجانًا" عن قناعة.. واثقًا من إخلاصه للعمل، لكي يفوز بابنته الرائعة بعد ذلك..!!.

في تلك الفترة التي تأهب فيها عيزرا للعمل.. حدث انقلاب كبير على الساحة العربية. إذ وقع العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، واحتلت إسرائيل شبه جزيرة سيناء، وبتدخل الولايات المتحدة انسحبت الجيوش المعتدية.

كان احتلال سيناء أمرًا مدهشًا لليهود العرب، فقد ارتابوا كثيرًا من قبل في قدرة الجيش الإسرائيلي على مواجهة الجيوش العربية، وتراجعوا عن فكرة الهجرة، ثقة في القوة الرادعة العربية.

أما وقد حدث العدوان واحتلال سيناء ثم الانسحاب، فقد اهتزت الصورة.. واعتقد أكثر اليهود فهمًا الأمور السياسة، أن العرب فوجئوا بالقوة العسكرية الإسرائيلية.. وهم بلا شك يستعدون، ويتحينون الفرصة المناسبة لضرب إسرائيل والقضاء عليها بعدما أضحت خطرًا على المنطقة كلها.

هذا الرأي انتشر كانتشار النار في الهشيم بين اليهود العرب في سائر الأقطار. وبدلاً من الثقة في القدرة اليهودية، انعكس الأمر، وتحول احتلال سيناء إلى نكسة مدمرة لاستراتيجية إسرائيل السياسية والعسكرية.. فتراجع أكثر اليهود عن رأيهم، وبالتالي.. أخفقت محاولات كثيرة للتأثير على اليهود وحثهم على الهجرة.

لهذا تعمدت المخابرات الإسرائيلية إذاعة حديث "إبراهام" دار بطل عملية "توشيا"، ذلك أنّه إبان العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، تمكن ضابط المخابرات الإسرائيلي إبراهام دار من تهريب ٦٥ يهوديًا مصريًا عبر بور سعيد إلى إسرائيل، بمساعدة يهود محليين، وسجلت له الإذاعة حديثًا وصف فيه مغامرات عملية "توشيا" البطولية، وهي أجرأ عملية قام بها... وكان المقصود بإذاعة حديثه عبر الراديو لعدة أيام مغزى مخابراتي.

واكب ذلك مقتل تاجر يهودي عراقي بيد لصين اقتحما داره. وأشاع عملاء الموساد أن العملية مدبرة لبث الرعب في قلوب اليهود.

انتهز بوشا حادث مقتل اليهودي لإثارة حمية عيزرا.. وتهيئة المناخ النفسي لإيقاظ حماسته. فانفعل عيزرا بغريزته كيهودي، وأخلص كثيرًا في عمله.

وإن هي إلا شهور قليلة حتى كان رصيده اثنتي عشرة أسرة يهودية، تمكن من إقناعها بالهرب إلى إيران.. ومنها إلى إسرائيل. ورحلة الهرب كثيرًا ما كانت تبدأ من الشمال الشرقي، حيث يقوم فيها بعض العملاء من الأكراد بدور رئيسي وفعال. إذ يقودون الهاربين عبر الجبال والسهول والممرات الوعرة إلى الحدود الإيرانية.. حيث يتعهدهم حرس الحدود وضباط الموساد.

هكذا ابتدأ عيزرا العمل، يداخله إحساس بالبطولة، والفخر بقدراته الخداعية التي مكنته من مؤازرة إسرائيل. فاستهوته اللعبة الخطرة المصيرية.. وقطع فيها شوطًا منحه الثقة في ألا يتراجع. لذلك كافأه بوشا بحق عندما زوجه روان.

أيام جميلة وعيزرا في العسل يمتص النعيم مصًّا.. ويخوض بحور اللذاذات سباحة وغرقًا بين أحضان عروسه. ولم تكد تمر فترة وجيزة حتى مات بوشا.. فمات بالتالي الدين الذي صكه...

وأثناء تشييع جنازته، اقترب منه رجل لا يعرفه.. همس له ببضع كلمات واختفى. وعاد إلى منزله تشوبه ملامح القلق. وسألته روان عما بداخله فصارحها بأمر أبيها ومعاونته له في تهريب اليهود. "إذن أنت بطل".. هكذا كان تعليقها وهي تعانقه، وتفجر القنبلة التي كان يمسكها بيده عندما قالت: كنت أعرف.

لقد اختصرت الطريق عليه.. وطالما هو بطل في نظرها فكل شيء يهون.

وفي مقهى قاسم جاءه الرجل الغامض. منحه خمسمائة دينار وطلب منه أن يتلاقيا بعد أسبوع في ذات المكان والساعة.

إنه أحد عملاء الموساد في العراق. مهمته تدريب الجواسيس الجدد، وحصد المعلومات منهم وتجميعها، والربط بين الشبكات.

توالت لقاءاتهما بأماكن مختلفة ببغداد، وأخضع عيزرا لدورات في فنون التجسس. وفي غضون مرحلة قصيرة تعلم الكثير.. واقبل على مهمته في شغف بالغ وقد تخرج في مدرسة الموساد جاسوسًا مدربًا ملمًّا بهذا العالم المثير العجيب.. عالم الجاسوسية.

لقد انصب عمل عيزرا على تكثيف جهوده لتهريب يهود العراق. وفي خلال عامين تمكن من تهريب أكثر من أربعمائة منهم إلى عبادان عبر شط العرب. وسلك في ذلك أساليب شيطانية أنجحت مهمته، برغم التواجد الأمني المشدَّد، فأصبح بذلك أمهر جواسيس الموساد في بغداد.

وبينما عيزرا يتقدم في عمله بنجاح، كانت روان مشغولة بأمر فشلها في الإنجاب، يملؤها الحنين إلى طفل يضيء حياتها.

وبرغم صمت زوجها وعدم اهتمامه بالأمر، إلا أنها سعت للأطباء واهتمت بالوصفات الشعبية دون فائدة. فأكلها الهم ومزقها الأسى، وحدثتها نفسها أن تفاتح زوجها برغبتها في الهرب معًا لإسرائيل، حيث تداولت الأقاويل إمكان علاجها هناك.

لقد ظلت كثيرًا تقلب هذه الفكرة في رأسها إلى أن تشجعت وعرضت الفكرة عليه، فثار رافضًا في البداية ثم عاد وطلب منها الانتظار حتى "يأذنوا" له بالهرب. وانتهز الفرصة وتكلم مع مندوب الاتصال الذي يلتقي به في مواعيد محددة. فطلب منه مهلة ليعرض الأمر على رؤوسائه في الموساد.

بالطبع لم يكن من السهل على الموساد أن تسحب عيزرا بعدما أتقن عملـه وأجـاده بحرفية عظيمة.. فعملية سحب العملاء تخضع لحسابات معقدة أهمها أن تصل درجة ثقة العميل في نفسه إلى حد الغرور.. مما قد يوقعه في خطأ فادح يكشفه، نتيجة الثقة الزائدة في قدراته، والاستخفاف بقدرات رجـال الأمن فـي القطر الـذي زرع فيه. لم يصل عيزرا إلى حد الخوف عليه بعد. فالمنتظر منه لا زال آتٍ بالطريق.. ولا بد من استغلاله و"استهلاكه" قبل الإذن له بالتوقف، أو السماح له بالمغادرة.

جاءه الرد كما كان متوقعًا.. فحزن كثيرًا لأجل روان، وتملكه الزهو عندما أُعلم بأنه منح رتبة عسكرية في الجيش الإسرائيلي، تضمن لـه ولأسرته معاشًا محترمًا عندما ينتهي من مهمته ويفر إلى إسرائيل. وأخضع لدورة تدريبية جديدة لتعلم كيفية استعمال اللاسلكي في الإرسال بعدما سلموه جهازًا لاسلكيًّا متطورًا.. لا يمكن رصده بأجهزة تتبع الذبذبات التي لم تكن موجودة أصلاً بالعراق.

بذلك.. وثق عيزرا في أهمية دوره لخدمة مصالح إسرائيل في العراق، فطور كثيرًا من مهامه التجسسية لتشمل جمع التقارير الاقتصادية المهمة الت يحصل عليها من عمله في وزارة التجارة.

أيضًا نجح في تنمية علاقاته ببعض المسؤولين. وطلب الإذن بتجنيد من يراه منهم فلم يأذنوا له. وبقدر ذهول مرؤوسيه في الموساد لمهارته في البث اللاسلكي.. أذهلهم أكثر تغلغله داخل فئات المجتمع وإرسال تقارير غاية في الأهمية عن الاقتصاد والزراعة. وأصبحت المعلومات التي يبثها إلى تل أبيب تقيم في الفئة (أ) التي تستحق عن جدارة مكافآت مالية ضخمة أتخمت بها جيوبه وبدلت نظام حياته وإنفاقه.

أشفق عيزرا على حال روان التي انزوت بين همومها بسبب حنينها إلى إنجاب طفل. فعرض عليها من باب "التسلية" مشاركته.. أيضًا.. طمعًا في المزيد من

أموال الموساد. وكان المطلوب منها أن تبدي بشاشة لموظف بوزارة الخارجية صادقه أخيرًا.

بدت المهمة صعبة في البداية، فهي لم تعرف بعد حدود تلك البشاشة، إذ ترك لها تقدير الموقف بنفسها.. وهذا يعَدّ إذنًا لها بأن تمشي في الطريق إلى نهايته..

حاولت روان ببساطة الأنثى المثيرة أن تُعِدّ أمرًا.. وبسهولة شديدة أوقعت الموظف المسيحي في حبائلها.. فأوهمته بأنها تحبه، وبأنها أصبحت لا تفكر بالهرب إلى إسرائيل من أجل أن تظل إلى جانبه.

انزعج "كامل" عند سماع اسم "إسرائيل"، ولكي تذهب بعقله وتشل تفكيره، سلّمت له نفسها فانزلق بين أحضانها يحسو الخمر نشوانًا.. لا ينفك يطلب المزيد والمزيد. وهل امرأة صغيرة رائعة مثلها يشبع منها رجل..؟ أو يفيق من سكره..؟

ففي غيبة الإدراك أعلنها كامل صريحة بأنه معها في أي مكان.. ولو في إسرائيل. ولما تأكدت من إتمام سيطرتها عليه.. طلبت منه الثمن.. ثمن دخولهما إسرائيل.. فتدفقت الوثائق والتقارير من أرشيف الوزارة السري. وكلما سلمها عشرات الوثائق الخطيرة ادعت بسخرية تفاهتها.

ومرت بهما الأيام وقل حديثها عن الحب والهرب.. إذ شغل الحديث عن مغامراته لجلب الوثائق كل المساحة بينهما. لقد أدرك كامل بأنه وقع لأذنيه في بئر الخيانة.. فانغمس غصبًا عنه لا يستطيع التراجع.. أو الخلاص.

واستلذت روان اللعبة.. والمغامرة، والقتل بسلاح أنوثتها، إنها لعبة مثيرة ترضي غرورها.. وتبعدها عن التفكير في الإنجاب. فانساقت في الطريق وقد استهواها العمل واستغرقها.

أما عيزرا فلم يضِع وقتًا طويلاً في الثناء على شريكته الجديدة. إذ كلفها باصطياد ملازم أول بمطار بغداد مغرور ببزته الرسمية وبالسيارة الحكومية التي تذهب وتجيئ به كل يوم.

ولأنه يسكن بالمنزل المواجه.. كان الأمر هينًا جدًا. عندما أشهرت روان أسلحتها الأنوثية الفتاكة في وجهه، فاستسلم.. وتقرب إلى عيزرا الذي هيأ له المناخ الصحي للسقوط.. فسقط الشاب الصغير بلا تفكير.. وتدفقت من خلاله المعلومات الأكثر سرية عن المطار، وطائرات الشحن المحملة بالمعدات العسكرية، التي تفرغها بداخل حظائر خاصة تخضع لإجراءات أمنية صعبة... وعن أعداد الخبراء السوفيات والتشيك الذين يتوافدون ويغادرون... والرحلات السرية لطائرة الرئاسة...

معلومات أشد سخونة كان يبثها عيزرا فتثير شهية الإسرائيليين.. وتدهشهم جرأة عميلهم الذي امتلك قلبًا من فولاذ، لا يقهره خوف.. أو يرتجف رعبًا إذا ما قرأ بالصحف العراقية عن سقوط جواسيس للموساد أو إعدامهم.

كانت التحذيرات تجيئه آمرة إياه بألا يقرأ تلك الأخبار "الكاذبة" التي يروجها العراقيون. لكنه لم يكن يأبه لتلك المخاوف، بل كان يقرأ ليستفيد من الأخطاء التي أدت لسقوط الجواسيس، فيتجنبها؛ وتتضاعف بذلك خبراته.. وثروته.. بفضل حسه الأمني.. وبالمعلومات الثمينة التي يتحصل عليها بفضل جسد زوجته... خاصة وقد أخبرهم بأمر انضمامها إلى العمل.. وقدراتها الفائقة على السيطرة وتجنيد عملاء جدد. فكان ردهم بأنهم يقدرون ذلك.. وأن روان قد تم منحها هي الأخرى رتبة ملازم أول في جيش الدفاع الإسرائيلي.. تقديرًا لتعاونها المشرف..!!

ولأسباب أمنية بحتة.. اشترى عيزرا منزلاً جديدًا من طبقة واحدة في حي الكاظمية.. كان للمنزل حديقة خلفية ذات أشجار كثيفة.. وباب يؤدي إلى منطقة

مهجورة مليئة بالأحراش. وبواسطة تلسكوب مكبر كان "يمسح" المنطقة المحيطة المؤدية إلى منزله قبل خروجه.. أو قبل زيارة عميل مهم.

هذا المنزل تحول إلى غرفة عمليات خطيرة.. تتم فيها عملية السيطرة على من يراد تجنيدهم.

خلال ثلاث سنوات من انخراط روان في الجاسوسية، استطاعت وحدها تجنيد ثلاثة عشر موظفًا عامًّا في مواقع مهمة. أربعة منهم ضباط برتب مختلفة في الجيش العراقي.. وضابط بأمن المطار.. وستة آخرون يشغلون مناصب إدارية بالوزارات المختلفة. جميعهم سقطوا في قبضة روان بفضل لغة الجسد والإثارة. وتدفقت بواسطتهم أسرار العراق أولاً بأول إلى إسرائيل.

وحدث أن نصبت روان شباكها حول طبيب بالجيش يحمل رتبة نقيب.. وكانت خطة استدراجه بواسطة أحد العملاء لتوقيع الكشف على زوجها، إذ تهيأت الحية الرقطاء وبدت كأن الفتنة كلها حلت بذاك الجسد.. فطابت ثمارها شوقًا لقاطفها.

ولما جاء الطبيب الأعزب تسمر مكانه.. وبدا كطفل جائع تتلوى أعضاؤه وترتجف.. فثوبها العريان لم يخف من مفاتنها أكثر مما كشف...

وكمثل سابقيه.. فقد الطبيب مقاومته وغرق فيها عشقًا وذوبانًا.. وشوقًا إلى الذروة.. فلم تكن تمنحه إلا بمقدار.. حتى تجيء اللحظة التي يفقد فيها العقل تمامًا، فتبدأ معه المبادلة.. فكل شيء له مقابل.. وثمن.

ولما جاءت لحظة المكاشفة.. والسقوط.. لم يصدق النقيب الطبيب حسين علي عبد الله أنه بين أحضان جاسوسة محترفة، في وكر للجواسيس. فانتفض بين أحضانها وقد غاصت نشوته وقام فزعًا يرتدي ملابسه ويتوعدها بمصير مظلم.

هددته بتسجيلاته الجنسية معها فرد عليها بأنه رجل ولا عار عليه فهي تؤكد رجولته. هددته ثانية بما تفوه به في السياسة والعسكرية وأن مستقبله بيدها. فبصق عليها قائلاً إنهم سيكافئونه بالترقية لأنه سلمهم جاسوسة إسرائيلية. وهجم عليها محاولا تكبيلها واقتيادها للسلطات، لكنه فوجئ بعيزرا أمامه يشهر مسدسه.

أحس بخطأه الكبير كرجل عسكري، فقد كان يجب عليه مسايرتها حتى يخرج من بيت الأفاعي. لكنه "كان يعتقد" أنهما بمفردهما.

لم يترك عيزرا فرصة للتعامل معه. بل انطلقت الرصاصات إلى رأسه، وتناثرت شظايا عظام جمجمته على جدران الغرفة.

صرخت روان في هلع.. وكتمت صراخها عندما بحلق فيها غاضبًا.. بعينين ترسلان نظرات كاللهيب، وتكورت ترتجف في أنين خافت..

أخذ عيزرا يسبها لأنها عجزت عن السيطرة عليه كسابقيه.. وتسرعت كثيرًا في مكاشفته ثقة في جمالها.

وبخوف يشع رعبًا دافعت عن نفسها، مؤكدة له بأنها طوعته جديًا لكنه "وطني مخلص أكثر من اللازم" وظلا طوال الليل يحفران قبره في الحديقة الخلفية.. ثم أهالا التراب فوق الجثة.. وانكمشت روان يفتك بها الهلع.. فهي تنام بين أحضان قاتل.. وعلى بعد خطوة من فراشها.. يرقد قتيل.

.. حلت الكآبة بالحية تفتت عقلها. لكن الثعبان السام لم يكن ليستسلم.. فالمجد ينتظره في إسرائيل.. وهو الآن يصنع تاريخه..

ومضى الجاسوس الداهية في طريقه قدمًا تحفه الثقة ويملؤه الغرور. تسع سنوات كان لا يكل ولا يخاف. وأعوانه منتشرون في كل مؤسسات العراق الحيوية..

يمدونه بما يذهل الإسرائيليين من معلومات عن أحشاء العراق، وشرايين الحياة المختلفة به.

وفي رسالة التكليف التي تلقاها بواسطة الراديو.. كان الأمر مختلفًا عليه. فقد كان المطلوب تجنيد طيار عسكري عراقي - بأي ثمن - يقبل بطائرته الحربية ميغ ٢١ إلى إسرائيل.

بدأ عيزرا رحلة البحث عن طيار خائن.. ومن خلال الخونة العسكريين أعضاء شبكته، تعرف عيزرا، بشكل يبدو عفويًا، بالنقيب الطيّار "شاكر محمود يوسف" المولود في "محلة حسن جديد باشا" عام ١٩٣٦، وسبق له أن التحق بدورات تدريبية في موسكو ولندن لزيادة كفاءته كطيار للميغ ٢١ القتالية الاعتراضية التي ترعب إسرائيل.

التقى به عيزرا وزوجته في إحدى الحفلات.. وحاولت روان بأسلحتها الأنثوية الطاغية أن تلفت انتباهه لكنه تجاهلها.. فاغتاظت وتملكها الضيق وشكّت في كونها أنثى لا ترد. حتى إذا ما استجمعت نفسها بعدها بأيام، أعلمت عيزرا بقرار اعتزالها مهمة اصطياد عراقيين جدد.

لكنه فاجأها ذات مساء حينما جاء وبرفقته شاكر. وأسرّ لها بأن الطيار الشاب تجاهلها في الحفل لوجود زوجته معه. وأن "الوسيط" استدرج شاكر ورأى منه الرغبة في التعرف إليها.. فتظاهر بمصاحبته وبدأت الاتصالات بينهما.

وما كادت روان تسترجع من جديد ثقتها في جاذبيتها وسحرها.. وتوشك أن تسيطر على أعصاب الطيار الولهان، حتى سافر فجأة إلى أميركا للحصول على دورة في "قيادة التشكيل" في تكساس.

هناك تولت المخابرات المركزية أمره، فدفعت بحية أخرى في طريقه، جيء بها خصيصًا على وجه السرعة من النمسا حيث تعمل كممرضة بالمستشفى الأميركي

بفيينا. إنها "كروثرهلكر".. فاتنة الحسن طاغية الجمال.. التي عملت كمشرفة في نادي الطيارين الشرقيين في قاعدة التدريب الجوية بتكساس.. ونصبت شباكها حول شاكر يوسف فوقع في حبائلها لا حول له ولا قوة. فقد كان يريدها عشيقة موقتة بأميركا، بينما كانت تريده زوجًا لتكتمل الخطة.. رفض رغبتها بالطبع لأنه متزوج ويحب زوجته.. لكنها لم تيأس.. وظلت تحاول.. مرات ومرات إلى أن فشلت.. ووضح جيدًا جهل الموساد والـ C.I.A فالعسكريون العرب محظور عليهم الزواج بأجنبيات.

لكن تملكت الإسرائيليين والأميركيّين رغبة عارمة في السيطرة عليه وتجنيده.. ليهديهم سر أسرار الطائرة السوفياتية اللغز.. ولما عاد إلى بغداد دون أن يحقق حلمهم.. طارت كروثر خلفه ونزلت بفندق بغداد الدولي واتصلت به.

ولأنها حضرت لأجله، تحرّج كشرقي، واستأجر لها شقة مفروشة بمنطقة الكرادة الشرقية تطل على نهر دجلة. وأخذ يتردد عليها خفية، محاولاً إقناعها بالعودة لأنه متزوج ويعول طفلاً فلم تنصت إليه.

وعندما حدثته عن "منظمة السلام العالمي" المهتمة بنشر السلام حول العالم، صرخ فيها وهددها بأن تسافر فورا خارج العراق، وإلا فهو مضطر لإبلاغ السلطات بسعيها لتجنيده لصالح جهات أجنبية.

عند ذلك.. ولأنها تحمل تصريحًا بالقتل، رأت أنه لا بد من تصفيته في أسرع وقت خشية افتضاح الأمر. وصدرت الأوامر لعيزرا ناجي زلخا بالتخلص من النقيب طيار شاكر يوسف.

وهنا قد يتساءل البعض:

ـ ما علاقة عيزرا جاسوس الموساد بكروثر هلكر جاسوسة الـ C.I.A؟

الإجابة بسيطة جدًا.. فالموساد والـ C.I.A ترتبطان معًا بعلاقات وثيقة ترسمها المصالح والنوايا المشتركة. وسواء جند طيار عربي بواسطة الموساد أو بواسطة الـC.I.A. فسوف يهرب بطائرته إلى إسرائيل... ليفحصها الأميركيّون.

من هنا.. لجأت الـ C.I.A لمعاونة الموساد في تصفية شاكر بواسطة عملائها ببغداد. وبثت الموساد أمرًا لعيزرا بالاتصال بكروثر التي تجيد العربية. وتم الاتفاق بينهما على الخطة..

وأثناء زيارة النقيب شاكر الأخيرة لكروثر بالشقة المفروشة، عمد كما في المرات السابقة إلى ترك سيارته على بعد شارعين تحسبًا لأي طارئ. واحتدم النقاش بينهما فهددته بأفلام وصور جنسية أخذت لهما في أميركا فلم يهتم.

وفي آخر محاولة لإبقائه حيًا، عرضت عليه مليون دولار ثمنًا لطائرة ميغ ٢١ يفر بها لإسرائيل.. فلطمها على وجهها لطمة قوية انبثق لها الدم من فمها. وقبل أن يخرج من الحجرة ثائرًا لإبلاغ السلطات، فاجأه عيزرا بطلقات الكاتم للصوت، وسقط شاكر في الحال قبلما يتمكن من استعمال مسدسه.

وبينما كروثر تعد حقيبتها للحاق بالطائرة المتجهة إلى لندن، انشغل عيزرا بإزالة الآثار والبصمات. وجر جثة الطيار لأسفل السرير ملفوفة ببطانية. ثم فتح أجهزة التكييف لسحب رائحة جثة الطيار القتيل أولاً بأول، فتطول بذلك مدة اختفائه، مما يعطي الفرصة الكافية لهروب القتلة قبل اكتشاف الجريمة... وغادر الشقة.

اكتُشفت الجثة في ٦ تمّوز - يوليو ١٩٦٥ بعد وقوع الجريمة بأسبوع. كان عيزرا في ذلك الوقت يمضي أسوأ أيام حياته على الإطلاق. إذ نشرت الصحف العراقية نبأ مقتل كروثر هلكر بأحد فنادق لندن في ظروف غامضة، بعد يومين من مغادرتها

لبغداد. وصرح مسؤول أمني أن الجثة وجدت ممزقة، وبها ثلاثون طعنة بعدد سنين عمرها. هكذا تخلصت الـ C.I.A من كروثر لإخفاء معالم الجريمة إلى الأبد. فماذا عنه هو؟.

دارت الدنيا بعيزرا وضاقت به على وسعها. وصوّر له خياله أن الموساد سوف تقتله أيضًا سترًا للجريمة.. وما كان يعلم أن أسلوب قتل العملاء بعد انتهاء مهامهم تستخدمه الـC.I.A فقط. أما الموساد فالجواسيس لديها بمثابة أبطال عظماء تفخر بهم وتخلدهم. لم يكن يعلم ذلك عندما عطَّل جهاز اللاسلكي. واختبأ بإحدى الشقق لا يخرج هو أو روان إلا للضرورة.

وبعد احتفالات رأس السنة.. وما إن هلت أيام كانون الثاني - يناير ١٩٦٦ الأولى، حتى انكشف أمر شبكته ضمن الشبكات التسع.. وجرى البحث عنه وتعقب آثاره في كل العراق.

كل يجهل أمر البحث عنه من قبل جهاز المخابرات ـ المكتب الثاني، فعلاقته بأعوانه كانت منقطعة طوال تلك الشهور الخمسة.

ولأن المجرم دائمًا يحوم حول مسرح جريمته، تصادف أن توجه وروان لمنزل الكاظمية حيث يخبئ أجهزة التجسس. فاطمأن على وجودها، وفي المساء قاد سيارته وحده إلى منزل بوشا القديم. فنام مرهقًا حتى الفجر. وأسرع بالعودة إلى روان مرة أخرى وما كان يدري بما ينتظره.

ففي غبش الفجر اقتحمت المنزل قوات الأمن، وكانت روان بمفردها كالشبح.. متكورة كجنين ببطن أمه.. فلم تبد أية دهشة أو تصعق للمفاجأة.

سألوها عن عيزرا قالت بهدوء: "لن يتأخر"..

واعترفت من تلقاء نفسها بأنها جاسوسة إسرائيلية، استطاعت أن تجند جيشًا من اليهود العراقيّين وسائر الملل بالغواية والجنس. وأرشدت عن مقبرة الضابط الطبيب بالحديقة الخلفية. وقادتهم إلى مخبأ سري بداخله جهاز اللاسلكي المعطل وكتاب الشيفرة وعدة كاميرات سرية، وأفلام ووثائق لم تبعث بعد للموساد.

كانت سيارات الأمن قد اختفت من المكان الذي بدا طبيعيًا. واختبأ عدة ضباط بداخل المنزل ينتظرون الثعبان الكبير. وما أن جاء وخطا خطوات قليلة إلى الداخل حتى هوجم وكبّل في الحال.. واقتيد إلى مكان سري للاستجواب. فاعترف اعترافات تفصيلية بنشاطه لمدة عشر سنوات لصالح الموساد. وسدت اعترافاته ثغرات عديدة كانت تحول دون الوصول لبقية الشبكات.

وبينما هو بالقفص، بانتظار سماع الحكم بإعدامه وروان شنقًا مع تسعة آخرين، وبالرصاص لخمسة عسكريين، نظرت إليه روان وقد أكلها الهزال وبرزت عظام وجهها، وقالت له إنها تشعر بالأسف على كل شيء.. لكنها سعيدة جدًا لعدم إنجابهما أطفال يتعذبون من بعدهما طوال حياتهم[1]..

---

١ - الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص٣١٥ - ٣٢٩.

يعقوب جاسم وفروزندة وثوقي

في كانون الثاني - ينـاير ١٩٦٦ وفـي إحدى نقـاط العبـور علـى الحدود العراقيـة الإيرانية، لاحظ ضابط عراقي بعيني خبير مدقق، أن حالـة مـن الارتبـاك تعـتري أحد العابرين، فتقدم منه وسأله عن وثيقة سفره، فازداد ارتباكـه، ممـا شـجع الضـابط علـى ضرورة تفتيشه مرة ثانية بدقة. وكانت المفاجأة التـي لـم تخطـر ببالـه أبـدًا، إذ اكتشـف جيوبًا سريّة في قاع حقيبته، مليئـة بخرائط لمواقـع عسـكرية عراقيـة، وتقـارير سـرية هامة تمس الجيش والاقتصاد.

انهار الجاسوس في الحـال، وأخـذ يصيح بالفارسية بمـا معنـاه أنـه مجـرد "نـاقل" للحقيبة ولا يدري بما بها.

وفي مكتب المخـابرات العراقيـة فـي بغداد، أنكـر معرفتـه بالشـخص الـذي سـلمه الحقيبـة، وقـال إنـه اعتـاد مقابلتـه بمقهـى بشـارع هـارون الرشيد فيتسلم الحقيبـة منـه وينصـرف كل إلى حاله، دون أن يعرف من هو، أو ماذا بالحقيبة...

لم يصدقه ضباط المخابرات بالطبع في بادئ الأمر، وأمام إصـراره وتـأكيده علـى أقواله، أدخلوه غرفة خاصة في المبنى، حيث جرى تعذيبـه بقسـوة ليعترف فـأقر بأنـه يعمل لصالح المخابرات الإسرائيلية، وتنحصر وظيفته فـي الذهـاب لمقابلـة جواسيسـها في العراق لاستلام الوثائق والعبور بها إلى إيران. وتكرر هـذا الأمـر فـي بغـداد تسـع مرات إلى أن قبض عليه.

وفي محاولة أخرى لانتزاع أيّ معلومات من "فجر عبد الله"، حُبس في زنزانة انفرادية لعدة أيام بلا طعام أو شراب، وأوهموه بأن حكمًا قضائيًا سيصدر ضده خلال أيام، وسيعدم لا محالة عملاً بقانون العقوبات العراقي، الذي يعامل الجاسوس، فاعترف فجر بأنه لا يعرف سوى الاسم الأول فقط للعميل الذي سلمه الحقيبة وهو "يعقوب"، وتذكّر اسمه لأنه بينما كانا معًا ذات مرة في مقهى بشارع هارون الرشيد، أقبل أحد الأشخاص وصافحه مناديًا عليه باسمه "يعقوب".

أُخرج فجر من زنزانته الضيقة إلى أخرى انفرادية أكثر اتساعًا، وعرضوا عليه أن يساعدهم في التعرف على "يعقوب" هذا مقابل أن يصنفوه كشاهد فقط، فوافق فجر على هذا العرض السخي.

ومنذ أن أدلى فجر باسم يعقوب، كان هناك سباق محموم للتوصل إلى جاسوس إسرائيل عن طريق السجلات المدنية، التي تم مسحها بالكامل في كل العراق لحصر الاسم، والحصول على صور لكل "يعقوب" عراقي لعرضها على العميل الإسرائيلي.

آلاف الصور عرضت عليه مرة واثنين، على مدار عدة أيام، عومل خلالها معاملة حسنة، فأطعم أطايب الأطعمة وألذها، ونام نومًا مريحًا على فراش وثير.

وفي اليوم السابع للبحث في الصور، تعرف فجر على صورة يعقوب يوسف جاسم (٣٤ عامًا) الموظف بإحدى محطات الكهرباء ببغداد، فعرضوا عليه الصورة مرة أخرى بعد خلطها بصور قريبة الشبه، لكنه تعرف على الصورة نفسها، وفي الحال قامت قوة من رجال المخابرات بمهاجمة منزله وتفتيشه، فعثروا على وثيقة سفره التي تبين منها أنه سافر إلى إيران عشرات المرات. وعندما أخبرهم بأنه متزوج من إيرانية، لم يلتفتوا إليه، بل استمروا في التفتيش إلى أن ضبطوا عدة وثائق عسكرية سرية محشورة في "رجل" السرير النحاس، مربوطة بخيط رفيع يتدلى من أعلى

"القائمة" الأسطوانية، التي نسي أن يضع عليها غطاءها كالقوائم الثلاث الأخرى، فألقوا القبض عليه وعلى زوجته الإيرانية "فروزندة وثوقي".

واستمرت عملية التفتيش بدقة متناهية، بمعرفة المخابرات الفنيين، الذين اكتشفوا مخبأ سريًا في غلاف مجلد كبير عن الشاعر "معروف الرصافي" يحوي رسائل باللغة الفارسية، هي عبارة عن أوامر من ضابط الارتباط الإسرائيلي في ميناء عبدان الإيراني، يطلب منه موافاته بتقارير وأخبار عن الأسلحة السوفياتية الجديدة التي تصل إلى العراق، وكذلك عن الغواصات السوفياتية الكامنة في قاع منطقة "أم قصر" المتاخمة لحدود الكويت، وحظائر طائرات "توبولوف ــ ٢٢" الحربية المهاجمة، وعددها، والمطارات الحربية المتواجدة بها، ومعلومات تفصيلية عن الطائرة "ميغ ٢١" ومطاراتها وعدد طياريها، والخبراء السوفيات في العراق.

وفي مبنى المكتب الثاني - المخابرات - أخضع يعقوب لاستجواب مطول، فأنكر في البداية اشتراك زوجته معه في أعماله التجسسية التي اعترف بها وبعمالته للموساد، إلا أن استجواب فرونزندة على انفراد أسفر عن اعتراف صريح بدورها في شبكة زوجها، بل وأدلت بأسماء بعض أعضاء الشبكة من العراقيين قبلما يعترف بهم يعقوب.

وكان لسقوط شبكة يعقوب أثر بالغ على المخابرات الإسرائيلية، إذ خسرت بسقوطها العديد من أمهر جواسيسها في العراق.

كانت لطمة عنيفة للموساد التي لم تتصور أن في العراق رجال مخابرات أكفاء، لديهم المقدرة على مطاردة الخونة بمثل هذه البراعة، وفضح ممارسات إسرائيل والتواطؤ النظام الشاهنشاهي الإيراني معها من أجل زعزعة الأمن في العراق، بما لا يدع مجالاً للشك في أن هذا التواطؤ توجهه الولايات المتحدة الأميركية وتباركه،

للحفاظ على مصالحها في الخليج، للحد من التغلغل السوفياتي في المنطقة، خاصة بعد زيارة شاه إيران لموسكو في حزيران - يوليو ١٩٦٥، التي أزعجت الإدارة الأميركية وأربكتها.

لقد كان التوسع في المؤسسة العسكرية في المنطقة سببًا آخر، يضاف إلى الخوف الأميركي والإسرائيلي معًا، فالتوسع في المؤسسة العسكرية يعني تحديث الجيوش، إدارة، وتسليحًا، وتدريبًا، يترتب عليه توسع في الطبقة العسكرية، نظرًا لغياب المؤسسات السياسية المدنية، فحتمًا ستتحول الطبقة العسكرية إلى فئة ضاغطة سياسيًّا، وذات ثقل في اتخاذ القرارات.

هكذا كانت النوايا الأميركية تتجه بزاوية حادة لإجهاض النمو العسكري في المنطقة لعدم التداخل مع مصالحها، والعمل على تأسيس مؤسسات نيابية، وحكم مدني نزيه، يفتح الباب على مصراعيه كي تجد الكفايات المدنية مكانها في السلطة، وفي جهاز القرارات العليا، وإلا فستلقى المنطقة، مع هذا النمو العسكري الحديث، سلسلة من المغامرات والاختبارات المرة، خاصة إذا لم تكن هناك وقاية من عمليات التلقيح السياسي، وزرع روح الاحتراف العسكري وشرفية المهمة العسكرية.

منذ الانقلاب العسكري الذي أطاح بالملكية في العراق في ١٤ تمّوز ـ يوليو ١٩٥٨، والعسكريون يعتلون مقعد الرئاسة، حيث توالت الانقلابات العسكرية، وظهرت على الساحة وجوه عسكرية لم تلتزم بخط سياسي عام، أو استراتيجية مفهومة، مما أقلق الولايات المتحدة الأميركية التي تحتفظ بوجود عسكري في الخليج العربي منذ عام ١٩٤٩، حماية لمصالحها في البحرين والكويت والسعودية، واعتبار الخليج العربي قاعدة شمالية لأسطولها في المحيط الهندي.

وواكب تضاؤل حجم الوجود العسكري البريطاني في المنطقة، تزايد عسكري بحري سوفياتي في المحيط الهندي، مما يستلزم على الولايات المتحدة أن تحافظ على الوجود العسكري الغربي في المنطقة، ذلك أن نصف النفط المستهلك في غرب أوروبا مصدره الخليج العربي. وتعتمد القوات الأميركية في جنوب شرق آسيا، وقوات حلف الأطلسي على بترول الخليج.

من هنا، فالسيطرة الأميركية على الخليج العربي أمر حتمي لتنامي مصالحها به، خوفًا من وقوعه تحت سيطرة قوى أخرى مناوئة للغرب، قد تهز ميزان المدفوعات الأوروبي الغربي هزة كبيرة.

من جهة أخرى، كان الاتحاد السوفياتي يسعى إلى السيطرة على منابع الطاقة، ومنتجاتها الرئيسية بالنسبة لأوروبا الشرقية، خشية استقلالها اقتصاديًّا عن الكرملين، وكانت الإمدادات البترولية هي البعد الرئيسي من أبعاد الهيمنة السوفياتية على دول "الكوميكون" أي السوق الاقتصادية لأوروبا الشيوعية.. فحصول السوفيات إذن على دور مؤثر في منطقة الخليج العربي، يعني سيطرتهم على أسواق البترول في أوروبا الشرقية، وبالتالي ضمان ولاء هذه الدول لها.

أدى الصراع بين الدولتين العملاقتين في المنطقة، إلى التنافس الشديد في التواجد الفعلي على أرض الواقع، عسكريًا أو سياسيًا، فأغرق السوفيات العراق بالسلاح المتقدم، وملأ الخبراء الروس مدن العراق وشوارعها في تظاهرة شبه استعراضية، بل وتواجدت الغواصات السوفياتية بشكل دائم في المنطقة، وأصبحت إحدى معالم ميناء أم قصر العراقي الملاصق للكويت، حيث البحرية السوفياتية حقوق استخدام التسهيلات المتوافرة هناك.

هذا الصراع المحموم على المصالح، تسبب في جعل منطقة الخليج كقنبلة موقوتة، تهدد بالانفجار، نظرًا لوجود نزاع بين إيران والعراق على ترسيم الحدود بينهما في شط العرب، مما دفع إيران إلى تأليب الأكراد على بغداد، فلجأ حكام العراق إلى التقارب مع الأحزاب المعارضة في إيران، ومع الدول العربية المطلة على الخليج، وتشكيل لوبي عربي ضد إيران.

وكان هناك أيضًا نزاع حول تسمية الخليج، فإيران تسميه "الخليج الفارسي" والعرب يطلقون عليه إسم "الخليج العربي".

لذلك.. نجد أن إسرائيل منذ زرعت في المنطقة العربية، تسعى لمراقبة النمو المضطرد للجيش العراقي، الذي يسلحه السوفيات بأحدث ما في ترساناتهم العسكرية، وفتحت إيران أبوابها على مصراعيها لضباط الموساد، بل وسمحت لهم بالعمل بحرية ضد العراق انطلاقًا من أراضيها.

لقد كانت أيضًا، كإسرائيل، تخشى من التسليح العراقي، وحكم بغداد العسكري الذي قد يتعملق ويفرد ذراعيه باتجاه البلدين "إيران وإسرائيل". لذلك فقد كانت العمليات الجاسوسية الإسرائيلية في العراق، خير دليل على مدى الخوف من تنامي القوة، ويقظة روح الجهاد لدى جيش العراق وحكامه.

فمنذ ترعرع يعقوب يوسف جاسم، كانت تراوده أحلام العظمة، وهو يعد أقرانه دائمًا بأنه سيصبح ذا شأن عظيم في يوم من الأيام. لكنه تعثر في الدراسة وحصل على الشهادة الإعدادية بشق الأنفس، وبرغم ذلك لم تفارقه أحلامه وهواجسه التي سيطرت على حيز كبير من عقله ومسامراته. وبعد ما استقر به المقام بمحطة كهرباء بغداد، استشعر تفاهته، وغامت حوله الرؤى، فالواقع الذي يعيشه لا ينبئ أبدًا بضربة حظ قد تقتلع عذاباته، أو تصعد به إلى سفوح الوجاهة والعظمة.

لذلك استكان يائسًا مستسلمًا، نافرًا من واقعه ومن أحلامه، مودعًا وإلى الأبد مجدًا بناه في الخيال.

ذات يوم من أيام أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٣، حزم حقيبته وعبر الحدود إلى إيران لقضاء أسبوعين على شواطئ بحر قزوين. فهي منطقة تتميز بمناظرها الطبيعية الخلابة، التي تمتد من جبال "البورز" إلى البحر، وتسقط أمطارها صيفًا لتجعل الطقس نديًّا رائعًا، حيث شواطئ "أستارا" و "رامر" وموانئ "بندر بهلوي" و "بابلر" و "توشهر"، فتبدو الأجازة بهذه المنطقة كأنها رحلة إلى كوكب آخر، يتسق فيه لون الماء وخضرة الزروع على درجاتها، فتشكل قطعة فسيفساء جمعت أبهى مظاهر الجمال والرونق.

وحينما وصل يعقوب إلى شاطئ رامر، أذهله جمال الفاتنات يرتدين البكيني، ويمرحن على الشاطئ في دلال.. فقبع صامتًا يتأمل ويغرز سهام رغباته في أجسادهن، فتعتريه نوبات من أحلامه السابقة، لكنه سرعان ما يطردها شر طردة.

تحت إحدى المظلات استغرقه تفكير عميق، نأى به عن بانوراما الحسن التي أمامه، حتى أفاق على من يقول له:

ـ "درود برشما، آيا شما إيراني هستيد" أي: "السلام عليكم، هل أنت إيراني؟".

ارتبك يعقوب أكثر عندما بادره الرجل ثانية:

ـ "أياشما زبان فارسي ميدانيد؟" أي "هل تعرف اللغة الفارسية؟".

أجاب يعقوب مرتبكًا:

ـ نه.. من عراقي هستم ـ "لا.. أنا عراقي. أجهل الفارسية".

انفرجت أسارير الرجل في دهشة وأردف:

ـ "هلا بك في إيران".

كانت لهجته الشامية بشوشة مرحة، وعرفه بنفسه قائلاً إنـه لبنـاني واسمه "مـازن" يقيم في طهران ويعمل بالاستيراد والتصديـر، وبعد برهـة أقبلـت سكرتيرته الإيرانيـة "زالة"، ترتدي المايوه البرتقالي، فغـاص يعقـوب فـي ارتباكـه وهـي تصافحـه مرحبـة، ودعاه مازن إلى العشاء معه بفيلته المطلة على الشاطئ من عل، تحاصرها لوحة فنيـة من الزهور والأشجار، وتنام هنيئة في حضن الجبل، الذي يبدو في الليل كشلال متدفق من الأضواء الملونة.

كانت الأمور تسير في يسر حيث استقبله مازن بشـوش الوجـه ومعـه آخـر يدعـى "رماء"، وأقبلت زالة كعروس من السماء، بصحبتهـا إيرانيـة أخرى تدعـى "كوكـوش" والاثنتان تتحدثان العربية بطلاقة.

وبعد العشاء دارت الكؤوس وثقلت الرؤوس، وألمح إليه مازن أن كوكوش وقعت في هـواه، وبـدا هذا واضحًا مـن نظراتهـا واهتمامهـا الزائـد بـه، وحينمـا هـم يعقـوب بالانصراف إلى الفنـدق، أصـر مـازن علـى أن يبيـت معـه، وكـانت نظـرات كوكـوش المثيرة ترجوه أن يبقى، وجلست إلى جواره تلاطفه فأذهبت بقية ما لديه من وعي، ثـم صحبته إلى حجرة علوية، وأغلقت بابها من الداخل، وشرعت في خلع ملابسـها قطعـة قطعة.

أسـقط فـي يـد الأعـزب الحـالم الثمـل، وبينمـا كـان يـنزف رجولتـه، كـانت هنـــاك كاميرات تصور وأجهزة تسجل الأحاديث السياسية، وتنقل كل شيء إلى حجـرة مـازن وضابطَي الموساد. وتكررت السهرات وحفلات الجنس فـأيقظت هواجـس يعقـوب مـن جديد، عندما عرضت عليه عميلة الموساد الانضمام إلى أسرة العاملين بشـركة مـازن، سألها كيف؟ أجابته بأن الشركة تبحث إقامة فرع آخر ببغداد، ولكي يتحقق ذلـك، لا بـد

من معلومات وافية عن الاقتصاد العراقي وحركة التجارة. وبيده كتب عدة صفحات تتضمن معلومات كثيرة تشمل نواحي اقتصادية تافهة من خلال قراءته في الصحف، وفوجئ بقبوله للعمل كمدير لفرع بغداد.

لم يصدق يعقوب نفسه، فها هي أحلامه تتحقق أخيرًا، وتضحك له الدنيا من جديد، وبدلاً من الجلوس على الشاطئ للاستجمام، جلس كتلميذ مؤدب أمام معلمه مازن يشرب فنون الجاسوسية ودروسها الأولى. واستفسر يعقوب باندهاش عن علاقة الجيش والعسكرية، بشركة تعمل في مجال الاستيراد والتصدير، فأجابه مازن بأن الأسرار العسكرية في العراق مهمة جدًا له. فهو لن يجازف بإقامة فرع ببغداد طالما كانت هناك "نوايا" معينة لدى حكام العراق.

لم يقتنع يعقوب بالطبع، لكنه اضطر إلى الإذعان أملاً في رفع شأنه كما كان يحلم منذ صغره.

انتهت مهمة كوكوش عند هذا الحد، ورحلت إلى طهران بعد انقضاء المرحلة الأساسية. أما يعقوب، فقد عاد إلى بغداد كشخص جديد، متقمصًا دوره كرجل أعمال مهم، بجيبه ١,٢٠٠ دينار عراقي مرتب ثلاثة أشهر مقدمًا، وكان وفيًا جدًا لأستاذه ورئيسه مازن. إذ لم يفصح لمخلوق عن مهمته، أو عما حدث له على شواطئ بحر قزوين. وانخرط في جمع المعلومات عن أحوال السوق العراقية، واتجاهات النمو الاقتصادي في شتى المجالات. وبعد خمسة أشهر سافر ثانية إلى طهران، يحمل هذه المرة تقارير اقتصادية متنوعة، ويحدوه الأمل في أن يصبح ذات يوم من أشهر رجال التجارة ببغداد حتى إذا ما قابله مازن، عرفه بإيراني اسمه "عبد نابلون"، اصطحبه إلى فندق كبير بشارع "ورزش" شمالي "بارك شهر" في طهران. وشرع في استجلاء ما لديه من أخبار وتقارير.

كان يعقوب يفيض حماسًا وهو يشرح لنابلون تفصيليًا عن العراق وانفتاحاته التجارية، مستمدًا معظم تقاريره من أبحاث هامة نشرتها الصحف لكبار العقول الاقتصادية وخبراء التجارة.

لكن عندما عرج نابلون إلى الحديث في السياسة والشؤون العسكرية والتسليح، أظهر يعقوب جهله وعدم اهتمامه، حتى إذا ما أحس نابلون بأن الوقت مناسبًا تمامًا لمهمته، فاجأ يعقوب بالحقيقة. حقيقة أنه يعمل لصالح الموساد، ولا بد له من استثمار كل معلومة ولو كانت تافهة، ما دام سيحصل على ثمنها.

صعق يعقوب وتلجم لسانه.. بل إنه عجز عن السيطرة على نفسه وقد اندفع بوله ساخنًا بين ساقيه... إذ استغل نابلون أسرع طرق السيطرة بواسطة الصدمة الفجائية. الصدمة التي تذهب بالعقل وبالشعور. ويصبح الإنسان لحظتئذ عاجزًا عن التفكير.. أو النهوض.. أو المقاومة.

هكذا سقط يعقوب في براثن الموساد لا حول ولا قوة. حاول أن يفك قيود العنكبوت التي كبلته، لكن نابلون كان واثقًا من نفسه.. ومن قدراته.. ومن مواهبه في الإخضاع لدرجة الطاعة. فالصور العارية والتقارير التي كتبها بخط يده، كفيلة بأن تسكت صدى الرفض عنده لأن الإعدام في بغداد ينتظره إذا لم يذعن. ولم يكن أمام يعقوب إلا الإذعان، ضعفًا.. وخضوعًا.. وخوفًا. فلم يعد هناك أي مهرب.. أو سبيل للفكاك.. هكذا تصور.

وجاءت "فروزندة وثوقي" عاملة الفندق، لتقف في طريق العراقي التائه.. المضلل. جمالها الرائع شغل عقله، والتصاقها به أيام محنته قربها إليه. فقد كانت هي الملاذ الحنون الذي يحوي انفعالاته.. وشجونه، ويمتص غضبه والخوف الجاثم فوق حياته.

لذلك.. تحدث معها طويلاً، وصارحها برغبته الملحة في الزوج منها، وساعدته أموال الموساد على الارتباط بالفتاة التي دُسَّت عليه، والعودة بها إلى العراق.

وبهذا الزواج فُتِحَتْ أمامه أبواب الدخول إلى إيران في أي وقت، وضمن الموساد بزواجهما تدفقًا كبيرًا في حجم المعلومات التي سيحصل عليها، فالعميلة الزوجة مدربة تدريبًا عاليًا على القيام بمهام تجسسية معقدة تعود بالنفع في النهاية على إسرائيل.

وفي بغداد، بدأ يعقوب يمارس مهمته في استكشاف أسرار الأسلحة التي تزود بها العراق الأردن، أنواعها وأعدادها ووسيلة نقلها إلى عمان، وعجز الجاسوس في بداية الأمر عن التوصل إلى أيّ معلومات، حتى تقابل مع العريف "نوري سوار" المجند بإحدى القواعد العسكرية، فأغراه بالمال، وبطرق مختلفة حصل منه على قوائم كاملة بالمعدات التي زودت بها الأردن.

وحينما لاحظت فروزندة أن زوجها دأب على اصطحاب نوري معه إلى المنزل، بغية استثمار جمالها في تليينه، تعجبت من غبائه، فهو لم يشك للحظة أنها عميلة للموساد، وجاهزة للسيطرة على أي عقل يريد وتركته يلجأ إليها شيئًا فشيئًا لتعاونه في مهمته، حينئذ وجدها يعقوب الزوجة المطيعة.. التي توافقه رأيه وتشاركه عمله السري.

بدأ الاثنان معًا في البحث عمن يجيء بأسرار المخزن رقم ٣ في بغداد، فأمْر هذا المخزن حير الموساد كثيرًا، وفشل جواسيس كثيرون من قبل في استجلاء سره، وكانت خطة فروزندة تتلخص في التعرف على أحد الضباط العسكريين بطريق الصدفة في شوارع بغداد، عندها.. تسأله عن مكان ما بلغة عربية ركيكة، فيضطر الضابط إلى إرشادها، ويحدث بينهما تعارف أثناء السير.

وخرجت فروزندة لتتصيد ضحيتها الأولى. وكان ضابطًا برتبة نقيب اسمه أحمد رافع، ما إن استوقفته لتسأله عن أحد الشوارع، حتى سارع بمرافقتها بأدب. وخلال الطريق حدث تعارف بينهما، وعندما أوصلها إلى المكان المطلوب، كان زوجها ينتظرها كما خططا لذلك، فشكر الضابط الشاب لشهامته وأصر على أن يقبل دعوته للزيارة.

وبعد أيام طرق رافع الباب ليجد فروزندة وحدها، و "ادعت" أن زوجها سافر إلى الموصل لعدة أيام. ولما هم بالانصراف ألحت عليه أن تقدم له واجب الضيافة. وبالفعل.. قدمت له جسدها، فتذوق أشهى وجبة من النشوة، غيبت عقله فأدمنها، وكان سرعان ما يحن لوجبة ثانية ثم ثالثة، هكذا أوقعت به في شباكها، فسلمها ملفًا كبيرًا يحوي كل أسرار المخزن رقم ٣.

كانت مكافأة يعقوب ألفين وخمسمائة دينار، ومثلها لفروزندة. أما أحمد رافع.. فقد أصيب بحالة اكتئاب شديد بعدما أفاق إلى نفسه، وأحس بالجرم الذي اقترفه ضد بلده، وامتنع عن زيارة فروزندة، فاستشعرت عميلة الموساد الخطر إذا ما تطورت حالته النفسية سوءًا، وأقدم على الانتحار في لحظة ضعف، تاركًا رسالة تقودها إلى حبل المشنقة.

لذلك.. أرسل لها عبد نابلون بسمّ السيانيد الفتّاك، حيث أخذه يعقوب وذهب لزيارة رافع الذي قابله بغضب، فغافله الخائن ووضع له السيانيد في العصير، ولما ظهرت أعراض التسمم غادر يعقوب المنزل، وفي اليوم التالي مشى في جنازة ضحيته.

هكذا تفعل الموساد مع ضحاياها الذين يتراجعون في التعامل معها، في لحظة صدق يشعرون فيها بوخز الضمير والندم، ففي عالم الجاسوسية لا مشاعر أو عواطف، فالجاسوسية لا تقوم على ضمير أو شرف، ولا تملك قلبًا يعرف نبضة رحمة

تحكمه خفقات الهوى. لكن.. في تاريخ الجاسوسية العالمية، هناك حالات نادرة جدًا ثاب فيها الجاسوس إلى رشده، وأصغى لنداء الحب فلبى النداء. فالجاسوسية والحب.. موضوع شيق للبحث والكتابة...

بمقتل النقيب رافع، اطمأن يعقوب وزوجته، وإن نضب معين المعلومات العسكرية لديهما. لذا فكرا في البحث عن ضابط آخر من "الكبار" يسهل إغواؤه.. وتنهمر الأسرار منه.

وبينما العقيد جاسر عبد الراضي جالس بسيارته العسكرية المعطلة، في انتظار سائقه الذي يبحث عن سيارة أخرى تجرها، اقتربت منه سيدة فائقة الجمال، تنزلق من عينيها الدموع السخية. وبلغة عربية ركيكة، توسلت إليه السيدة أن يحميها من زوجها العراقي الذي لا يكف عن ضربها، ولأنها إيرانية غريبة لا تعرف ماذا تفعل، طلبت منه مساعدتها لتعود إلى إيران.

غادر الرجل سيارته مشفقًا عليها وقد أدهشه جمالها الأخاذ، ووعدها بأن يصحبها لبيتها ليتحدث مع زوجها، وما إن جاء السائق حتى طلب منه الضابط أن يتصرف بالسيارة، وركب إحدى سيارات الأجرة مع المرأة الباكية.

انكمشت فروزندة بجوار الضابط الشهم وقد لفها الخوف، تغزو جسدها نظراته العطشى المتأملة، حتى إذا ما وصلا إلى المنزل، قابله يعقوب باحترام شديد وقص عليه حكايات مغلوطة وليدة خطتهما، فتعهد الضابط بحماية المرأة الأجنبية لمّا رأى خضوع يعقوب له، وأقسم على أن يساعدها في العودة لأهلها إذا ما عاد لسيرته الأولى معها. لقد اعتقد الضابط أنه سيطر على الموقف، لكن دموع فروزندة كانت أسلاكًا من فولاذ، كبلت عقله وسيطرت على إرادته، فلم يقو على نسيانها.

عدة أيام وعاد لزيارتهما فاختفى يعقوب في مكان لا يراه جاسر، وبدأت فروزندة خطوتها الثانية، بأن أكدت له أن وجوده إلى جوارها خفف كثيرًا من سلوك زوجها المعوج معها، وشكرته لشهامته في نعومة يلين لها الحديد.

وبعيني أنثى خبيرة، أدركت أنها قطعت خطوة هامة للإيقاع به. فبعد عدة زيارات لم يستطع المقاومة، وأفصح صراحة عن رغبته فيها عندما احتواها بين يديه وبدنه يرتعد كفأر في المصيدة، وأخذ يبثها حبه وهيامه، متناسيًا كل شيء في سبيل الوصول إليها.

لقد باع وطنه على فراشها المتوقد بنيران أنوثتها، ولم يبخل بإفشاء أسرار الجيش العراقي، عندما سلم لعميلي الموساد أسرارًا خطيرة عن الطائرة السوفياتية "توبولوف ـ ٢٢" التي تعَدّ الأحداث قياسًا بقاذفة القنابل الأميركية "ب ـ ٥٢"، التي استخدمت في حرب فيتنام، كما أمدها بوثائق هامة، تتعلق بالمخزون الاستراتيجي من الذخيرة، وبكشوفات عن أعداد الدبابات "تي ٦٢"، وبحصر عام لبنادق "برنو" التشيكية، ورشاشات "دوشكا" و"كلاشنيكوف"، وايضًا رشاشات "سينا" الصينية.

أمدها أيضًا بوثائق أخرى عن نظام الجيش العراقي، وأفرعه، وقياداته، وتشكيلاته، وتسليحه... وبخرائط سرية عديدة عن المطارات العسكرية، والقواعد الجوية الاستراتيجية والهيكلية ونظام العمل بها. كل ذلك مقابل جسد فروزندة الذي كان يناله في أي وقت، حتى في وجود يعقوب.

كان العقيد جاسر عبد الراضي من أسرة عسكرية، تتزاحم بالمناصب والرتب، لذلك.. كان يفخر دائمًا بأنه يعلم بأسرار الجيش العراقي، حيث تصب كلها أمامه من خلال أقاربه العسكريين وزملائه في المواقع المختلفة.

لقد اكتشفت فيه فروزندة حبه الشديد للتباهي بنفسه، والتفاخر بمنصبه العسكري في الدفاع الجوي، وإدمانه للخمر والقمار والجنس، ولأجل ذلك، فهو ينفق راتبه على نزواته ويعيش دائمًا مديونًا.. هاربًا من دائنيه.

اكتشفت فيه أيضًا ما هو أهم من ذلك.. قلة وازعه الوطني، وسخطه على الحياة في العراق، يترجم ذلك سبه الدائم لقيادات حكومته، وانتقاده العنيف لهم.

لقد برهن بما لا يدع مجالاً للشك، على عدم ولائه لوطنه، واستعداده لعمل المستحيل لأجل عيون عشيقته التي أعطته أنوثتها بسخاء فأسكرته، ومنحته من المال الكثير فأنعشته.

ونظرًا لزواجه من إيرانية، اعتاد يعقوب السفر إلى إيران مطمئنًا، حاملاً معه أدق الوثائق العسكرية السرية، خلافًا لوثائق أخرى كان يجلبها له عميل آخر اسمه عزاوي الجبوري.

هكذا استمر يعقوب يوسف جاسم يعمل في خدمة الموساد بمعاونة زوجته، مندفعًا بكل طاقته غير عابئ بالعواقب، تخيم على عقله غيمة كاذبة من الوهم والثقة، حتى ألقي القبض على أعضاء الشبكات التسع في كانون الثاني - يناير ١٩٦٦.

ساعتئذ.. ارتجت دعائم ثقته وغامت الحياة من حوله. فأحجم من فوره عن حمل حقيبة الوثائق إلى إيران، وانكمش مذعورًا يترقب مصيره المجهول.

أما فروزندة.. فقد أنهكها التوتر والخوف. وفكرت.. بل ألحت على يعقوب أن يتركها لتغادر إلى وطنها، لكنه رفض بحسم. فقد كان بحاجة إلى رفيق يؤازره، ويشاطره مخاوفه.. وارتعاشة الأطراف لحظة الشنق. ولمّا يئس رجال الموساد في الوصول إلى يعقوب وزوجته، أرسلوا إليهما بعميلهم فجر عبد الله، الذي ألقي القبض

عليه صدفة، فأرشد عن يعقوب عندما تعرف إلى صورته التي عرضت عليه بواسطة رجال المخابرات العراقيين.

ففي فجر اليوم الثاني من شباط ـ فبراير ١٩٦٦، وبينما يعقوب وفروزندة بحجرة نومهما، متكورين في هلع لا حول لهما ولا قوة.. تطرق إلى سمعهما وقع عشرات الأقدام تحيط بالمنزل.

هبت فروزندة مذعورة إلى أحد الأدراج، وفي اللحظة التي تهشمت فيها الأبواب ودخل سيل من الرجال، ابتلعت فروزندة كل ما بقي في أنبوب سم السيانيد. أما يعقوب، فكان مستسلمًا للقيود الحديدية التي كبلت معصميه، ينظر إلى فروزندة هلعًا وقد جحظت عيناها، وارتعشت أطرافها قبلما تهوى إلى الأرض.

هكذا نفذت العميلة حكم الإعدام في نفسها قبل محاكمتها، وأتاحت بذلك الفرصة لشريكها أن يرى بنفسه ارتعاشة الموت، فقد لا يسعفه الحظ ليرى ارتعاشتها وهي تتدلى من حبل المشنقة.

وهذا ما كان بالفعل. إذ نفذ حكم الإعدام في يعقوب شنقًا بسجن بغداد المركزي في كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٦٦، بعد محاكمة استمرت عشرة أشهر، اعترف أثناءها تفصيليًا بدوره في التجسس مع شركائه لصالح الموساد، وأبدى ندمه الشديد لذلك. وجاء اعترافه بالندم في لحظة حاسمة ما بين الجد والهزل. فالخونة في كل زمان ومكان خونة لا أمان ولا عهد لهم.

أما عزاوي الجبوري، فقد ألقي القبض عليه فارًا بالقرب من منفذ العبور إلى الأردن، وكان هو الذي شهد ارتعاشة أطراف زعيمه يعقوب على حبل المشنقة، بدلاً من فروزندة.

لكن العقيد جاسر عبد الراضي، أنقذ جسده من رصاصات منفذي حكم الإعدام، إذ وفر عليهم مهمتهم، وانتحر هو برصاص مسدسه الأميري في خراج منزله. ونال فجر عبد الله حكمًا بالأشغال الشاقة المؤبدة، بعدما رفضت السلطات العراقية تخفيف الحكم على العميل الإسرائيلي، حيث طلبت إيران ذلك رسميًا من العراق.

وبذلك.. تفككت شبكات الجاسوسية الإسرائيلية، وانحصر نشاط الموساد في العراق في تقوية شبكات محلية أخرى، جرى تدريبها وتثبيتها لتحل محل الشبكات التي سقطت. لتستمر حرب المخابرات في اندفاع مستمر لا يتوقف[١].

فيكتور مناحيم: الشبكة العائلية

أمام تساقط شبكات الجاسوسية في العراق، لم تقف إسرائيل مكتوفة الأيدي، بل أعادت تنظيم شبكاتها العاملة، ورتبت صفوفها لسد ثغرات الضعف التي تسقط بسببها في قبضة المخابرات العراقية.

لقد كانت أهم أهداف الجاسوسية الإسرائيلية في العراق حتى أواخر خمسينات القرن العشرين، تهريب اليهود العراقيين إلى إيران ثم لإسرائيل من هناك، لهذا السبب.. تنوعت شبكاتها من اليهود العراقيين ومن سائر الملل.

ففي منتصف الستينات، وبعد تهريب أعداد هائلة منهم، اتخذت الجاسوسية مسارات أخرى تخدم مصالح إسرائيل وأميركا، فازداد بشكل ملحوظ الاهتمام بالنواحي

---

١ - الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص٣٣٣ - ٣٤٥.

العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، وأسرار التغلغل السوفياتي في العراق. إذ كانت هناك نوايا سيئة رتبت لها أميركا بدفع إسرائيل لتحطيم قوة العرب والإجهاز عليها.

كان العراق في ذلك الوقت ينمو نموًّا كبيرًا في مجال التسليح، الذي استُحدثت معداته وأدواته بشكل أخاف إسرائيل، برغم عدم اشتراك البلدين في الحدود أو الجوار، إلا أن هذا النمو العسكري السريع، ألقى ظلالاً كثيفة على حجم المساعدات السوفياتية والشرقية في مجال التسليح، ليس للعراق فحسب، وإنما لمصر وسوريا أيضًا، مما يهدد التواجد الأميركي بالمنطقة العربية، وأمن إسرائيل كذلك.

وببذخ شديد، أنفقت إسرائيل على شبكات الجاسوسية على الدول العربية، لنخل المعلومات الاستراتيجية، ولمعرفة أدق التفاصيل. وكانت الجاسوسية الإسرائيلية في العراق، تعتمد غالبًا على الخونة من اليهود، فعلى عاتقهم قامت شبكات تضم أعدادًا كبيرة من الجواسيس، وصلت في إحداها إلى ٣٦ جاسوسًا، سقطوا جميعًا في قبضة الأمن العراقي عام ١٩٦٨.

ومن الغريب حقًا أن نلاحظ في الجاسوية الإسرائيلية في العراق، أن الجواسيس الذين يعملون بمفردهم تقل أعدادهم إلى درجة الندرة قياسًا بمصر مثلاً، ويرجع ذلك إلى وفرة اليهود بالعراق بأعداد هائلة، إذ كان عددهم نحو ٨٠ ألف يهودي، آمن غالبيتهم بأن مساعدة إسرائيل نوع من التضحية في سبيل الوطن الجديد، وانتشرت بينهم مقولة "اليهودي المتدين لا يبخل على إسرائيل بماله وروحه".

وتحت هذا الشعار الذي روجت إسرائيل له، تكونت الشبكات منهم عن قناعة، فلم يكونوا ليبخلوا حتى بأجساد بناتهم تتويجًا لفعل الوطنية والتدين، وقدَّموهن على موائد الجنس وليمة رخيصة شهية، لاصطياد العراقيين ذوي المراكز الهامة في شتى المواقع والمؤسسات.

ومن أشهر الشبكات التي طبقت الشعار الإسرائيلي.. شبكة "فيكتور عيزرا مناحيم"، الذي لم يكن وقتها يملك مالاً يقدمه لإسرائيل، فقدم بدلا منه جسدي شقيقته وزوجته، ثم قدم روحه بعد ذلك ليكمل تطبيق الشعار.

ولد فيكتور عام ١٩٣٤ بمدينة "المسيب"، على بعد ٤٠ كيلو مترًا جنوبي بغداد. وكان أبوه "عيزرا مناحيم" مرابيًا كبيرًا، فاق مكر "شايلوك" اليهودي الشهير في مسرحية وليم شكسبير "تاجر البندقية". فقد استغل عيزرا حاجة الناس وظروفهم وكبّلهم بصكوك الدَّين والفوائد الخيالية لأمواله، فحرقوا منزله عام ١٩٥٥ لتأكله النيران وتتفحم معه زوجته وصكوك الديون، وقد نجا ابنه فيكتور وأختاه الطفلتان مليكة (١١ عامًا)، ونمرة (٩أعوام)، فشد الرحال بهما إلى بغداد هربًا من كراهية الناس.

هناك.. استأجر فيكتور مسكنًا متواضعًا في أحد الأحياء الشعبية الفقيرة، واستغل الشهادة المتوسطة التي حصل عليها للعمل بوزارة الصحة.

وكيهودي يبحث عن نقود يعلم جيدًا عماد الحياة في المدينة الكبيرة، استطاع بعد سنوات أن يدخر عدة دينارات، اشترى بها بعض الأقمشة من تاجر إيراني اسمه "سليماني بنائي" كان يفد إلى بغداد كل شهر ببضائعه.. وكتب له صكًا بالمبلغ المتبقي لحين الزيارة القادمة.

ولأنه تاجر جديد لا يدرك أساليب التجارة وتقلبات السوق واحتياجاته، خسر فيكتور في أولى تجاربه، إلا أن سليماني لم يمارس عليه ضغوطه، بل أمده ببضائع جديدة إلى أجل، ولمّا دعاه لزيارته ببيته، لبى سليماني الدعوة، وبدأت منذ تلك الزيارة أحداث كثيرة تتشكل، لتصنع في النهاية قصة عجيبة من قصص الجاسوسية والخيانة.

ذلك أن سليماني لم يكن سوى عميل للمخابرات الإسرائيلية، يتخذ من تجارة الأقمشة ستارًا لعمله مع الموساد، وأحيانًا كثيرة كان يعمل كصائد للجواسيس في

العراق، لاعتياده التعامل مع العراقيين من اليهود الفقراء ومعرفة الكثير من أسرارهم وخباياهم.

ولد سليماني في كرمنشاه بإيران لأسرة يهودية متوسطة الحال، يملؤه اليأس الشديد لعجز والده عن تدبير حياة أفضل لأسرته الكبيرة العدد. فشب ناقمًا على حاله كيهودي يعيش في مجتمع منغلق وسط بني جلدته، وعندما قرر أن يغامر بعيدًا في طهران، اصطاده عميل للموساد ودربه ليمارس تجسسه على العراق لعدة سنوات.

ولما تقابل مع فيكتور، نصب شباكه حوله منذ اللحظة الأولى، فقد كان يتمتع بأنف كلب صيد مدرب، يميز جيدًا ويشم نقاط ضعف فريسته... إذ اكتشف أن المال هو ما يسعى إليه فيكتور وينشده. ومن هذا الاتجاه بدأ في محاصرته والالتفاف حوله.

وفي منزله تحول صياد الموساد الماهر، إلى فريسة ضعيفة أمام مليكة التي تعدت العشرين بقليل، فقد استدار جسدها العريض، ونحت تضاريسه فوران الصبا والنضوج، وضجت أنوثتها تعلن في صراحة عن نفسها.

فيكتور اليهودي الطماع وجدها أيضًا فرصة سانحة لتتسع تجارته، إذ ألمح لشقيقته أن تتلطف مع الزائر المهم، ولا تبخل عليه ببشاشتها ورقتها، فاستجابت لأوامر شقيقها وأعطت سليماني بسخاء كل شيء على طبق من رضا.. لكن.. يهوديًا وعميلاً محترفًا مثل سليماني، لم يكن ليقنع أبدًا بجسد مليكة مقابل ديونه، فهناك مكاسب أخرى عديدة تنتظره، إذا ما جُند فيكتور لصالح الموساد.

انزعج فيكتور عندما طالبه سليماني بغتة بأمواله لديه، وسأل مليكة: "هل أغضبت الرجل؟" فأقسمت بأنها فعلت كل شيء لإرضائه، واحتار فيكتور أكثر.. ماذا يريد سليماني إذن؟

وما إن عاد الإيراني حتى سأله عما بدَّله.. فضحك الصياد لفريسته وقال: "إنه السوق لا أكثر".

استبد الحزن بفيكتور الذي لا يملك مالاً يفي بالدين، وكان يظن أن دائنه سيصبر عليه، أو يسقط جزءًا من الديون مقابل جسد أخته.. لكن ظنه قد خاب.

لم يكن الصغير يدرك بعد أن عالم الجاسوسية مليء بالغموض والخفايا، مهما كانت الأجساد ملتهبة مثيرة، فهو عالم خاص له قوانينه التي لا تعترف بالمشاعر، أو العواطف. ذلك لأن مقاييس علاقته ترتبط أولاً وأخيرًا بالأهداف.. والمصالح.. والمكاسب.

وأمام ضغوط الدائن اليهودي الماكر، وافق فيكتور على سرقة عدة مستندات من وزارة الصحة، تبين خطة الدولة لاستيراد الدواء، كذلك تقرير هام يناقش المتطلبات المستقبلية للمستشفيات المركزية وحاجاتها لاستحداث أقسام جديدة، وفي اليوم التالي أعاد فيكتور المستندات إلى أماكنها بعدما صورها سليماني بنفسه.

كان هذا أول اختبار عملي تأكد بعده نجاحه بجدارة، تلاه اختبار ثان وثالث ورابع، وكانت المحصلة في النهاية إسقاط الديون كلها عنه، ومنحه ثلاثمائة دينار مكافأة، وكان من الطبيعي أن يفتح هذا المقابل الضخم شهيته للمال السهل على مصراعيها، فانغمس فيكتور شيئًا فشيئًا في الخيانة والجاسوسية، فقد أقنعه سليماني بأن اليهودي المتدين لا يبخل على إسرائيل بماله وروحه، وذكّره بأن العراقيين أحرقوا أباه وأمه أحياء وشَرَّدوه مع أختيه.

كان سليماني يثير أشجانه وينفث فيه سموم الكراهية تجاه العراق، والإشادة بأموال إسرائيل التي منحها له مقابل الوثائق "الهزيلة" التي لا نفع منها. لكنها "قد" تقوده إلى حبل المشنقة. فكان لتهديده المغلف، بالإضافة لجرعة الإثارة السابقة، فعل السحر

عنده، خاصة وقد وعده بالثراء الفاحش، والأموال الطائلة التي سيهبها له وطنه الأول: إسرائيل، مقابل خدماته التي ستضمن حياة كريمة له ولأختيه.

وفي سباق مع الزمن، أُخْضع فيكتور لدورة تدريبية أولية، تعرف خلالها على أهداف التجسس الإسرائيلي على العراق والدول العربية، وواجبه كيهودي إزاء التكتل العربي الذي يهدد الوطن، ومنهاجه في التجسس لاستكشاف الأسرار العسكرية والسياسية بمساعدة أختيه، واستكملت الدورة بتعليمه حرفية فن التجسس، وكيفية الحصول على أدق الأسرار.. بأي ثمن.

حاضر له سليماني كثيرًا عن أساليب السيطرة والإخضاع، والتقاط المعلومات من السكارى ذوي المناصب الحساسة، أولئك الذين يفخرون بمناصبهم وبأهميتهم، وما يملكون من أسرار خطيرة.

استوعب فيكتور الدروس جيدًا وشرع في الحال ينظم حياته الجديدة المقبلة، يتوج عقله هاجس كبير بأنه وطني مخلص، يسعى لخدمة وطنه من الخارج، وواجب عليه أن يضحي بكل شيء لصالحه حتى وإن كانت رقبته هي الثمن..

إذن.. فجسد أختيه أقل القليل قياسًا برقبته. هكذا فكر واقتنع، وكان من المستحيل أن يتراجع، فصراخ والديه والنيران تأكل جسديهما لا يزال حادًا في أذنيه، وفرحة العراقيين بحرقهما مشهد لن ينساه أبد الدهر...

كان الربيع في بغداد يضحك وقد كسته حلة من بهاء، ترفل الحقول الزروع والطيور والسماء، ونسائم من شذى الورد، تداعب الخيال، حانية على صفحة دجلة فتطرب الأمواج وتبعث راحة سرمدية تسر النفوس، وتدغدغ أحلام الشعراء والعشاق. وكان فيكتور لا يرى روعة الطبيعة حواليه، عندما جلس بشرفة منزله الجديد، غارقًا

في سهومه، كشاعر قريحته حبلى بالقريض، تصل لأذنيه بين فينة وفينة ضحكات خليعة من الداخل. ومرّت بالقرب منه حدأة أخرجته من شروده، فانتبه إلى شبح الزائر المجهول يخطو في حذر تجاه منزله، ولم تمر دقيقة إلا وسمع طرقات ثلاث على الباب، وعندها فتح مطمئنًا، فكل الأمور تجري بتخطيط دقيق.

تبعه الزائر إلى حجرة داخلية، وأخذ يحدق في زواياها، فأخرج فيكتور من حقيبته كاميرا دقيقة سبق له أن تعلم استخدامها، وتناولها الزائر وقام بتثبيتها في براعة، بحيث لا تبدو واضحة. وانصرف كما جاء في هدوء.

كان قد مر عام ونصف العام، منذ دخل فيكتور إلى عالم الجاسوسية على يد سليماني عام ١٩٧٣. ولم تكن المهام التي أوكلت إليه خلال تلك المدة صعبة يقف أمامها عاجزًا، بل كانت برغم بساطتها على درجة كبيرة من الأهمية، لقد انخرط في الجاسوسية بكل كيانه، وأصبح ذا شأن في عالمها السري المعقد، تنتظره مرحلة جديدة في عمله التجسسي، يؤكد من خلالها مدى جهاده وتضحياته.

نادى على مليكة ليستعرض معها خطة العمل، وأهمية دورها في السيطرة على "الهدف" الأول لتجنيده. وبدت الفتاة شديدة الاقتناع بالدور الذي ستقوم به، بل يملؤها حماس لا حدود له لتحقيق هدفين معًا، وهما استعراض مفاتنها لإغواء رجل مهم، وتذوق لحظات متعة حرمت منها بعدما هجرها سليماني.

وكأنها عروس تنتظر عريسها الحبيب، استقبلت "سعدون الناظم" الموظف الكبير بقطاع الإمداد بالجيش العراقي، الذي اصطاده شقيقها وجره إلى الكمين المعد له بمنزله. وبعد عدة كؤوس مثَّل فيكتور دور الثمل ببراعة، فساعدته مليكة للوصول إلى سريره، وعادت إلى سعدون المتقد وقد نطقت نظراته بضجيج الرغبة وأفصحت، فمارست رغبتها كأنثى في التدلل والتمنع، فازداد ذلك من طفح إثارته، ولم تكن بحاجة

لوقت أطول لتطويعه، فالرجل الذي تعدى السابعة والأربعين، تحول فجأة إلى طفل صغير، ليس بمستطاعه أن يكبح جماح رغباته، فتنتهره برفق ليغوص في ضعفه، وليركع تحت قدميها ذليل الرغبة التي طيرت عقله.

وخاضعًا.. قادته إلى حجرة النوم، وعلى فراشها أخذ يحسو قطوفًا من النعيم السرمدي فلا يشبع أو ينتشي، وتدور عجلة الجوع تفركه فركًا بين أسنانها، فيعتصر رجولته النازفة في توحش وجنون.

ذاب سعدون عشقًا.. وخيانة، ولم يهدّده فيكتور بصوره العارية مع مليكة، ذلك لأنه خضع تمامًا أمام جبروت جمالها وفتنتها، ونثر بين أحضانها ما خفى من أسرار ووثائق، وتعاون مع شبكة فيكتور بأمانة شديدة، جعلته يجلب صديقًا له برتبة نقيب في إحدى القواعد الجوية، اسمه شكري حنا، فيقدم له فيكتور شقيقته الصغرى "تمرة" التي نفر صدرها واستوى عودها، يعلن عن أنوثة مبكرة لمراهقة ودّعت الطفولة، وأخذت تتشكل لديها أحاسيس جديدة لم تكن تدركها من قبل.

انقض شكري على جسد الفتاة البكر يختال برجولته ويزهو، ويصوم عقله عن التفكير، إلا أن المرأة الصغيرة قليلة الخبرة تعجلت الأمر، وصارحته بعد عدة لقاءات ملتهبة برغبتها في الحصول على معلومات عسكرية، فأفاق شكري من حلمه ونشوته، وأدرك المصيبة التي حلت به.

وعندما أراد تصحيح موقفه، كانت الصور الفاضحة والتسجيلات التي ووجه بها، عقبة عاثرة أحالت بينه وبين الرجوع. فسقط مترنحًا في مصيدة الجاسوسية يتعاطى الجنس مع تمرة، ويزودها بأدق الأسرار العسكرية التي في متناول يده. ومن خلال هذين العضوين المهمين، انتعشت شبكة فيكتور بالمعلومات الغزيرة، وبأموال الموساد...

كان فيكتور ماهرًا جدًا عندما سيطر تمامًا على شقيقتيه، إذ أقنعهما بحاجة الوطن الجديد إسرائيل إلى جهاد اليهود في كل بقاع الدنيا ليقوى ويشتد، ولا يمكن أن يتم له ذلك إلا من خلال التضحية والفداء.

هكذا ملأ قلبيهما كراهية للعراقيين الذين فتكوا بوالديهما حرقًا. إلا أن تمرة الصغيرة تمردت على مهنتها كعاهرة لحساب الموساد، وكانت قد استطاعت إغواء وتجنيد ثلاثة عسكريين في غضون ستة أشهر، وارتبطت بعلاقة حب مع شاب مسيحي أردني يدرس الطب بجامعة بغداد، وعندما رأت تعنتًا من أخيها، هربت مع حبيبها بأوراق مزورة إلى عمان.

ولظروف العمل.. كان لا بد لفيكتور من البحث عن أخرى تعاون مليكة، فالمترددون على المنزل كثيرون جدًا، ولا تستطيع وحدها تلبية "طلباتهم" أو إرضاءهم. لذلك فقد رأى في الزواج من فتاة يهودية حلاً مقنعًا، فاختار "شاولا" المتعصبة دينيًا ابنة العائلة المحافظة المتزمتة، والحريصة على ارتياد المعبد اليهودي بانتظام كل سبت. وكان اختياره لشاولا منطقيًا جدًا من وجهة نظره، فتدينها سيسهل كثيرًا مهمة التعاون عن قناعة ويقين، وسرعان ما تزوجها وانتقلت للإقامة معه بمنزله.

بعد أيام قليلة زارهما سليماني ليبارك الزواج، وانفرد بفكتور ناصحًا إياه بالتروي قبل مصارحتها، كي لا تطيح به وبشبكته، فالفتاة الأكثر رقة وتدينًا ستصدم بشدة إذا ما اكتشفت الحقيقة، لكن فيكتور كان يرى العكس تمامًا، وصح توقعه عندما سنحت الفرصة وقص عليها سيرة حياته، وما فعله العراقيون بوالديه، وبكى متأثرًا على صدرها فبكت لأجله، وطلبت منه أن يصبر وينسى، فلم يكن أمامها إلا مشاركته معاناته وآلامه.

ولما جاءت اللحظة الحاسمة.. وكان قد هيأها نفسيًا وأخضعها تمامًا.. رحبت على الفور بالتعاون مع الموساد، ومنح جسدها لكل من يريد خدمة للوطن وللدين، وتعهدت بها مليكة الخبيرة، فدربتها على فنون الإغواء والسيطرة بالجسد.

تعهد فيكتور بمهمة اصطياد ضعاف النفوس، وجلبهم إلى منزله، فلا يخرجون إلا ورؤوسهم قد فقدت العقل والتركيز، بعضهم سقط صاغرًا أمام موجات النشوة المتلاحقة، وآخرون أفاقتهم الصدمة الفجائية فتمردوا حينًا، ثم انهارت مقاومتهم أمام التهديد وإغراءات الجنس والمال.

ومن أغرب قصص تجنيد العملاء، قصة شاولا و "نهيرة" زوجة "مكرم الصو"، الموظف بإحدى الجهات السيادية بالعراق. حيث تعارفا بأحد المحلات العامة وتجاذبا أطراف الحديث، وبعد لقاء آخر أيقنت شاولا أن نهيرة تعاني من مشاكل مالية، فضلاً عن إحساسها بالميل إلى "الجنسية المثلية"، فأتاحت لها فرصة إخراج ما عندها من رغبات مكبوتة عندما استدرجتها إلى وكر الجواسيس.

وفي حجرة التصوير المغلقة، شكت لها شاولا إهمال زوجها هي الأخرى، وبأنها تكاد تشمئز من رائحة فمه وجسده.

استجابت المرأة الشاذة للعميلة الماكرة، وبعد عدة لقاءات صورت كلها، رضخت نهيرة وبدأت تفتش أوراق زوجها وتتنصت على مكالماته التليفونية وحواراته مع زملائه، لتنقل ما تحصل عليه من معلومات إلى شاولا التي احترفت التجسس، وسعت بشتى السبل لتجنيد مكرم نفسه.

مارست شاولا ضغوطًا عصبية على نهيرة، أوصلتها إلى درجة الانقياد التام لأوامرها، فمهدت لها الطريق الذي كان سهلاً، وهيأت المناخ المناسب لولادة علاقة

جنسية حميمة بين شاولا وزوجها الذي صعق وارتج، رافضـا بشدة أن يدخل مصيدة الجاسوسية.

لكن امرأة متدينة مثل شاولا تمارس الجاسوسية عن عقيدة وإيمان، لم تكن لترضى بالهزيمة أبدًا، إذ قامت على الفور وأخرجت مظروفا كبيرًا بـه صـور لأوراق ووثـائق هامة كانت تحت يده، ونثرت حوله العديد من صـوره وهو عـار تمامًا في أوضـاع جنسية معها، وأسمعته صوته وهو في قمة نشوته يسب قيادة بلده، ويفضي بأسراره كمسيحي يشعر في قرارة نفسه بالدونية.. والاضطهاد من رؤوسائه في العمل.

حينئذ ارتسمت على وجه مكرم علامات الرعب والفزع، وانزوى كطفل يبكي مستعطفًا ألا تفضحه. فتركته شاولا عدة أيام يحاول استرداد ذاته واستيعاب الأمر.

في تلك الفترة قامت حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧، وانهزم العرب هزيمـة فادحة أحبطتهم، وأشعرتهم بما يشبه العجز أمام جيش اليهود، واحتلت إسرائيل أراضٍ عربية جديدة، تؤكد باحتلالها مدى الضعف العربي، وكانت صور آلاف الأسرى العرب لـدى إسرائيل في صحف العالم، تمثل قمة المهزلة والمهانة، فقد كان بعضهم يبكي في فزع، رافعًا يديه مستسلمًا ممزق الثياب، حيث استغلت إسرائيل هذه الصور في إبـراز قوتها وهيمنتها على المنطقة.

لقد كان لانتصار إسرائيل الأكبر في رفع الروح المعنوية لجواسيسها في الدول العربية. إذ اتصلت شاولا بمكرم وأمرته بمدها بتقارير هامة عن آثار الهزيمـة، والرؤية الجديدة التي تمثلها إسرائيل لدى القيادة العراقية، وكذا حجم الإمدادات العراقية من سلاح وخلافه لدول المواجهة. فأمدها مضطرًا بما أرادت. وكـان مـا يحير شاولا هو اختفاء نهيرة فجأة، لكن العثور على جثتها معلقة بحبل من الكتان بسقف حجرة نومها، آثار العديد من التساؤلات لدى الشرطة وشاولا في ذات الوقت.

نفت تحريات الأمن شبهة القتل الجنائي، وسجلت الجريمة انتحارًا بسبب الاكتئاب النفسي الذي كانت تعاني منه، وترددها على عيادة طبيب نفسي معروف.

ابتعد مكرم عن شبكة فيكتور مؤقتًا، تقهره آلام فراق زوجته وتقتله الوحدة، وانشغلت شاولا مع فيكتور ومليكة في إعادة تنظيم الشبكة، وأسلوب الاتصال بالعملاء، وتصنيف المعلومات حسب أهميتها للموساد، وأيضًا.. وضع خطط العمل التجسسي للمرحلة المقبلة.

وكانت أولى الخطط تغيير المسكن بآخر أكثر أمانًا وروعة. والإقلال من أمر تجنيد العملاء بواسطة الجنس والتهديد، مع التركيز على الحفلات التي تقام للضيوف الذين يتم انتقاؤهم في التقاط المعلومات. فكانت شاولا تبدو في تلك الحفلات شبه عارية، أما مليكة فمارست هوايتها في الرقص الشرقي بحركات مثيرة فاضحة.

ومع الرقص والخمر واللحم العاري في مجتمع شرقي ملتزم، كان من الطبيعي ألا تسكت الألسنة، بل تتحرك عن الكثير من المعلومات. وتحولت الحفلات شيئًا فشيئًا إلى حفلات سكر ماجنة، يمارس أثناءها الجنس بشكل جماعي مع شاولا ومليكة، وفتيات صغيرات أخريات يسعين للبحث عن المال.

لقد كانت شبكة فيكتور أولى شبكات الموساد في العراق، التي استخدمت سلاح الجنس في الحفلات الجماعية، كإحدى الوسائل السهلة لمعرفة كل أسرار الدولة والجيش، وتفوقت بذلك على شبكة "وولفغانغ لوتز" جاسوس الشمبانيا الذي كان يضحي بجسد زوجته أيضًا، وسقطت شبكته في القاهرة في ٢٢ شباط - فبراير ١٩٦٥.

اختفى سليماني صائد الجواسيس وحل محله إيراني آخر اسمه "عبد الزهرة"، وكانت مهمته نقل الوثائق والتقارير إلى مكتب الموساد في إيران، وجلب آلاف الدينارات إلى فيكتور ليستعين بها في شراء الذمم، والإنفاق على حفلاته الماجنة.

إن المخابرات الإسرائيلية تسعى دائمًا إلى إثباتات ووثائق، تؤكد صدق تقارير عملائها وجواسيسها في كل الدول العربية، ويعتقد ضباط الموساد أن العملاء العرب – ولو كانوا يهودًا - يميلون كثيرًا إلى المبالغة، ويحجمون في أغلب الأحيان عن إيراد التفاصيل الدقيقة، لذلك فهم يحثونهم على توفير الصور والخرائط والوثائق التدعيمية الأخرى، كما أنهم يقومون بعمليات تأكيد مزدوجة من التقارير، ويستخدمون عادة عملاء آخرين من نفس المنطقة، لتأكيد صدق المعلومات التي تصلهم.

ونظرًا لعدم وجود مكاتب للموساد يديرها ضباط إسرائيليون في البلاد العربية، أو جواسيس لإسرائيل يعملون تحت غطاء دبلوماسي، فالموساد كما يقول الأميركيون "ضعيفة في الحصول على جواسيس في وظائف عالية في الأجهزة العربية" ولكن جواسيسها في البلاد العربية، كما يقول خبراء آخرون، مع عدم وجود سفارات، شحذوا مهاراتهم وأجبروا على تطوير وسائل سرية للتغلغل في المجتمع العربي.

فقد استغلوا سلاح الجنس على أوسع نطاق، معتمدين على العادات والتقاليد العربية المحافظة، ولجأوا إلى وسائل شيطانية في تهديد وفضح كل من يرفض التعامل معهم، إلى جانب الأموال الطائلة التي لم يبخلوا بها على الخونة، ليخلصوا في "خيانتهم" وينتزعوا روح الوطنية والانتماء من وجدانهم...

فجأة.. ألقي القبض على مكرم الصو، حسبما أشيع، بسبب بلاغ للأمن من مجهول، بتهمة تدبير جريمة قتل نهيرة. وبعد تحقيقات طويلة على مدار عدة أيام لم يثبت ضده دليل واحد.. فأفرج عنه.

ومنذ ألقي القبض عليه، أوقفت شبكة فيكتور نشاطها وجمدت اتصالاتها، ومذعورًا هرب فيكتور وشاولا إلى البصرة ومنها تسللا إلى ميناء عبادان الإيراني، حيث ساعدهما عبد الزهرة، بديل سليماني، في اجتياز الحدود. أما مليكة،

فقد رفضت الهرب معهما إلى إيران، وأسرعت هاربة بأوراق مزورة إلى شقيقتها تمرة بالأردن.

وظل ضباط الموساد في عبدان يلتقطون الأخبار عن مكرم، إلى أن تمكن أحد العملاء من مقابلته، وتأكد لديه أن المخابرات العراقية لا تعلم بأمر الشبكة، وأن إلقاء القبض عليه كان للتحقيق الأمني، بخصوص حادث زوجته، إثر بلاغ مجهول يتهمه بأنه القاتل.

كانت الخطة قد أعدت بإحكام، وبات أمر إلقاء القبض على فيكتور وحريمه مرهونًا بثقة رجال الموساد في بغداد، في أن اعتقال مكرم كان للتحقيق في حادث مقتل زوجته لا أكثر، وأنه لا بد لأحدهم من أن يتصل بمكرم إن عاجلاً أو آجلاً..

وبرغم ذلك تخوف فيكتور من العودة إلى بغداد، لكن زادت عليه الضغوط من الموساد، خاصة وعملاء شبكته دائمي البحث عنه. فعاد إلى بغداد هو وزوجته أكثر جنبًا ورعبًا...

ما لم يكن يعلمه فيكتور أو عملاء الموساد في بغداد، أن مكرم ندم ندمًا شديدًا على خيانته لوطنه، فعندما كاشفته شاولا بالحقيقة وهددته بالصور الفاضحة، وأظهرت له العديد من الأوراق والمستندات السرية الخاصة بعمله، تملكته الحيرة، وتساءل كثيرًا بينه وبين نفسه، عن كيفية حصولهم على نسخة منها، وفي جلسة عاصفة مع نهيرة استدرجها لتعترف فأنكرت، ولم يكن يظن أبدًا أنه قد يقتلها، وذلك عندما كبلها - للتهديد - وشدها بحبل يتدلى من السقف، لكن إصرار نهيرة على الإنكار أصابه بحالة هياج مجنونة، فجذب الحبل بقوة وهو يحثها على الاعتراف فلم يتلق إجابة، بل كان هناك فقط صمت مطبق مع ارتجافة الأطراف المكبلة، ثم خمدت الحركة إلى الأبد.

وبرغم عدم ثبوت أدلة ضده، كان يقوم فزعًا كل ليلة وينظـر إلـى سقف حجرتـه، ويئن بصوت مكتوم لمشهد الرعب في عيني زوجته، وصوت الحشرجة الأخيرة الـذي يطارده في اليقظة والمنام.

لقد أراد مكرم أن يستريح فذهب بنفسه إلى الشرطة وأخبرهم بالحقيقة، ولمّا ضغطوا عليه ليعرفوا سبب شنقه لزوجته، اعترف تفصيليًا بأمر شبكة فيكتور، وكيفية اصطياده وتهديده. فهرب فيكتور وشاولا ومليكة قبلما يتم اعترافه، واتخذت السلطات الأمنية التدابير اللازمة لضبطهم، ووضعت لذلك خطة محكمة، تلخصت في الإفراج عن مكرم لطمأنة أعضاء الشبكة.

هذا ما توقعوه بالفعل. إذ سرعان ما عاد فيكتور وزوجته من إيران لجمع شمل العملاء الذين تفرقوا، وزارهما مكرم "حسب الخطة المرسومة".. فأعاد إليهما الأمان، وشرعا في الاتصال ببقية العملاء من جديد.

أما مليكة.. فقد أقنعت تمرة بالعودة معها إلى العراق بعدما اتصلت بفيكتور واطمأنت. وعلى الحدود، أدرك تمرة زوجها الأردني حانقًا وعاد بها إلى عمان، وما أن دخلت مليكة الأراضي العراقية حتى ألقي القبض عليها، ودون أن يعلم فيكتور، ظلت خاضعة للتحقيقات ثلاثة أيام أفشت أثناءها بكل الأسرار والأسماء.

وعندما اقتحمت قوات الأمن منزل شقيقها، كان المشهد غاية في العجب، فقد كانت شاولا ترقص عارية تمامًا هي وفتاتان أخريان، وسط ثلاثة عشر رجلاً كانوا يترنحون بفعل الخمر والنشوة، وفي إحدى الزوايا كان فيكتور يسجل ما سمعه من أفواه "المساطيل" في عدة صفحات.

وعندما حاول الهرب بالقفز من النافذة، انقض عليه أحد الضباط وطرحه أرضًا، واقتيدوا جميعًا مكبلين لمبنى المخابرات العراقية. وأسفرت عملية تفتيش المنزل عن

ضبط قائمة بأسماء بقية الأعضاء، وإيصالات استلام مبالغ نقدية، وكشوف بمرتباتهم ومكافآتهم، وجهاز راديو خاص يستقبل من خلاله الأوامر، وحقيبة سفر صغيرة تحوي صورًا لمواقع عسكرية، ومستندات هامة مختلفة، استطاع فيكتور جمعها خلال أحد عشر يومًا فقط، هي المدة التي مارس نشاطه خلالها منذ عاد من إيران، وكان أثناءها تحت السيطرة الأمنية طوال أربعة وعشرين ساعة.

وأخطأ الأمن العراقي الذي لم يراع بعض الضرورات الأمنية الهامة، عندما ترك مليكة "الحامل في شهرها الرابع" طليقة دون قيد داخل الزنزانة الانفرادية، إذ تمكنت بواسطة نتوء في الجدار من قطع شريان يدها، وانتحرت في آذار ـ مارس ١٩٦٨ قبل مثولها أمام المحكمة.

أما فيكتور فقد حوكم ومعه ستة عشر آخرين ليعدم شنقًا في تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩٦٨ ومعه شاولا وثلاثة من اليهود، بالإضافة إلى مكرم الصو.

وبإعدامهم.. لم تتوقف أعمال الجاسوسية الإسرائيلية في العراق، فقد كانت شبكة فيكتور مناحيم وحريمه، مجرد سطور قليلة في ملفات الخيانة، وإحدى عمليات الحرب السرية بين المخابرات العراقية وجهاز الموساد الإسرائيلي[١].

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص٣٤٩ ـ ٣٦٠.

عبد الله سليمان: الجاسوس الدميم[1]

تفشت ظاهرة الخيانة بين يهود العراق، واستفحل هذا الداء واسشرى، خاصة في ستينات القرن العشرين، الذي نشطت فيه الحروب السرية بشكل لم يسبق له مثيل، إذ كلما ضبطت الأجهزة الأمنية في العراق إحدى شبكات الجاسوسية، تكونت بدلاً منها شبكتان. كأن الجاسوسية حالة إدمان يصعب شفاؤها.

وبرغم الأحكام القاسية والمفترض أن تكون رادعة، في ظل قانون حاسم قوي لا يرحم، إلا أن الخونة أخذوا في الازدياد والتكاثر، لا ترهبهم قصص الجواسيس المنشورة بالصحف، أو أحكام الإعدام التي تنفذ، فالدعاية اليهودية كانت تروج الأكاذيب، وتدّعي أن محاكمات "العملاء" محض افتراء ودعاية محسوبة، لتخويف المتعاونين المخلصين مع الموساد، وإرباك تحركاتهم ونشاطاتهم، وبالتالي الوقوع في أخطاء قد تقودهم لحبل المشنقة.

من بين هؤلاء الخونة الذين صدقوا الأكذوبة الإسرائيلية.. عبد الله سليمان العراقي ذو الجذور اليهودية.

ولد عبدالله عام ١٩٣١ بمدينة "الحلة" الواقعة على نهر الحلة لأب عراقي وأم إيرانية، كان أبوها يهوديًا أعلن إسلامه كذبًا. وعندما وعى عبد الله الحياة، اكتشف حقارة مهنة أبيه "جسّاس المواشي"، وهو رجل خبير في استبيان الحمل عند المواشي من عدمه. لذلك سعى بشدة للتفوق في دراسته ليلتحق بجامعة بغداد، بعيدًا عن الحلة التي كره الإقامة بها، وتحقق حلمه بعد طول معاناة.

فبعد أربعة أعوام في الجامعة حصل على إجازة في الآداب، وعمل بالتدريس بإحدى مدارس العاصمة، وكان عمره في ذلك الوقت خمسة وعشرين عامًا تقريبًا.

لم يذق عبد الله للحب طعمًا في الجامعة أو قبلها، فوجهه ذو الأنف الضخم، وفكه البارز جدًّا، أبعدا عنه الفتيات، بل وأخافا الأطفال منه، لذلك فقد افتقد الحب والصديق، وانطوى على نفسه تغلفه الوحدة، وتقتله الحسرة والكراهية.

بدأت معاناته الحقيقية بمأساته في طفولته المبكرة، وفي المدرسة الإعدادية بحي الأعظمية، إذ اكتشف دمامة أخرى في صوته، جعلت من مخارج الحروف نشازًا يُضحك زملاءه بالمدرسة، ويجعله مصدر سخرية مؤلمة دائمًا، فاهتزت ثقته بنفسه وملأه الحقد على كل من حوله، وود لو أنه يمتلك المال الذي يعوض دمامته، لكنه سرعان ما أدرك مدى افتقاده للاثنين معًا، ولم يكن من السهل عليه أن يفك عقده النفسية، أو يحس ببعض الرضا، فشرنقة من العقد أحاطته، وحبسته داخل ظلمة لا حدود لها، حجبت عنه الأمل في إشراقة تتبدل معها حياته.

إنسان على شاكلته يعيش منفردًا، مزويًا في أركان المجتمع، لم يجد له منفذًا إلا في "الكولية"، والكولية مكان معلوم تمارس فيه الدعارة بأجر، وتوجد بمدن العراق الكبرى كوليات عدّة، حيث عثر عبدالله على ذاته بين أحضان غانية بالغت في الاهتمام به كزبون دائم. ذات مرة.. سألها عما دفعها لتمتهن الدعارة، فحكت له الكثير عن مأساتها، وكيف هربت من أهلها بعدما خدعها الحبيب، الذي مات في إحدى الحملات العسكرية على الأكراد، وكانت حاملاً منه، فلم تجد ملاذًا إلا بيت الكولية.

دموعها وهي تروي قصتها أوهمته بأنه أحبها. وسيطر عليه هذا الشعور الجميل، فلم ير غضاضة في عرض فكرة الزواج منها، ولكم كانت صدمته أشد قسوة عندما رفضته.. بسبب دمامته.

حينئذ.. تصاعدت مأساته إلى ذروتها، وغادر بيت الكوليه يجرجر خيبة أمله، تفوح منه الكراهية للحياة ولسائر الناس، وفي حجرته وقف أمام المرآة يتأمل وجهه، واستغرقه ذلك وقتًا طويلاً ليفيق على حقيقة أكدها لنفسه، أن الثراء أمر حتمي سيقرب الناس منه، ويجعلهم يتغاضون عن ملامحه الغير مقبولة، فإن للمال سحرًا خاصًا ووهجًا حلو المذاق يدير الرؤوس، فلا بد إذن من الوصول إليه مهما كانت المصاعب، وبدأ في تنفيذ سياسة تقشف كتلك التي تلجأ إليها الدول النامية لتحسين أوضاعها، وأقسم على ألا يفسد خطة حياته المستقبلية، في أحلك الأزمات عنفًا، بإنفاق دينار في غير مكانه.

كانت الدنانير الستة والثلاثين، وهي كل راتبه، مبلغًا محترمًا في ذلك الوقت، وحسب الخطة التقشفية التي وضعها لنفسه، استطاع أن يدخر نصف راتبه، ممتنعًا عن أبسط مظاهر الرفاهية.

ومرت به خمس سنوات عجاف، اعتاد خلالها الحرمان والجوع والبرد، ضاربًا بكل إغراءات الحياة عرض الحائط. حتى أقدم على خطبة فتاة فقيرة اسمها "سهيلة"، عاندها الحظ في اللحاق بقطار الزواج لحوَل واضح بعينيها، فوافقت على الزواج منه راضية بما قسم لها، وعاشا معًا بمسكن متواضع بحي الكاظمية، كلاهما يشعر ببساطة حظه في الحياة.

بعدما استنزف الزواج غالبية مدخراته، هاجت لديه أحلام الثراء من جديد، فانبرى بسهيلة ذات ليلة يذيقها معسول الكلام، ثم فاتحها بفكرة راودته طويلاً من قبل، وهي استئجار مطعم صغير بثمن مصاغها، تقوم على إدارته بنفسها طوال تواجده بعمله، لكنها بدلاً من الموافقة أعلمته بخبر مولودهما القادم، فزلزله الأمر وغرق في تفكير عميق، فمن أين له بمصاريف الضيف القادم؟ وأخيرًا لم يجد مفرًا من العمل فترة

مسائية، فجاب شوارع بغداد يسعى إلى عمل إضافي، إلى أن اهتدى بعد لأي إلى يهودي اسمه "خوجة زلخا"، كلفه بمساعدة ابنته المعاقة في دروسها.

سر عبد الله كثيرًا ولم يُضع وقتًا، وقال في نفسه إنها فرصة طيبة يجب أن يستغلها جيدًا، إذ ربما تفتح له أبوابًا أخرى للرزق.

قادته الخطى إلى حي الرصافة بوسط بغداد، حيث بيوت الأثرياء ذات الحدائق والأسوار، وقصور طالما مر أمامها كثيرًا فكانت تثور برأسه آلاف الأسئلة، ويردد: هل ساكنوها تلسعهم أحيانًا عضات الجوع والعوز؟ أي أناس هم؟ وكيف يعيشون على ضفة دجلة؟

أفاق أمام منزل خوجة زلخا، وقاده خادم عجوز إلى حجرة الصالون، فراعه كل ما وقعت عيناه عليه، وانتبه لخطوات تبدو قادمة، فقام مسرعًا وتهيأ للقاء، وبينما يهذب قميصه ويتحسس هندامه، كانت هي بالباب تبتسم، اقتربت منه محيية مرحبة في لطف، وعندما مدت يدها اليسرى للسلام، لاحظ قصرًا كبيرًا بيدها اليمنى، ناتجًا عن عيب سببه لها شلل الأطفال. دخل في إثرها زلخا مرحبًا ودودًا، وهتف قائلاً: "ابنتي إيرينا" التي جئت من أجلها، أريدك أن تعلمها الإملاء والحساب، ودعاه لزيارة تلميذته في أي وقت، ولا يبخل عليها بعمله الغزير.

جلس عبد الله كالتلميذ أمام إيرينا ذات السبعة عشر ربيعًا، ألجم حسنها لسانه، وانتشى لبشاشتها معه وتبسطها في الحديث، ولم يلحظ في عينيها تلك النظرة الموجعة التي اعتادها طوال سني عمره الـ ٣٥، فأحاط نفسه بأفكار وأوهام عديدة، صورت له خيالات الحب وارتعاشات نبضاته، وود لو أنه لثم أظافرها في خلوتهما التي تطول وتطول، فلكم كان يتمنى ألا يمضي الوقت لينصرف مغادرًا قصر الأحلام ومليكته، إلى منزله الرطب الموحش ووجه سهيلة الحولاء.

اختلس ذات مرة لمسة من يدها، بدت كما لو أنه يعلمها ضبط الحروف، فاقترب بوجهه منها، وحانت منه التفاتة إلى صدرها المتكور في انحناءاتها، فانتفض بدنه كله لمرأى الوادي الأسيل، وأسكرته رائحة العطر الفواح يتخلل جسدها المثير، وشهق كمن يستغيث فانتبهت، وأدارت وجهها فجأة تجاهه فلامس خدها خده، لينكب كالثور الجائع على شفتيها يمتص رحيق الشهد ومذاقات العسل العسول.

غابت الصغيرة بين أحضانه مستسلمة وهو يداعب أنوثتها، ويوقظ لديها رغبات دفينة تأججت نيرانها، وعاد بعدها زاحفًا إلى بيته لا يدري كيف حملت ساقاه سكيرًا لم يذق خمرًا...

لقد نشأ منذ البداية هشًا كارهًا للناس، ناقمًا على ظروفه ودمامته، يحلم بالمال الذي سيجلب له العطف والحب، وعندما أدركهما عند إيرينا المراهقة اليهودية، أسلم قياده بل حياته كلها رخيصة لأجل لحظة حب.

هكذا يسقط الضعفاء سقوطًا مدويًا سهلاً وقد عصرتهم المعاناة بأشكالها المختلفة، فهم تمردوا على واقعهم وداسوا القيم، لأجل لذة ما حرموا منها، والبحث عن هؤلاء في خضم البشر المتماوج، هين عند الخبراء وصائدي الجواسيس، ذوي الأنوف الماهرة في التقاط رائحة الضعف لديهم.

وقد يتساءل المرء: ماذا سيقدم هذا الدميم المزوي المنبوذ إلى المخابرات الإسرائيلية؟ والمتتبع جيدًا لقصص الخونة، سيرى أن حالة عبد الله سليمان ليست فريدة في عالم الجاسوسية، فالموساد كغيرها من أجهزة المخابرات العالمية الأخرى، تتخير جواسيسها من كل الفئات والألوان والثقافات دون تمييز، فما يهم هنا هو الإخلاص في العمل.. والولاء اللانهائي.

فقد كان هناك الجاسوس المصري سليمان سلمان، راعي الإبل ابن سيناء، الذي كان لا يقرأ ولا يكتب، جندته الموساد بعدما محت أميته، ودربته تدريبًا مكثفًا على فنون التجسس، وابتكرت له شيفرة خاصة تعتمد على الحروف الأبجدية العربية والصور، يستطيع بها بث رسائله من خلال جهاز اللاسلكي المتطور الذي سلموه له، فماذا كانت الموساد تنتظر من هذا الأمي، الذي سقط وأعدم بسبب خيانته وغبائه؟ إذن فلا نندهش أمام حالة هذا الجاسوس العراقي الدميم...

فعالم الجاسوسية الغامض المثير مليء بالأسرار والمتناقضات، لذا.. فهي حقًا مثيرة جدًا، قصص الخونة والجواسيس، تستهوي العقول على اختلاف مداركها وثقافاتها، وتنقلها إلى عوالم غريبة، مختلفة، تضج بعجائب الخلق وشواذ الأنفس، فعلماء الاجتماع والسلوك عجزوا في فهم الخونة، وفشلوا في الكشف عن بذور الخيانة لديهم، أين توجد؟.. وكيف تمددت لتتشبث جذورها بالشرايين عندهم والخلايا وتتحول في لحظات إلى أحراش مظلمة بأعماقهم؟ فلكل جاسوس قصة، ولكل خائن حكاية غلفها العجب، وسربلها الجنون...

لم يدر بخلد عبد الله سليمان أن هناك عقولاً تخطط كي يسقط، أو أن إيرينا الصغيرة التي بشت له، كانت وسيلة جَرّه واصطياده، وكانت بشاشتها وملاحتها مجرد طعم لاستدراجه إلى وكر الجاسوسية. فبعدما احتواها في المرة الأولى، استعذب مذاقها وطمع في المزيد، فنهرته بلطف أقرب إلى تمنع الرغبة.

ففي بيتها التقى باليهودي الإيراني عوازي سليمان، عميل الموساد المدرب، ودارت بينهما الأحاديث المطولة، التي استشف منها العميل أن عبد الله لا يحلم سوى بالثراء، فلعب جيدًا على هذا الوتر، وَطَيَّر بخياله إلى أحلام طالما عايشته في اليقظة، فهتفت نفسه إلى صعود درجات الغنى، مهما كان الثمن فادحًا.

ولتكتمل خطوط القصة.. أوهمه عوازي بأنه يمتلك عقلية فذة، وهو بحاجة إليه لإدارة إحدى مؤسساته التجارية التي يزمع إقامتها في بغداد، ومنحه مائتي دينار مقابل عمل دراسة اقتصادية للسوق.

نشط عبد الله في البحث والتحري، وكتابة تقارير اقتصادية مستمدة من ملفات وزارة الاقتصاد، حصل عليها بمساعدة زميل دراسة اسمه جواد مقابل أربعين دينارًا.

أدهشت التقارير عميل الموساد، إلا أنه أخفى دهشته وادعى تفاهتها، وفوجئ عندما صارحته إيرينا في انفرادهما بأنها تحبه، وطلبت منه أن يبذل قصارى جهده في التعاون مع عوازي، كي تنتعش أحواله المادية فيتزوجا.

فقد عقله أمام اعترافها بحبه، ولم يسأل نفسه لماذا؟ أعبقرية فجائية ظهرت عليه؟ أم أن دمامته تبدلت بالوسامة والجاذبية... وخاضعًا وعدها بألا يتوانى في العمل من أجل الفوز بها، عازمًا على خوض الصعاب بلا ضجر أو كلل. هكذا كانت البداية. ومن هنا تبدأ عملية صناعة الجاسوس...

كان على قناعة تامة بأنه "أخضر" لم يشب بعد، ولذلك استسلم لمعلمه عوازي يشرب على يديه حرفته الجديدة، فأخضعه لدورات أولية في جس نبض الشارع، واستطلاع آراء العامة من الناس في السياسة الاقتصاد، وكيفية تلقط الأخبار والأسرار، زاعمًا له أن هذا مفيد جدًا للمؤسسة التجارية، حريصًا على ألا يتفهم الجاسوس الجديد طبيعة مهمته، حتى لا يتصرف بحماقة فتفشل المهمة.

وانطلق عبد الله يجمع المعلومات ويحصدها حصدًا، لعله ينال رضا إيرينا وعوازي فتتبدل حياته، ويقترب من تحقيق الحلم. وللمرة الثانية يتهمه العميل الإسرائيلي، بأنه يجلب معلومات مهمشة لا قيمة لها ولا نفع، فيسأله عبد الله سؤالاً

ساذجًا: ما لهذه الأمور والمؤسسة التجارية؟ وكأنه ضغط على مفتاح تفجير الديناميت بسؤاله البريء، ما الذي جرى؟ سألت إيرينا محتدة.. تلعثمت الإجابة على لسانه، وعاوده شعوره القديم بالخوف والضياع، صرخت به ثانية تسأله: ماذا فعلت؟ لم ينطق. الدهشة الممزوجة بتقلصات التوتر تملأ وجهه. يتركهما عوازي ويخرج فتعاوده جرأته شيئًا فشيئًا فيسأل إيرينا: ما العمل؟ تتركه هي الأخرى يغرق في اضطرابه، وتلحق بعوازي في حديقة المنزل.

كان عوزاي هادئًا مبتسمًا على عكس حاله مع عبد الله منذ ثوان. وحدثها ببضع كلمات فعادت إلى تلميذها الخائب، فما ألطفه من تلميذ يجلس على حافة المقعد يفرك يديه قلقًا.. تستغيث بها نظراته اللهفى..

برقة فيها ملاحة وذكاء، أفهمته مدى الخطأ الذي ارتكبه عندما سأل عوازي، وطلبت منه ألا يعاود السؤال مرة أخرى عما يطلب منه من معلومات أو إيضاحات. فالعمل التجاري سوف يفشل إذا لم تكن هناك دراسة متأنية عن أحوال البلد تجاريًا.. واقتصاديًا.. وعسكريًّا؟

دخل عوازي الغرفة في تلك اللحظة ليقرأ دهشة عبد الله فيعقّب: "نعم يا صديقي. مهم جدًّا أن نعرف كل شيء كي لا نضحي بأموالنا هباء. نحن مجموعة من رجال الأعمال الإيرانيين، نود إقامة مشروعنا في أمان، فماذا لو أن هناك اضطرابات في السوق العراقي؟ ألا يجب أن نطمئن لنعمل بثقة؟ فاستقرار السوق هنا واضطرابه له صلة وثيقة بالسياسة. والجيش يتحرك تبعًا للسياسة.

"وضحت المسألة إذن؟"، سألت إيرينا وأردفت: "قم معي عبد الله اشتقت الآن لدروسي"... وأغلقت حجرتها وراءهما قبل أن تستجيب لشراهة قبلته، وطالبته راجية بألا يقصر في مهمته التي ستعود عليهما معًا بالخير الوفير...

منذ ذلك الحين انطلق عبد الله بلا أدنى خوف أو قلق، تدفعه رجاءات إيرينا ولهفته عليها، وبعد أربعة أشهر اكتشف حقيقة مهمته وظن أنه يعمل لصالح السافاك في إيران، وبرغم ذلك.. لم يتوقف أو يتخذ مسارًا عكسيًّا، فقد كان المال وما يزال حلمه الأول الذي يسعى إليه. أمّا إيرينا فكانت حلمه الثاني الذي لن يتحقق إلا بالأول.

تعهده عوازي في كل زيارة له بدورات تصقل موهبته في إدارة الحوار، وملاحظة الأشياء بعيني جاسوس فاهم، وكانت لقاءاتهما تتم كالعادة في منزل خوجة زلخا، الذي اصطحب أسرته على حين فجأة إلى إيران، ودون أن تودعه الحبيبة الصغيرة إيرينا الوداع الأخير.

صدمته كانت قاسية برغم تأكيدات أستاذه بعودتهم، إلا أن إحساسًا تملكه بأنه لن يراها مرة ثانية، فقد وقعت نكسة ١٩٦٧ واتسع جرح الألم العربي، وظلت زوجته لأيام طوال تبكي فتعجب لأمرها، وقال لنفسه: لو لم تكن هذه الحرب ما هربت إيرينا.

.. ليس من السهل شراء الذمم فجأة. بل يتم ذلك بعد دراسة مستفيضة لكل الظروف النفسية والاحتمالات. هكذا يقر خبراء أجهزة المخابرات السوفياتية، أول من وضعوا قواعد علمية ثابتة للسيطرة على الجواسيس. إلا أن رجال الموساد، في حالات كثيرة، يرفضون العمل بنظرياتهم، فبينما يرى السوفيات أن محاصرة الشخص المطلوب تجنيده ومباغتته في أسرع وقت، دون أن يجد فرصة للتفكير، أسهل وسيلة لإخضاعه إذا ما كانت هناك أدلة، ولو ضعيفة، تدينه، ونجحوا في تأكيد ذلك من خلال تجنيد دبلوماسيين غربيين ذوي شأن، سقطوا بسهولة مدهشة في قبضتهم دونما مقاومة، فعلى النقيض من ذلك نجد أن الموساد قد تلجأ أحيانًا لوسائل وحيل غريبة، تستغرق وقتًا أطول من اللازم لإخضاع الجواسيس، والثقة في نظرية "تليين الهدف المتدرج" وعدم اللعب بأعصابه، أمر مهم عند الموساد. فهناك خونة كثيرون سقطوا في براثنها

دون أن يعلموا بأنهم عملاء لها. إنه إذن فن الإقناع والإيحـاء، ودراسـة سلوك العميـل ومداركه واعتقاداته، والمقدرة على تشكيل آرائه، بما يخدم قضيتهم التوسعية وأمنهم.

هذا التباين في أسلوب السيطرة ومدته، نلحظه أيضًا في شتى أجهزة الاستخبارات. فلكل جهاز أسلوبه القائم على نظريات وضعها خبراء متخصصـون، ولكنـه يـؤدي فـي النهاية إلى اصطياد العملاء وتجنيد الجواسيس، وهذا هو المهم.

خطـا عبد اللـه خطواتـه الأولـى كجاسوس، يعتقد بأنـه يعمـل لصـالح المخـابرات الإيرانية "السافاك"، ونشط جـاهدًا فـي البحث عـن أخبـار القواعـد الجويـة القريبـة مـن بغداد، وبالأخص قاعدة الرشيد الجوية، وملاحظة التغييرات والتجديدات بها. واسـتطاع أن يتوصل لأسماء أنواع جديدة من الردارات السوفياتية، وعندما حمل كاميرا التصـوير الصغيرة، التي في شكل ساعة اليد، عجز عن تشغيلها بمهارة وارتجـف سـاعده، وخبـأ الميكروفيلم بقاع سري بحقيبة يد صغيرة.

وفي رحلة أخرى لمعاودة التصوير اصطحب معـه زوجتـه، وفـي الطريـق بقـرب إحدى القواعد العسكرية، لاحظت سهيلة توتره وإتيانه بحركات غريبة ويده على كتفها.

لم تفهم في بادئ الأمر، ولما حدقت فـي السـاعة الغريبـة بعينـي فاحصـة، أدركـت الحقيقة. فكتمت سرها وراحت تراقب أفعاله وتصرفاته.. حتى اكتشـفت مخبـأ "السـاعة الكاميرا" في كعب حذائه الجديد، فأسرعت إلى مخفر الشرطة بالقرب من المسكن، ولـم يصدق الضابط الصغير اعترافها، فـأبلغ فورًا الأجهزة الأمنيـة المختصـة التـي قـامت بحملة مفاجئة تكتسح الدار فجرًا أثناء نومها، فترشد سهيلة عن الكاميرا، ويصـعـق عبـد الله لا يصدق أنها النهاية، وبينما عملية التفتيش مستمرة غافل عبدالله حراسه وضـرب رأسـه فـي عنـف بالحـائط، فحملوه بأنهار دمائـه إلـى التحقيـق، وكـانت أدلـة خيانتـه المضبوطة، بالإضافة إلى اعترافه، تذكرة دخوله لحجرة الإعدام.

هكذا غاصت أحلام الدميم في قاع الوهم، وظل طيلة أشهر المحاكمة مصرًا على أنه متورط مع السافاك لا مع إسرائيل. لكن القرائن كلها كانت تدينه، وتؤكد عمالته للموساد. إنها الحالة الأولى لجاسوس عراقي، خدعه أستاذه وأقنعه بأنه عميل لإيران. أو لنقل أنه ربما ادعى ذلك حتى آخر لحظة لينجو من الإعدام.

أيضًا.. إنها إحدى الحالات القليلة لجواسيس يعملون منفردين في العراق بلا شركاء، أو شبكة من العملاء المحليين.

وفي زنزانته الانفرادية الضيقة قبل أعدامه بأيام قليلة، أصيب بمغص حاد كاد يفتك به فنقلوه إلى المستشفى وأجروا له عملية الزائدة الدودية، ثم عاد إلى السجن ليعدم شنقًا في ٢٨ مارس ـ آذار ١٩٦٨، وعثروا في زنزانته على دفتر صغير سجل به مذكراته، وضمّنه أدق تفاصيل حياته وآماله التي لم تتحقق، وقد أفرد مساحة كبيرة لوصف حبه لإيرينا، وثقته بأنها أحبته كما أحبها.

لقد عاش عبد الله سليمان معقدًا.. مطحونًا.. واهمًا.. وأعدم وهو ما يزال واهمًا.. تحفه خرافات المشاعر، يأبى أن يصدق أنه كان غبيًّا.. أبلهًا.

أما سهيلة.. فقد وصلت أمنيتها لمسؤول كبير، فأرسل بها إلى "يوغوسلافيا" لإجراء عملية جراحية تقضي على "الحول" نهائيًّا.. وعادت إلى بغداد معافاة وكان بانتظارها ضابط من المخابرات العراقية، شد على كفها مهنئًا، وزف إليها خبر إعدام عبد الله، فعادت إلى منزلها تترقرق بعينيها الدموع.. دموع الحسرة، على مصير رفيق حياتها الخائن[1]...

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص٣٦٥ ـ ٣٧٣.

إبراهام موشيه: مولتي تشاو

ولد لأب يهودي إيطالي وأم هنغارية، وعاش سني مراهقته في الشمال بمدينة "تريستا" الساحرة المطلة على بحر الإدرياتيك، وخدعته الدعاية اليهودية عن أفران الغاز التي التهمت ستة ملايين يهودي في ألمانيا، وبهرته شعارات الصهيونية والحياة الراغدة لليهود في إسرائيل، فهاجر إليها مع أمه رينالدا بعد وفاة أبيه.

هناك خدم في جيش الدفاع الإسرائيلي ثم في جهاز الشين بيت "الأمن الداخلي"، وأظهر كفاءة عالية في قمع الفلسطينيين، وتجنيد بعض الخونة منهم لحساب الجهاز بعد إجادته التامة للغة العربية.

لكن حادثًا مفاجئًا قلب حياته بعد ذلك رأسًا على عقب، إذ ضبط أمه عارية في أحضان يهودي يمني، تمكن من الهرب بسرواله تاركًا بقية ملابسه، فأصيب بانتكاسة نفسية كبيرة، إذ كانت أمه تمثل لديه صورة رائعة لكل معاني الحب والكمال، ولم يتصور أن امرأة مثلها في التاسعة والأربعين، قد تسعى إلى طلب الجنس، وتتعاطاه مع السائق اليمني.

لحظتئذ.. قرر ألا يعيش في تل أبيب، وقدم استقالته من عمله وحمل حقيبته عائدًا إلى مسقط رأسه، عازمًا على أن يعيش بقية حياته أعزب، فطالما خانت أمه فلا أمان ولا ثقة بامرأة أخرى...

لكن "مايك هراري"، ضابط الموساد الإسرائيلي الذي كان يبحث عن ذوي الكفاءات المخلصين لـ"يطعم" بهم أقسام الموساد المختلفة، جد في البحث عن "روبرتو

بيترو" حتى أدركه في تريستا، إلا أنه فشل في إقناعه بالعودة معه إلى إسرائيل، وتركه أربعة أشهر ورجع إليه ثانية ليخبره بوفاة أمه، ويجدد دعوته له بالعمل معه في الموساد.

استطاع هراري بعد جهد العودة بروبرتو إلى تل أبيب، وألحقه فورًا بأكاديمية الجواسيس ليتخرج منها بعد ستة أشهر جاسوسًا محترفًا، يجيد كل فنون التجسس والتنكر والتمويه والقتل، عنده القدرة على تحمل صنوف التعذيب المختلفة، وأساليب الاستجواب الوحشية لإجباره على الاعتراف، إذا ما سقط في قبضة المخابرات العربية. فقد اكتشف خبراء الموساد مقدرته الفذة على مقاومة الألم، إلى جانب ذكائه الشديد وإجادته الإقناع بوجهه الطفولي البريء، الذي يخفي قلبًا لا يعرف الرحمة.

كل هذا.. يضاف إلى خبرته التي لا حدود لها في عالم الإلكترونيات، وتكنولوجيا الاتصالات، وموهبته الفائقة في تطوير أجهزة اللاسلكي، التي يستخدمها الجواسيس في بث رسائلهم.

منذ وصل روبرتو لفندق ريجنسي في بغداد، تتبعه السيارة الماسكوفيتش، وعقله لا يكف عن التفكير في من ذا الذي يراقبه ويقتفي أثره؟ أيكون ضابط مخابرات عراقيًا؟ أم أحد أعضاء الشبكة؟

استبدل ملابسه على عجل وخرج من باب الفندق يمسح المكان بعيني صقر باحثًا عن الماسكوفيتش فلا يجد لها أثرًا، وفي شارع السعدون توقف أمام إحدى واجهات المحلات وتأكد من خلال زجاجها العاكس بأن هناك من يراقبه، فاختفى فجأة بمدخل إحدى البنايات وتسمر بمكانه في الظلام، وبعد برهة دلف شبح مسرع فاصطدم به، وقبل أن تهوى على رأسه قبضة روبرتو الحديدية، صاح الشبح على الفور: "مولتي تشاو".

إنها كلمة السر المتفق عليها، ليس في بئر السلم، ولكن بمكتب الخدمات العامة، الواقع على بعد عدة بنايات ويمتلكه "أبراهام موشيه"، الذي كان يراقب روبرتو بنفسه، وأوشك الأخير أن يحطم فكه بقبضته.

لم يكن موشيه يهوديًا عراقيًا فحسب، بل زعيمًا محترفًا لشبكة جاسوسية إسرائيلية داخل العراق، استطاع أن يمد نشاطه حتى الكويت وسوريا، متخذًا من عمله في التجارة والاستيراد ستارًا يخفي وراءه حقيقته، وكانت له قصة مثيرة تستحق السرد.

كانت بدايته في ضاحية "دوما" بالقرب من دمشق. ولد لأم يهودية سورية، وأب يهودي عراقي يعمل دباغًا للجلود، امتلك ناصية الحرفة، وأقام مدبغة في بغداد بعد ستة أعوام من العمل الجاد في سوريا، إذ هرب فجأة إلى موطنه الأصلي ومعه أسرته الصغيرة، بعدما اتُّهم باغتصاب طفل دون العاشرة، فعاش في بغداد يحاصره الخوف من مطاردة أسرة الغلام أو السلطات السورية. لكنه لم يرتدع بعد هذه الحادثة، إذ واجهته هذه المرة تهمة اغتصاب طفل آخر في بغداد.

ولأنه أثرى ثراء فاحشًا، دفع مبلغًا كبيرًا لوالد الطفل رقيق الحال، فتبدلت الأقوال في محضر الشرطة، وخرج موشيه ببراءته، ليمارس شذوذه على نطاق أوسع مع غلمان مدبغته، إلى أن وجدت جثته ذات يوم طافية بأحد الأحواض المليئة بالمواد الكيماوية المستخدمة في الدباغة، وكان ابنه أبراهام وقتئذ في الثانية عشرة من عمره، وأخته الوحيدة ميسون على أعتاب السابعة.

باعت أمهما المدبغة وهربت بثمنها إلى مكان مجهول مع السمسار اليهودي الذي جلب لها المشتري، وتركتهما يواجهان مصيرهما لدى عمهما البخيل، ويتذوقان على يديه صنوف القهر والقسوة في كل لحظة. وأمام تلك المعاناة.. ترك أبراهام مدرسته، والتحق بالعمل كصبي بورشة لسبك الفضة يمتلكها تاجر يهودي، بينما عملت أخته

كخادمة بمنزل عمها مقابل الطعام، واكتشف أبراهام ميلا لديه للسرقة، فمارس هوايته بحذر شديد في سرقة المعدن الخام قبل سبكه ووزنه دون أن يلحظه أحد.

وما أن بلغ مرحلة المراهقة باندفاعها وطيشها، حتى ظهرت عنده أعراض الشذوذ كوالده، وإن كانت تختلف في الأسلوب والاتجاه.. فهرب بأخته ميسون إلى البصرة، وبين أمتعتها صندوق عجزا عن حمله، كان بداخله خام الفضة الذي سرقه على مدار عشر سنوات كاملة من العمل بالمسبك.

وهناك.. معتمدًا على خبرته الطويلة، أقام مسبكًا وضع به حصيلة مسروقاته، واكتسب شهرة كبيرة بين التجار، وأثرى ثراء فاحشًا بعد أربع سنوات في البصرة.

كانت ميسون في ذلك الوقت قد تعدت التاسعة عشرة، جميلة يانعة تحمل صفات أمها الدمشقية، ذات جسد ملفوف أهيف، ووجه اشقر تتوجه خيوط الذهب الناعمة، عيناها الناعستان كحبتي لؤلؤ تتوسطهما فيروزتان في لون البحر، وفم كبرعم زهرة يكتنز بالاحمرار والرواء، وأنوثة طاغية تشتهيها الأعين.

بيد أن الحب له طعم آخر، ولسع بديع يداعب الخيال، فتعزف الخفقات سيمفونية رائعة من أغاني الحياة. فعندما أحبت ميسون جارها وتمكنت منها المشاعر، هربت كأمها مع الحبيب إلى أقصى الشمال... إلى الموصل، فتزوجته مخلفة وراءها أبراهام يلعق الذكريات ويكتوي بنار الوحدة، تنهشه أحزانه فيتخبط مترنحًا، وتميد به الخطوات تسعى إلى حيث لا يدري، ويتحول إلى إنسان بائس.. ضعيف وحيد.

في هذا المناخ يسهل جدًّا احتواؤه بفتاة أخرى، تشفق عليه وتقترب منه عطوفة رقيقة، وهذا بالفعل ما حدث. إذ قربته "راحيل" إليها، ولازمته في قمة معاناته للدرجة التي يصعب عليه الابتعاد عنها.

ولأنها ابنة يهودي يعمل لحساب الموساد، وكان لها دور فعال في نشاطه التجسسي، استطاعت أن تضمه بسهولة إلى شبكة والدها. ولم لا..؟ إنه خائن بطبعه منذ الصغر، استاذ الخيانة عشر سنوات مع صاحب المسبك، وخان الشرف والأمانة عندما انتهك حرمة أخته، غير مبال بالدين أو القيم، فإن مثله معجون بالخيانة، ليس يصعب عليه أن يخون الوطن أيضًا، فكل القيم عنده طمست معالمها وغطاها الصدأ.

لقد بدت سهلة رحلته مع الجاسوسية بعدما تزوج من راحيل، وأخضع لدورات عديدة صنعت منه جاسوسًا، فانتقل إلى بغداد ليمارس مهامه الجديدة. ولم يكن يدرك أبدًا أن شبكته التي سيكوّنها في ما بعد، ستكون أشهر شبكات الجاسوسية في العراق قاطبة.

في بغداد استأجر أبراهام منزلاً رائعًا، وافتتح مكتبًا وهميًا للتجارة بشارع السعدون، والتحق بأحد المعاهد المختصة بتعليم اللغة الإنكليزية، وجند أول ما جند شابًا يهوديًا يعمل مترجمًا للغة الروسية، له علاقات واسعة بذوي المناصب الحساسة في الدولة، كثير السفر إلى موسكو بصحبة الوفود الرسمية، كان دائمًا ما يجيء محملاً بالسلع والكماليات، معتمدًا على أبراهام في تصريفها.

كان تجنيده بعيدًا تمامًا عن الجنس أو المال. إذ كان "شوالم" غالبًا ما يحكي لأبراهام أسرار سفرياته وتفاصيل ما يدور هناك بين الوفدين العراقي والسوفياتي، ولم يكن يخطر بباله أن أحاديثه مع إبراهام كانت كلها مسجلة.

وعندما استدرجه ذات مرة للخوض في أدق الأسرار، تشكك شوالم في نواياه فامتقع وجهه واستبد به الخوف، وعلى الفور عالجه أبراهام بالحقيقة، وأكد له بأنه استفاد كثيرًا من أحاديثه ونقلها حرفيًا للإسرائيليين، فحاول الشاب أن يفلت بجلده من مصيدة الجاسوسية، لكن شرائط التسجيل المسجلة بصوته كبلته، فخضع مضطرًا

لابتزاز عميل الموساد. وكانت تجربته الأولى الناجحة قد زادته ثقة في نفسه، وأخذ يبتز شوالم إلى آخر مدى.

فمن خلاله تعرف أبراهام على مهندس يهودي، يعمل بأحد مصانع الإسمنت في بغداد، تردد كثيرًا على منزله برفقة شوالم في بادئ الأمر، ثم بمفرده بعد ذلك حيث شاغلته راحيل برقة متناهية، وأوحت إليه نظراتها وابتسامتها السحرية بعالم آخر من المتعة، لكنها لم تعطه شيئًا مما أراد، وأيضًا لم تتجاهله. فحيره أمرها كثيرًا، وما بين شكوكه في تصرفاتها حياله، واستغراقه في تفسيرها، أدمن رؤيتها طامعًا في ما هو أكثر، ليستسلم في النهاية صاغرًا، ويستجيب لأوامرها عندما طلبت منه معلومات عن المواقع العسكرية التي تتسلم حصص الأسمنت.

وعندما سلمته أربعمائة دينار مقابل خدماته، صدمته الحقيقة التي تكشفت له، فهونت عليه الأمر وشرحت له الكثير عن واجب اليهود إزاء وطنهم الجديد، إسرائيل، وأمام فتنتها القاتلة لم يتبرم أو يعترض، بل تطوع، إرضاء لها، بجلب المعلومات الحيوية دون تكليف منها، عازفًا عن العمل بمقابل مادي لقاء خدماته، على أمل الهجرة إلى إسرائيل في أقرب فرصة، وتوفير فرصة عمل له هناك. ولما أدركت هي ما يصبو إليه، لعبت على أوتار أمنيته، ووعدته بتحقيقها في القريب العاجل.

استتر أبراهام خلف مكتبه التجاري، وزيادة في التمويه.. قام بشحن كمية من فاكهة البرتقال إلى الكويت، بواسطة سيارة نقل كبيرة مبرّدة، يقودها سوري عربيد من السويداء، يعشق الخمر العراقي والنساء، له زوجة في درعا، وأخرى عراقية في المقدادية، وثالثة إيرانية في كرمشاه.

كان السائق زنديقًا اسمه "خازن" وشهرته "شاخص" لشخوص واضح في عينيه، استطاع هذا الخازن أن ينال ثقة أبراهام خلال فترة وجيزة من العمل لديه في نقل

الفاكهة إلى الكويت، ولأنه سائق فقط على البرادة، تسلل أبراهام إلى عقله ووجدانه، ووعده بأن يمتلك مثلها إذا أخلص إليه "وتعاون" معه.

في إحدى زياراته لزوجته السورية، تمكن شاخص من الحصول على بعض المعلومات التي تتصل بالتحركات العسكرية السورية على الجبهة، وبعض القواعد الجوية التي تطورت منشآتها وتحصيناتها، كما وطد علاقته بأحد المتطوعين في الجيش السوري من أقرباء زوجته، استطاع بواسطة الهدايا التي أغدقها عليه، أن يتعرف من خلاله على أسرار هامة، تمس أمورًا عسكرية روتينية ويومية، قام بنقلها إلى أبراهام بأمانة شديدة، فمنحه مبلغًا كبيرًا شجعه على أن يكون أكثر إخلاصًا في البحث عن المعلومات العسكرية، ليس في سوريا فحسب، بل وفي الكويت أيضًا.

كانت الكويت في ذلك الوقت إمارة صغيرة غنية، سمحت للعديد من العراقيين والإيرانيين بالإقامة وببعض حقوق المواطنة، فضلاً عن العديد من أبناء الجنسيات العربية الأخرى الذين تواجدوا بها منذ سنوات طويلة. ومن بين هؤلاء كانت توجد نفوس ضعيفة يسهل شراؤها، خاصة أولئك الذين يشعرون بالدونية وبأنهم مواطنون من الدرجة الأدنى.

استطاع خازن أن يستثمر ذلك جيدًا في شراء ذمم بعضهم، وحصل على معلومات دقيقة عن أنواع الأسلحة المتطورة في الكويت، ومخازنها، ونُظم التدريب عليها، وعدد المنخرطين في الجيش الكويتي، وبعثات الطيارين في الدول المختلفة.

وامتد نشاطه الأفعواني إلى دول الخليج العربي وإماراته الأخرى. فتمكن بذلك أبراهام من تجميع ملفات كاملة، تحوي الكثير من المعلومات العسكرية والاقتصادية والتجارية عن الكويت ومنطقة الخليج.

تحير ضباط الموساد في أمر عميلهم أبراهام، فإخلاصه يزيد كثيرًا عن الحد المعهود، ونشاطه التجسسي يتطور ويمتد ليشمل بخلاف العراق دول الخليج وسوريا. وكان لا بد من حمايته كي لا يغترّ بنفسه فينكشف أمره، وحمايته ليست بالطبع بواسطة حراس مسلحين، وإنما بتدريبه تدريبًا خاصًا لرفع الحس الأمني لديه، والوصول بكفاءته كجاسوس محترف إلى درجة أعلى في الخبرة والمهارة، فاستُدعي للسفر إلى عبادان على وجه السرعة، حيث كان ينتظره خبيران من الموساد أحدهما "روبرتو بيترو"، الذي جاء خصيصًا من أجله. ولأنّ أبراهام يحمل ترخيصًا تجاريًّا، لم تواجهه مشكلة في مغادرة العراق.

مكث أبراهام معهما تسعة عشر يومًا، أُخضع أثناءها لدورات مكثفة في كيفية فرز المعلومات وتنقيتها، والسيطرة على هذا الكم الهائل من العملاء الذين يدينون بالولاء لإسرائيل، هذا فضلاً عن تدريبه على كيفية الإرسال بالشيفرة، بواسطة جهاز لاسلكي متطور أمدوه به بالإضافة إلى جهاز لاستقبال الأوامر. ورجع أبراهام إلى العراق يزهو بالحفاوة التي قوبل بها، وبالتدريب الجيد الذي ناله، وبالأموال الطائلة التي ما حلم بمثلها يومًا.

سرّت راحيل بالهدايا الثمينة التي حملها إليها، وجهاز الراديو الترانزستور الحديث بين أمتعته، والذي هو في الأصل جهاز لاسلكي تتعدى قيمته عشرات الآلاف من الدولارات. وفي أولى رسائله إلى الموساد طمأنهم على وصوله بسلام، وبثهم تحيات زوجته، وتلقى ردًّا يفيد عن استلام رسالته، وتمنياتهم الطيبة لهما بعمل موفق.

في الحال شرع أبراهام في الاتصال بأعضاء الشبكة، وطلب منهم معلومات محددة كل حسب تخصصه، وأمدهم بآلاف الدينارات ليغدقوها على عملائهم، فأثبت كفاءة عالية في إدارة شبكته بمهارة.

وذات يوم بينما كان في الموصل، لم يصدّق عيناه وهو يقف وجهًا لوجه أمام ميسون في أحد الميادين، وحين ألجمتها المفاجأة أسرعت بالفرار وسط الزحام تتلفت خلفها، بينما غادر سيارته الماسكوفيتش ملهوفًا وأسرع وراءها، تمر برأسه ألوان من الذكريات البعيدة لم يستطع نسيانها. فلما أدركها، ملتاعة صرخت، فطمأنتها نظراته المليئة بالحب والشوق، ومشت معه إلى السيارة ترتعد، وقد انحبست الكلمات في حلقومها.

وفي الطريق إلى منزلها.. عاتبها كثيرًا، وشكا لها قسوة المعاناة التي عايشها من بعد هروبها، وعلى المقود هجمت عليه أشجانه، وغلبته دموعه فاستسلم لها، في حين شهقت أخته باكية تستعطفه، وترجوه أن ينسى ما كان بينهما، وأشارت إلى بطنها المنتفخ قائلة إنه الابن الثالث لها.

لكن يهوديًا خائنًا وشاذًا مثله، لم يكن مؤهلاً لأن يستجيب لرجفة الخوف والضعف عند.. أخته. فما إن وصلا إلى منزلها، وكان خاليًا من زوجها، إلا وطالبها بحمل مستلزماتها وولديها والعودة معه إلى بغداد. رفضت ميسون مسترحمة، فانهال عليها ضربًا وركلاً غير مبال بصراخ الصغيرين، وأمام إصرارها على الرفض طالبها بحقه.. فيها...

رجع لبغداد مكدرًا ليجد راحيل تعاني آلام الحمل الأول في شهوره الأخيرة. وبعد أسبوع أخذها في الفجر إلى المستشفى، حيث ولدت جنينًا ميتًا سرعان ما لحقت به هي الأخرى بسبب حمى النفاث، كأنما أراد الله أن يقطع ذريته إلى الأبد، ويحرمه من مشاعر الأبوة فيظل وحيدًا كشجرة جافة بلا جذور، تطيح بها الأنواء فتتكسر.

ولأول مرة منذ هجرته ميسون في البصرة، فتكت به الوحد واعتصرته الأحزان، فاختنقت لديه مباهج الحياة، وكوت اللوعة عظامه وزلزلت عقله، وفقد شهيته للعمل،

وانزوى في ضعف يسربله الخوف والوهن، ونفرت منة اندفاعات الجرأة إلى حيث لا مستقر.

في تل أبيب اجتمع ضابط الارتباط بمرؤوسيه، وقرأ عليهم رسالة عاجلة بثت في بغداد تقول:

"دوف: أمرّ بظروف نفسية معقدة.. لا أستطيع الاستمرار في العمل.. لن أكون ذا نفع لكم من الآن.. ابعثوا بمن يقود المجموعة.. سأنتظر ردكم بلا أوامر في الميعاد شالوم".

وجم الجميع، فإرشادات الرسالة ورموزها السرية صحيحة، بما يفسر عدم وقوع العميل في قبضة المخابرات العراقية. ماذا حدث إذن؟

كانت هناك شكوك في فحوى الرسالة، فهي إحدى المرات القلائل، الوحيدة التي يتسلم فيها الموساد رسالة غامضة كهذه من عميل نشط. وفسر البعض ذلك بأنه ربما كشف أمره واعترف بكل شيء، وضبطت بنوطة الشيفرة رموز الاستهلال والختام السرية المتفق عليها. لكن ضابط الارتباط استبعد ذلك، فالعميل يحفظ الرموز جيدًا عن ظهر قلب ودرب كثيرًا على ذلك في عبادان. ولو أن أمره قد انكشف وأجبر على بث الرسالة، لعكس الأرقام. وكان لا بد من معرفة حقيقة الوضع في العراق.

عندئذ بعثوا إليه برسالة مغلوطة سرعان ما جاءهم رده يطلب إعادة البث مرة أخرى، ولما عجز عن فك رموزها، أيقن أن هناك خطأ ما، فبث رسالة تأكيدية أخرى ضمنها إشارات سرية بديلة أراحتهم وطمأنتهم.

على الفور أرسلوا إليه بإيراني خبيث، يدعى "طباطبائي حبرون" يعمل لحسابهم في طهران، تسلل إلى العراق بأوراق مزورة تحمل اسم "رضائي عبد الرضا"، التقى

بأبراهام الذي كان شارد الذهن منكسر المزاج، واستطاع بعد لأي أن يعيد إليه توازنه، ويقنعه بالاستمرار في العمل، خاصة وأنّ إسرائيل في تلك الفترة كانت تمر بظروف مختلفة، بعدما انتصرت على العرب في حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧، هذه الظروف كانت تستدعي العمل بجد ترقبًا لرد عربي وشيك، قد يدمّر إسرائيل ويقضي عليها.

لقد وعده طباطبائي بحياة رغدة في إسرائيل بعد انتهاء مهامه، فحرك فيه روح الحمية والعداوة ضد العراقيين، الذين أمدوا الجيوش العربية بالسلاح والعتاد لضرب إسرائيل، فلما نجح الخبيث في مهمته مع الجاسوس المحبط، عاد من حيث أتى، فلقد استرد أبراهام طاقته ومواهبه من جديد، ومارس الجاسوسية على أوسع نطاق، إلى أن وقع حادث خطير زلزل كل شيء.

فبينما كان يحمل جهاز اللاسلكي متوجهًا به إلى مخبإه بسطح منزله، وقد انتهى لتوه من بث رسالة لتل أبيب، زلت قدمه على السلم، فسقط منه الجهاز الثمين وتبعثرت محتوياته الداخلية. حينئذ أصيب أبراهام بالفزع، واعتراه اضطراب رهيب. وكتب على الفور رسالة بالحبر السري إلى الموساد في أثينا، يطلعهم على الخبر الصاعقة، وكانت صاعقة بالفعل قد أصابت العقول المتابعة في تل أبيب.

وعقد على الفور اجتماع ضم نخبة من خبراء الموساد، اتخذ فيه قرار نهائي بإرسال روبرتو بيترو إلى بغداد لإصلاح الجهاز المعطل.

اطلع ضابط الموساد على المهمة التي كلف بها، وحسب الخطة الموضوعة، سافر إلى روما حيث تسلم وثيقة سفر إيطالية، وتمت تغطية شخصيته الجديدة كمندوب لشركة "أنتراتيكو" الإيطالية للمقابض، حيث سجل اسمه في جميع الدوائر، توقعًا للسؤال عنه من قبل مكتب المخابرات العراقية في روما.

فما إن وطأت قدماه مطار بغداد الدولي، حتى كانت عيون مخابراتها ترصده عن بعد. فالجواسيس في تلك الفترة كانوا كمرتادي دور السينما، لا عدد لهم، أغلبهم من يهود العراق الذين ينعمون بالأمن، وأبوا إلا أن يعترفوا بإسرائيل وطنًا أولاً لهم. فباعوا أمن العراق وهتكوا ستره، ونقبوا عن أسراره لحساب الموساد.

ما أن رصدت أعين المخابرات العراقية مطاردة أبراهام لروبرتو حتى كثفت من رقابتها، فهناك أمر ما يجمعهما معًا. وتأكد لهم ذلك من لقاء بئر السلم بشارع السعدون. وبينما البحث يجري في روما عن حقيقة روبرتو المجهول، كانت الأجهزة اللاقطة قد زرعت بمكتب أبراهام، الذي تسلل إليه روبرتو دون أن يلحظ وقوف سيارة "فان" سوداء ذات ستائر غليظة، بداخلها أحدث أجهزة التنصت التي تنقل أنفاس من بالمكتب، إضافة إلى عربة جهاز تتبع الذبذبات اللاسلكية التي جيء بها من موسكو، فقد كانت تطوف بالمكان بلا انقطاع.

بعد قليل سمع بوضوح رنين جرس الباب، ووقع أقدام تتحرك، وفجأة.. انبعث صفير حاد عطل عملية التنصت. فخبير الموساد المدرب، وبحسه الأمني العالي، أدار جهاز التشويش الذي جلبه معه، تحسبًا.

وعلى مدار تسعة أيام في بداية عام ١٩٦٨، لم تسفر المراقبة عن شيء ذي قيمة. فأبراهام ماكر للغاية، وضيفه يقوم بمناورات عجيبة للتخفي استدعت تغيير فرق المراقبة والرصد كل عدة ساعات، فضلاً عن جهاز التشويش الإلكتروني الطنان، الذي أفشل عملية التسجيل.

وبالرغم من أن التحريات التي جاءت من روما أكدت بأن روبرتو إيطالي لا شك في ذلك، لكن الأمر كان يبدو محيّرًا حقًا، فالساعات التي كان يقضيها بالمكتب مع أبراهام، كانت دائمًا تثير شهية الاقتحام.

وبينما كان الجو مشحونًا بـالقلق والاضطراب، فجأة، ودون توقع.. التقط جهاز كشفٍ الذبذبات اللاسلكية إشارات متقطعة لا تكتمل، تبث لاسلكيًا من منطقة السعدون، فصرخ أحد الخبراء قائلاً إنها تشبه إشارات جهاز لاسلكي معطل، ويجري إصلاحه وتجربته، وعلى الفور صدرت أوامر عليا بمداهمة المكان. وكانت المفاجأة كما توقعها الضابط العراقي، حيث وجد روبرتو منهمكًا في إصلاح اللاسلكي، وأبراهام يرقبه عن قرب..

صعق العميلان.. ولهول الصدمة تسمرا في مكانيهما، فقبض عليهما الرجال وكبلوهما واقتيدا مغميّين لمبنى المخابرات، حيث جرى استجوابهما في ذات الليلة، فاعترف أبراهام بكل شيء، بينما التزم روبرتو الصمت رغم التعذيب المميت الذي لاقاه، كأن جسده قدّ من صخر، لا رابطة بينه وبين مخّه.

وبعد ثلاث ليال من التجويع والعطش انهار روبرتو تمامًا، وأقر بأنه ضابط مخابرات إسرائيلي، جاء لمهمة إصلاح الجهاز "فقط" لا للتجسس ضد العراق...

وأسفر التحقيق مع العميلين عن مفاجآت عجيبة لم تخطر ببال العراقيين أبدًا، فقد تبين أن شبكة أبراهام تضم ٣٦ جاسوسًا، هم في مجموعهم خليط عجيب من يهود عراقيين، وإيرانين، وإسرائيليين من جنسيات مختلفة، ألقي القبض على غالبيتهم في غضون أربعة أيام، وقدموا إلى المحكمة العسكرية العليا، وكانت هي المرة الأولى، في تاريخ الجاسوسية الإسرائيلية في العراق، التي يحاكم فيها ستة وثلاثون جاسوسًا، تضمهم شبكة جاسوسية واحدة.

وبقدر سعادة رجال المخابرات العراقية لضبط هذه الشبكة الخطيرة، كانت الصدمة قاسية جدًا في إسرائيل، وأمهر رجالها يعدمون في أيلول ـ سبتمبر ١٩٦٨ ببغداد، غير آسفة تحصدهم المشانق والبنادق.

إنها صدمة ما بعدها صدمة، إذ أفقدت الموساد الثقة برجالها أذكى رجال المخابرات في العالم، وتأكد لها بما لا يدع مجالاً للشك، أن هناك في العراق، وفي سائر الوطن العربي، رجال أشد ذكاء وضراوة وخبرة، بما يؤكد استمرار حروب الجاسوسية والمخابرات بين العرب وإسرائيل[1]...

---

١ ـ الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، ص٣٧٧ ـ ٣٨٧.

المخابرات العراقيّة وسُقوط العَميل الإسرَائيلي فرزَاد بَازُوفت

ادعى "فرزاد بازوفت" أنّه كبير المراسلين للشؤون الخارجيّة في صحيفة "الـ"أبزروفر" اللندنية. وهو في حقيقته كان صحافيًا غير متفرّغ، عندما وصل إلى بغداد. وقد سبق أن جنّده جهاز الموساد، وعمل أثناء وجوده في لندن في هيئة الإذاعة البريطانية ضمن مجموعة الموساد التي ترصد البرامج المعدّة لإسرائيل، ومراقبة الموظّفين في القسم العربي في الـ BBC. وبالرغم من إدانته في عمليّة سطو قام بها على مؤسّسة ماليّة للإقراض العقاريّ ببريطانيا، أمضى بعدها ثمانية عشر شهرًا في السجن، وأمر القاضي بترحيله من بريطانيا، إلا أنّ استئنافًا غير مألوف تقدّم به ومنح "إذنًا استثنائيًّا للبقاء في بريطانيا لمدة غير محدودة"، مما يعتبر سرًّا محفوظًا لدى وزارة الداخليّة البريطانيّة.

كانت مهمة بازوفت اكتشاف خطط العراق في استجلاب مدافع عملاقة تهدّد إسرائيل، وقد كان مراقَبًا من أجهزة الأمن العراقيّة التي اعتقلته على مقربة من أحد حقول اختبار المدفع العملاق، وعثروا معه على وثائق تشير إلى أنّه أجرى عددًا من الاتّصالات الهاتفيّة من بغداد بشركة "ديفنس سيستمز ليمتد"، وقد أنكرت الشركة أيّ علم لها "ببازوفت"، كما أنكرت أن تكون لها صلة بالموساد. وقد سجلت له أجهزة الأمن العراقيّة التي اعتقلته شريط فيديو باعترافه بأنه جاسوس في خدمة الموساد[1].

١ ـ صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة، ص٢٦٦ ـ ٢٦٧.

وينقل أحد الباحثين الميدانيّين الأجانب[1] أنّه في نهار الجمعة الأخير من شهر نيسان ـ إبريل ١٩٨٨، اكتظّ البهو المكهّف في فندق "ميرديان ـ فلسطين" في بغداد كالعادة، وكان الجوّ بهيجًا. فقد ربح العراق للتوّ معركة فاصلة ضدّ إيران في خليج البصرة، وأجمعت الآراء على أنّ الحرب تقترب من نهايتها بعد ثماني سنوات دامية. وبين أسباب الانتصار العراقي الوشيك، الأجانب الذين كانوا يجلسون في البهو وهم يرتدون سترات مهندمة وسراويل مكويّة بعناية، وعلى وجوههم ترتسم ابتسامات التجّار الناجحين. كانوا تجّار أسلحة جاؤوا لبيع أحدث أسلحتهم، مع أنّهم قلّما استعملوا تلك الكلمة مؤثرين التعبيرات الأكثر حياديّة: "السطح البيني الأمثل"، و"أنظمة التحكّم"، و"طاقة النموّ"، وغيرها من الاصطلاحات. وكان بينهم ممثّلو شركات صنع الأسلحة في أوروبّا والاتّحاد السوفياتي والولايات المتّحدة والصين. وكانت الانكليزيّة لغتهم التجاريّة المشتركة يرطنون بها بلهجات متباينة.

لم يكن أصحاب الدار العراقيّون بحاجة إلى ترجمان. فما يُعرض عليهم هو تشكيلة من القنابل والطوربيدات والألغام وغيرها من الأجهزة الفتّاكة. وقد وُزّعت الكرّاسات لطائرات مروحيّة ذات أسماء كاريكاتوريّة مثل "سي نايت"، و"شينوك"، و"سي ستاليون"... إحدى هذه الطائرات، واسمها "بيغ ماذر" أي "الأمّ الضخمة"، تستطيع حمل جسر صغير، وأخرى اسمها "ذي إنكريديبل ماشين" أي "الآلة الهائلة"، قادرة على جوقلة فصيل من الجند. وأظهر بعض الكرّاسات صور مدافع تُطلق ألفي قذيفة في الدقيقة، أو تضرب هدفًا متحرّكًا في الظلمة الدامسة بمهداف مصنوع من رقاقة

---

١ ـ طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت، ٢٠٠٠) ص١٧٩ وما يليها.

إلكترونيّة. وكانت كلّ الأسلحة معروضة للبيع. وكان أصحاب الدار يتكلّمون بلغة اصطلاحيّة خاصّة يفهمها التجّار أيضًا. فـ"عشرون في اليوم" تعني عشرين مليون دور أميركي يوم استلام البضاعة، و"ثلاثون في نصف ونصف ناقص واحد" تعني ثلاثين مليون دولار أميركيّ كبضاعة بالأمانة يُدفع نصفها سلفًا والباقي في اليوم السابق لشحن الأسلحة... وكلّ الأقساط تُدفع بالدولار الأميركيّ، العملة المفضّلة حتّى الآن في هذا العالم المغلق.

كانت هذه السوق المتغيّرة أبدًا حيث يجتمع التجّار والزبائن لتناول الشاي بالنعناع تقام برعاية ضبّاط من دائرة المخابرات العامّة التي يديرها "برزان التكريتي" الأخ غير الشقيق لصدّام حسين.

وفي وقت مبكّر من يوم الجمعة ذاك، توقّف النشاط التجاريّ في البهو لدى وصول "برزان التكريتي"، مدير المخابرات العراقيّ، بصحبة جماعة من الحرس الخاصّ. سار الأخ غير الشقيق لصدّام حسين بخطى واسعة نحو المصعد في طريقه إلى جناح في الطبقة العليا... وغادر عند العصر. ومن جناح مجاور للجناح الذي كان فيه التكريتي، ظهر رجل فتيّ طويل القامة يرتدي سترة قطنيّة زرقاء وسروالاً كاكيّ اللون. كان وسيمًا على وهن قليل، وكان يمسّد شاربيه أو يفرك وجهه بحركة عصبيّة تلازمه، ممّا يفاقم من قابليّته للسقوط بيد الأعداء. وكان اسم الرجل "فرزاد بازوفت". وفي التفاصيل الواردة في استمارة التسجيل الفندقيّة والتي ترسل منها نسخة إلى إدارة المخابرات، ذكر بازوفت أنّه "كبير المراسلين للشؤون الخارجيّة" في صحيفة الـ"أوبزرفر"، وهي صحيفة الأحد القوميّة في لندن. وكان هذا الوصف المهنيّ غير دقيق، فمراسلو الصحيفة المتفرّغون الذين يقومون بالمهامّ الخارجيّة وحدهم مخوّلون تسمية أنفسهم "مراسلين للشؤون الخارجيّة". أمّا بازوفت فكان صحافيًّا غير متفرّغ كتب

في العام السابق عدّة تحقيقات موضوعها الشرق الأوسط نشرتها الأوبزرفر. واعترف بازوفت للمراسلين في وسائل الإعلام الأخرى ممّن كانوا على متن الرحلة المتوجّهة إلى بغداد أنّه كان دائمًا يقدّم نفسه على أنّه "كبير المراسلين للشؤون الخارجيّة" في صحيفة الأوبزرفر في رحلاته إلى بغداد ومدن أخرى لأنّه بذلك يضمن حصوله على أفضل غرف الفندق المتوافرة. وقد كان هذا الخيال البريء مثالاً آخر على صبيانيّة بازوفت.

لم يكن زملاء بازوفت في الصحيفة يعلمون أنّ له جانبًا مظلمًا من شخصيّته ربّما كان سيعرّضهم للخطر لو اشتبه أحد بكونهم على صلة بالسبب الحقيقيّ لوجوده في بغداد. فقد كان فرزاد بازوفت عميلاً للموساد.

جنّد الموساد فرزاد بازوفت بعد وصوله إلى لندن قبل ثلاث سنوات من طهران حيث جعلت آراؤه الصريحة المعادية لنظام آية الله الخميني حياته عرضة للخطر. وكغيره ممّن سبقوه، وجد بازوفت لندن غريبة والشعب الإنكليزي متحفّظًا. وحاول في البداية إيجاد دور له في المجتمع الإيرانيّ في المنفى، وسرعان ما جعله اطّلاعه الواسع على البنية السياسيّة الراهنة في طهران ضيفًا معزّزًا على موائدهم. غير أنّ مشهد الوجوه المألوفة نفسها ما لبث أن أصاب الفتى الطموح المضطرب بالملل. فراح يبحث عمّا هو أمتع من تحليل الأخبار الواردة من طهران، فبدأ بتوطيد العلاقات مع عدوّ إيران: العراق.

ففي منتصف ثمانينات القرن العشرين، كان عدد كبير من العراقيّين يقيمون في لندن ضيوفًا على الرحب والسعة، إذ كانت بريطانيا لا ترى أنّ العراق سوق استهلاكيّة كبيرة لسلعها فحسب، بل ترى أيضًا أنّ العراق بقيادة صدّام حسين سيجبه التطرّف الإسلاميّ الإيرانيّ الخطِر. ووجد بازوفت نفسه محلّ ترحيب في الحفلات

العراقيّة. وكان مضيفوه الجدد أكثر اطمئنانًا واستعدادًا للاسترخاء من الإيرانيّين. ففتنهم بأخلاقه الكريمة ونكاته الحاضرة دائمًا عن الحكومة الإيرانيّة.

في إحدى هذه الحفلات، كان رجل أعمال عراقيّ إسمه "عبد الحميد"، وكان يصغي إلى بازوفت وهو سكران كعادته عند نهاية الأمسية، وهو يتحدّث بلا انقطاع عن طموحه الملحّ لأن يصبح مراسلاً صحافيًّا، وكيف أنّ "بوب وودوارد" و"كارل بيرنستين" اللذين أسقطا الرئيس "نيكسون" كانا مَثَله الأعلى. وأخبر بازوفت "عبد الحميد" إنّ أعظم أمنياته الإطاحة بآية الله الخميني. وكان بازوفت حينها ينشر بعض المقالات في صحيفة إيرانيّة محدودة الانتشار موجّهة للإيرانيّين في المنفى البريطاني.

أمّا "عبد الحميد" المذكور فكان يحمل اسمًا مستعارًا، وكان عميلاً للموساد، وهو عراقيّ المولد. وقد ضمّن عبد الحميد التقرير الذي بعثه إلى تلّ أبيب ملاحظة عن بازوفت وعمله الحالي وطموحاته. وكان ما قام به مألوفًا. فمئات الأسماء ترسل كلّ أسبوع لتجد مكانها في بنك المعلومات لدى الموساد. فقد كان ناحوم عدموني مدير الموساد يومذاك يتشوّق لتطوير مصادر معلوماته في العراق، فأوعز إلى عميل الموساد في لندن بأن يطوّر علاقته ببازوفت. وكان أن اصطحب عبد الحميد بازوفت لتناول العشاء مرارًا وأصغى إليه وهو يشكو من أنّ رئيس تحرير الصحيفة التي يعمل فيها لا يحسن استغلال مواهبه. فاقترح عليه مضيفه أن يحاول العبور إلى قلب الصحافة الإنكليزيّة. فلا بدّ من أنّ هناك فرصة عمل لمراسل صحافيّ يتمتّع بمهارات لغويّة ممتازة واطّلاع على شؤون إيران. واقترح عبد الحميد على بازوفت أن يبدأ بالاتّصال بهيئة الإذاعة البريطانيّة BBC.

كان بين العاملين في الـ BBC عدد من المتطوّعين لخدمة الموساد ممّن يتضمّن عملهم رصد البرامج المعدّة للبثّ عن إسرائيل، ومراقبة الموظّفين في القسم العربيّ

في المحطّة. ولا يُعرف ما إذا كان أيّ متطوّع قد ساعد في العثور على عمل لبازوفت، لكنّه بعد لقاء عبد الحميد سرعان ما كُلّف مهمّة بحث من قبل الـ BBC، وقد أبلى بلاء حسنًا، فكُلّف مهمّة أخرى. ووجد رؤساء التحرير المناوبون أنّ في إمكانهم الاعتماد على بازوفت لمساعدتهم على فهم مخطّطات طهران.

في تلّ أبيب، رأى رئيس الموساد عدموني أنّه قد حان الوقت للقيام بالخطوة التالية. ومع تزايد الاهتمام بالأسرار المكشوفة عن فضيحة "إيران غيت" في الولايات المتّحدة، قرّر رئيس الموساد أن يفضح دور "ياكوف نمرودي"، العميل السرّي السابق في جهاز "أمان" الاستخباراتي الاسرائيلي في الفضيحة السريعة الانتشار. فقد كان نمرودي عضوًا في الـ"كونسورتيوم" الذي أنشأه ضابط الموساد "ديفيد كيمحي" بشأن قضيّة "إيران غيت"، واستعمل خبرته الاستخباراتيّة لاستبعاد الموساد عمّا كان يدور. وكان نمرودي المخادع السريع الكلام قد اضطرّ وزير الخارجيّة الأميركي "جورج شولتز" عند بدء مقايضة صفقة الأسلحة بالرهائن إلى التصريح بـ"أنّ برنامج إسرائيل مختلف عن برنامجنا، وإنّ أيّ علاقة استخباراتيّة مع إسرائيل في ما يتعلّق بإيران قد لا تكون ممّا يروق لنا الاعتماد عليها اعتمادًا كليًّا". وبعدما انسحب كيمحي من الكونسورتيوم بقي نمرودي فيه لمدّة من الزمن. ولكن مع اصطخاب الأصداء الوافدة من واشنطن وازدياد حرج إسرائيل جرّاءها، توارى العميل السرّي السابق لـ"أمان" عن الأنظار ليحمي رأسه. لكنّ عدموني المتألّم من طريقة معاملة نمرودي للموساد قرّر إحراج نمرودي علنًا، وفي الوقت نفسه تعزيز موقف بازوفت المهني ليصبح أكثر فائدة في خدمة الموساد. وهكذا زوّد عبد الحميد المراسل بتفاصيل وافية جعلته يدرك أنّ هذه ربّما كانت فرصته الكبرى، فأخذ بازوفت القصّة إلى الأوبزرفر فنشرتها مع إشارات إلى إسرائيلي غامض يدعى نمرودي متورّط في فضيحة "إيران غيت". وما

لبث بازوفت أن أصبح يكتب بانتظام للأوبزرفر حتّى نال جائزته المرتجاة التي يطمح لها غير الموظّفين الثابتين، فأصبح له أخيرًا مكتبه الخاصّ. وبذلك لم يعد بازوفت مضطرًّا إلى دفع ثمن المكالمات التي يجريها لتعقّب أحداث قصّة ما من منزله. كما أُجيز له استرداد ما ينفقه أثناء استضافة مصادر أخباره. لكنّ بازوفت بقي لا يتقاضى أجرًا سوى عمّا يُنشر له في الصحيفة. وكان هذا ما يحفزه للعثور على أخبار جديدة وبذل أقصى الجهد للذهاب في رحلات إلى الشرق الأوسط. ففي مثل هذه الحالة تسدّد الصحيفة كامل نفقاته، ويتمكّن كحال العديد من المراسلين أمثاله من التلاعب بحساب النفقات لتحصيل مبالغ من المال تزيد عمّا أنفقه بالفعل. فشحّ المال كان دائمًا إحدى مشاكل بازوفت، وهو ما كان يحرص على إخفائه عن زملائه في الصحيفة. ولم يخامر الشكّ أحدًا في أنّ المراسل الذي كان يمضي الساعات وهو يتحدّث بالفارسيّة مع مصادر أخباره كان سارقًا أدانته المحكمة في لندن. فقد أمضى بازوفت ثمانية عشر شهرًا في السجن بعد عمليّة سطو قام بها على مؤسّسة ماليّة للإقراض العقاريّ. ولدى نطقه الحكم، أمر القاضي بترحيل بازوفت بعد نهاية مدّة سجنه. فاستأنف بازوفت الحكم متذرّعًا بأنّه سيواجه الإعدام إذا هو أُعيد إلى إيران. وقد رُفض الاستئناف، لكنّه مُنح "إذنًا إستثنائيًّا" للبقاء في بريطانيا لمدّة غير محدّدة. وهذه خطوة غير مألوفة بقيت دواعيها سرًّا محفوظًا لدى وزارة الداخليّة البريطانيّة. فهل تنبّه الموساد إلى إمكانات بازوفت فاستخدم أحد المتطوّعين الرفيعي المستوى في الحكومة البريطانيّة لتسهيل الأمور؟ هذا أمر لم يُحسم، لكنّ الاحتمال وارد.

بعد خروجه من السجن بدأ بازوفت يصاب بنوبات من الاكتئاب عالجها بتناول الأدوية. هذا الجانب الخاص من حياته اكتشفه أحد عملاء الموساد. وقد صرّح في ما بعد الكاتب الإنكليزي والنائب عن حزب المحافظين "روبرت أليسون"، وهو خبير

متميّز في سبل التجنيد في صفوف الاستخبارات، صرّح بأنّ شخصيّة كشخصيّة بازوفت تجعله هدفًا كبيرًا للموساد. وبالفعل، فبعد عام من تعرّف عبد الحميد إلى بازوفت ، قام بتجنيده في الموساد.

أمّا كيف وأين جرى التجنيد فأمر لا يزال غير معروف. ومن المؤكّد أنّ المبالغ الماليّة الإضافيّة دخلت في اعتبارات بازوفت الذي كان لا يزال يعاني من ضيق ذات اليد. وبالنظر إلى كونه ممّن ينظرون إلى الحياة بمنظار دراماتيكيّ فقد يكون دخل في اعتباراته إمكان تحقيق أحد أحلامه وهو أن يكون جاسوسًا على طريقة مراسل الشؤون الأجنبيّة الراحل الذي يكنّ له بازوفت الاحترام، وهو "فيلبي" الشهير، فهذا أيضًا عمل في صحيفة الأوبزرفر، للتمويه على نشاطه كجاسوس سوفياتيّ.

ومن المؤكّد أنّ بازوفت بدأ يبني لنفسه بعض الشهرة فعوّض عن ضعف أسلوبه في الكتابة بأعمال البحث الجيّدة. وكلّ ما كان قد عثر عليه في إيران أحاله إلى عميل الموساد في لندن.

وإلى جانب ما كان ينشره من تحقيقات في الأوبزرفر، كان بازوفت يقوم بمهامّ صحافيّة بتكليف من شبكة التلفزة "إندبندنت تلفيجين نيوز" المستقلّة، وصحف مجموعة "ميرور".

في ذلك الوقت كان رئيس قسم الشؤون الخارجيّة في صحيفة "دايلي ميرور"، "نيكولاس ديفيس"، الذي كانت له موهبة الصحافيّين في القيل والقال والقدرة على تحمّل الشرب بالإضافة إلى كونه حسن المعشر. وقد تخلّى ديفيس عن لكنته الإنكليزيّة الشماليّة، ويقول زملاؤه إنّه أمضى الساعات وهو يتعلّم ويتقن لهجته العذبة الحاليّة. وهو يجتذب النساء بحسن تصرّفه وطريقته الرجوليّة في طلب طعام العشاء واختيار النبيذ الجيّد. وكنّ يعجبن به كرجل مجرّب كثير الأسفار إذ يتحدّث عن الأماكن النائية

وكأنّها جزء من إقطاعاته الخاصّة. وفي الهزيع الأخير من الليل كان يتحدّث تلميحًا أثناء تناول كأس آخر من الشراب عن مغامرات كان بعض الخبثاء يشيرون إليها على أنّها "رومانسيّات نيك".

ولم يكن أحد يعلم أنّ مدير وكالة الموساد ناحوم عدموني قد أعطى الضوء الأخضر لتجنيد ديفيس في الموساد. وقد فات ذلك زملاءه في صحيفة "ميرور" والحلقة الواسعة من أصدقائه خارج عالم الصحافة، وحتّى زوجته جانيت الممثّلة الاستراليّة المولد التي لعبت دورًا في "دكتور هو" المسلسل التلفزيوني الناجح الذي عرضته الـ BBC. وكان ديفيس يصرّ دائمًا، حتّى ولو جرت مفاتحته بالأمر، على أنّه لم يعمل كعميل للموساد، وأنّ وجوده في بهو فندق ميريديان ـ فلسطين بعد ظهر يوم الجمعة من نيسان ـ إبريل كان بصفته صحافيًّا يراقب تجّار الأسلحة وهم يهتمّون بشؤون تجارتهم. ولم يستطع في ما بعد أن يتذكّر ما دار بينه وبين بازوفت من حديث في البهو، لكنّه قال: "أتصوّر أنّنا تحدّثنا عمّا كان يجري". وقد رفض تقديم إيضاحات أخرى وتمسّك بهذا الموقف بعناد.

فقد سافر الرجلان إلى العراق مع مجموعة صغيرة من الصحافيّين بينهم "غوردون طوماس" واضع كتاب "انحطاط الموساد" الذي ننقل عنه هذه المعلومات، وكان في مهمّة بتكليف من وكالة "برس أسّوسياشن" البريطانيّة.

أثناء الرحلة التي انطلقت من لندن، أمتع ديفيس مجموعة الصحافيّين بروايات بذيئة عن "روبرت ماكسويل" الذي كان قد اشترى صحيفة "ميرور". فوصفه بأنّه "وحش جنسيّ يتمتّع بشهيّة نهمة لإغواء السكريتيرات العاملات لديه". وقد أوحى بوضوح بأنّه مقرّب من ماكسويل مع أنّ "الكابتن بوب صعب المعشر بصورة لا تطاق، ويعرف أنّني أكثر ممّا ينبغي، ولذا لا يستطيع طردي"...

إعتبر المستمعون أنّ زعم ديفيس أنّه محصّن ضدّ الصرف من العمل بسبب ما كان يعرفه عن ماكسويل ليس سوى كلام طنّان ومفخّم.

في هذه الأثناء، كان بازوفت هادئًا أثناء الرحلة فلم يفُه بكلام كثير لزملائه واكتفى بالتحدّث إلى مضيفي الطائرة باللغة الفارسيّة. وساعدت مهارته اللغويّة في مطار بغداد على تسهيل مصاعب الترجمة مع "المرافقين" العراقيّين. وفي حركة مسرحيّة همس ديفيس قائلاً: "إنّ هؤلاء المرافقين ليسوا سوى رجال أمن". وأضاف وكأنّه يطلق نبوءة: "هؤلاء المغفّلون لن يكتشفوا الجاسوس حتّى ولو دلّهم أحد عليه"...

في فندق ميريديان ـ فلسطين أبلغ ديفيس رفاق السفر أنّه لم يأت إلاّ لـ"ملّله الشديد من لندن". لكنّه أوضح أنّه لا يعتزم التقيّد بالبرنامج الرسميّ الذي يشتمل على زيارة إلى ميدان البصرة حيث سيعرض الجيش العراقيّ ما غنمه من انتصاره على القوّات الإيرانيّة. وقال بازوفت إنّه لا يعتقد أنّ صحيفته مهتمّة بالرحلة جنوبًا نحو الخليج.

وفي ذلك اليوم من نيسان ـ إبريل ١٩٨٨، أمضى بازوفت الساعات في بهو الفندق وهو يراقب تجّار الأسلحة في رواحهم ومجيئهم ويتحادث مرّات مع ديفيس، وفي المساء جلس في مقهى الفندق يتناول الطعام وحده. واعتذر عن عدم قبول دعوة الصحافيّين الآخرين من لندن للانضمام إليهم قائلاً إنّه يحتاج إلى "التفكير ببرنامجه". وأثناء تناوله وجبة الطعام، نودي عليه ليردّ على مكالمة هاتفيّة في البهو. ولمّا عاد بعد بضع دقائق بدا مستغرقًا في التفكير. كان قد طلب بعض الحلوى لكنّه غادر الطاولة فجأة متجاهلاً النكات البذيئة التي أطلقها بعض الصحافيّين عن فتاة يخبّئها.

لم يعد بازوفت حتّى اليوم التالي. وبدا أكثر توتّرًا وقال لبعض الصحافيّين، ومنهم "كيم فاتشر" وهو صحافيّ غير متفرّغ يعمل في صحيفة "دايلي مايل": "أنتم بريطانيّو المولد والنشأة فلا بأس عليكم. أمّا أنا فإيرانيّ أي أنّني مختلف"... وقد تساءل فلتشر

كما غيره من الصحافيّين الإنكليز عمّا إذا كان "بازوفت قد عاد للقرع على فكـرة مـدى صعوبة وضعه باعتبار نشأته".

أمضى بازوفت معظم وقتـه فـي ذلـك اليـوم وهـو يـذرع بهـو الفنـدق أو يقبـع فـي جناحه. وقد غادر الفندق مرّتين لمدّتين قصيرتين. وفي البهو أجرى عدّة محادثات مع نيكولاس ديفيس الذي روى في ما بعد أنّ بازوفت كان "كـأيّ صحـافيّ يلاحـق قصّتـه، قلقًا ما إذا كان سيفوز بما يريده". أمّا من جهته فقد أعلـن رئيـس القسـم الخـارجيّ فـي صحيفة "ميرور" أنّه لن يكتب شيئًا، "فليس في هذا المكان ما يثير اهتمام الكابتن بوب". وعصر ذلك اليوم، غادر بازوفت الفندق مرّة أخرى. وكالمعتاد، تعقّبـه أحـد المرافقيـن العراقيّين. لكنّه عندما عاد كان بمفرده، وسمع الصحافيّون بازوفت يتذمّر من تعقّبه فـي كلّ مكان "ككلبة مهتاجة". ولم تحسّـن ضحكـة ديفيـس مـزاج بـازوفت البتّـة، فعـاد إلـى جناحه في الفندق من جديد. وعندما عاود الظهور في البهو قال لعدد من المراسلين إنّه لن يعود معهم إلى لندن. وبصوت غامض يحبّ أن يتحدّث به أحيانًا، أضـاف: "إستجدّ أمر مهمّ". وقال فلنتشر: "فقط قصّة مهمّة يمكن أن تبقيني هنا".

وبعد ذلك ببضعة ساعات غادر بازوفت الفندق. وكانت تلك آخر مرّة يراه فيها أيّ من صحبه قبل أن يظهر على شـريط الفيديـو الـذي وزّعـه النظـام العراقـيّ فـي أنحـاء العالم بعد سبعة أسابيع من اعتقاله واعترافه بأنّه جاسوس في خدمة الموساد.

في تلك الأثناء، كان بازوفت في مهمّة كلّفه بها الموساد، وهي مهمّة كانت سترهق كاهل العملاء المدرّبين أنفسهم، فقد أُمر بأن يحاول اكتشاف مدى تقدّم خطـط "جيرالد بول" لتزويد العراق بالمدفع العملاق. ويظهر تكليف صحافيّ مثل هذه المهمّة بوضـوح مدى استعداد رؤسائه لاستغلاله. كما اتّخذ الموساد من جانبه الخطوات التـي تظهـر أنّ بازوفت إذا قبض عليه، يعمل فـي خدمـة شـركة مقرّهـا لنـدن تدعـى "ديفنـس سيسـتمز

ليمتد". وعندما اعتقل بازوفت على مقربة من أحد حقول اختبار المدفع العملاق، عثر رجال الأمن العراقيّون أيضًا بحوزته على عدد من الوثائق التي تشير إلى أنّ بازوفت أجرى عددًا من المكالمات من الفندق بمكاتب الشركة المذكورة. وقد أنكرت الشركة أيّ علم لها ببازوفت، كما أنكرت أن تكون لها صلة بالموساد.

ومن شاهد شريط الفيديو لاحظ أنّ عيني بازوفت كانتا أحيانًا تحدّقان في الفراغ، ثمّ يرفّ جفناهما فجأة في سرعة وتجوبان في أنحاء الغرفة التي ظهر في مؤخّرتها ستار مزخرف. بدا بازوفت كشخص مقتنع بأنّ لا حول ولا قوّة في تجنّب فنائه.

في تلّ أبيب تفحّص العلماء النفسيّون في الموساد كلّ لقطة من شريط الفيديو. وكان رأيهم أنّ مراحل تحطّم بازوفت سارت على النهج نفسه الذي لاحظه المحقّقون الاسرائيليّون عندما كانوا ينتزعون الاعترافات من مناضل فلسطينيّ معتقل. فقد مرّ بازوفت في البداية بمرحلة عدم التصديق وهو إنكار غريزيّ لحقيقة ما يحدث له. ثمّ اجتاحه شعور طاغ ومفاجئ ومدمّر بأنّ الأمر حقيقيّ. لقد تورّط...

عند هذا الحدّ يمكن أن يكون المراسل المسكين قد أحسّ بردّي فعل، الأوّل هو الذعر المشلّ، والثاني رغبة جامحة بالكلام. ولعلّه هنا أدلى باعترافه على شريط الفيديو بأنّه عميل للموساد. وتوحي نبرات صوته الرتيبة بأنّه أصيب بنوبات من الاكتئاب الخارجيّ المنشأ أثناء اعتقاله، وذلك كنتيجة لإبعاده عن أشياء حياته المألوفة وتعطيل أسلوب حياته المعتاد تعطيلاً كاملاً. ولعلّه شعر بتعب دائم، وما كان النوم القليل الذي سُمح له بأن يغطّ فيه يكفي لإنعاشه. وعند هذا الحدّ، بلغ ميله لاتّهام نفسه مرحلته المدمّرة وشعوره باليأس ذروته. وسيطر عليه اتّهامه لنفسه. ولعلّه كحال السجين في رواية كافكا "المحاكمة"، شعر بأنّه غبيّ لأنّه تصرّف كما فعل وعرّض حياة الآخرين للخطر. وتظهر عينا بازوفت على شريط الفيديو أنّه تلقّى جرعات

مخدّرة. وقد تبيّن لعلماء الصيدلة في الموساد استحالة معرفة نوع العقاقير التي استُخدمت معرفة دقيقة.

أُعدم بازوفت شنقًا في بغداد في آذار - مارس ١٩٩٠، وكان آخر ما نُقل عنه وهو أمام المشنقة قوله:

"إنّني لست جاسوسًا إسرائيليًّا".

هَل تَعاوَنت الاستخبَارات العراقيَّة مع قوّات التحالف؟

من الشخصيّات العراقيّة المعنيّة بالتعاون الاستخباراتي الأردنيّ - الأميركيّ إبّان غزو الأردن من قبل قوّات التحالف سنة ٢٠٠٣، على ما تردّد، مدير جهاز المخابرات العامّة العراقيّة اللواء "طاهر جليل الحبوش".

هذا الأخير خرج عند سقوط بغداد برفقة أمين السجلّات في جهاز المخابرات "أكرم نعمة" من بغداد إلى عمّان ومنها أقلّته طائرة خاصّة إلى قبرص ومنها سافر إلى الولايات المتّحدة عبر القاعدة العسكريّة الأميركيّة في ألمانيا. وهذا ما يفسّر عدم قصف الطيران الأميركيّ لمقرّ المخابرات العامّة العراقيّة على الرغم من كونها أحد الأهداف الرئيسيّة الاستراتيجيّة في العاصمة بغداد[١].

---

١ - الفغالي بدرا باخوس، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢١ كانون الأوّل - ديسمبر ٢٠٠٣، ص١٨.

مَن وشى بصدّام إلى القوّات الأميركيّة؟

في ٢٠ كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠٣، أعلن ضابط أميركيّ من القوّات العاملة في العراق أنّ الرجل الذي وشى بصدّام حسين، الذي اعتقل في ١٣ كانون الأوّل ـ ديسمبر، للقوّات الأميركيّة، كان الساعد الأيمن للرئيس العراقي السابق في خلال الأشهر التي أعقبت الإطاحة بنظامه. وقال الكومندان "ستان مورفي" رئيس الاستخبارات في الكتيبة الأولى التابعة للفرقة الرابعة مشاة الأميركيّة التي كانت تتمركز في تكريت للصحافيّين "إنّه رجل أصفه بأنّه الساعد الأيمن لصدّام حسين. وهو شخص فاسد ويجب أن يقبع في السجن بقيّة حياته"، مستبعدًا أن يحصل الواشي على مكافأة الـ٢٥ مليون دولار التي رصدت لمن يساعد في القبض على صدّام. والواشي كان رهن الاعتقال يومها في مكان مجهول. وأشار مورفي إلى أنّه ينتمي إلى إحدى العشائر الكبرى في منطقة تكريت التي اعتمد صدّام عليها إثر فراره من بغداد عقب استيلاء القوّات الأميركيّة عليها في نيسان ـ إبريل ٢٠٠٣. وقال الضابط الأميركيّ إنّ هذا الرجل يشكّل، إضافة إلى أربعة أو خمسة أشخاص آخرين من هذه العشائر الحلقة الضيّقة القريبة من صدّام، التي كانت تساعده على الاختباء وتنقل أوامره بمهاجمة الأميركيّين وتموّل المقاومة وتزوّدها بالسلاح.

وأوضح مورفي أنّ صدّام حسين كان "يحدّد الخطوط العريضة للعمليّات ويقوم المقرّبون منه بتحويلها إلى أوامر إلى أشخاص آخرين حتّى تصل التعليمات إلى منفّذي

العمليّات". وقال "إنّه كان هناك من أربعة إلى ثمانية وسطاء". غير أنّه ضمن الحلقة المقرّبة يمثّل المخبر الذي وشى بصدّام حسين أقرب المقرّبين إليه. ووصفه مورفي بأنّه "رجل في الخمسين من عمره كان بدأ خدمة صدّام منذ بداية شبابه وتدرّج سلّم الترقيات إلى أن أصبح أحد رجاله الموثوقين"، وأنّه "أصلع وبدين وزير نساء". وأضاف الضابط الأميركيّ "إنّه شارك أيضًا في اقتراف جرائم ضدّ الشعب العراقيّ"، دون توضيح مسؤوليّته بالضبط فيها. وخلال مرحلة فرار صدّام حسين تولّى الواشي الإشراف على شخصين آخرين مكلّفين بالإسناد وبتدبير مخابئ للرئيس العراقيّ السابق في شمال بغداد وغربها.

وقدّرت مصادر عسكريّة مخابئ صدّام بما بين ٢٠ و٣٠ مخبأ، بحسب مورفي. وقال إنّ صدّام لم يكن يتنقّل كثيرًا كما كنّا نتوقّع في حين كان ضبّاط أميركيّون قد أعلنوا أنّه يغيّر مكان اختبائه كلّ أربع ساعات. وقال مورفي إنّ صدّام الذي كان يعاني آلامًا في الظهر كان يقيم ليوم واحد أو ليومين في المكان ذاته وربّما أسبوعًا، وهو يتنقّل عادة مع مجموعة صغيرة من المعاونين كانت تتولّى قيادة السيّارة والطبخ. وكان يتنقّل على الأرجح في سيّارة أجرة.

واعتبر الأميركيّون "الساعد الأيمن" رجلاً مهمًّا منذ نهاية تمّوز - يوليو، غير أنّهم لم يدركوا إلاّ في نهاية تشرين الثاني - نوفمبر إلى أيّ درجة كان اعتقاله مهمًّا لجهة القبض على صدّام حسين بعد أن اكتشفوا أنّه كان متورّطًا في أغلب عمليّات المقاومة. وقال مورفي إنّ "الساعد الأيمن" اعتقل في ١٢ كانون الأوّل - ديسمبر في بغداد بعد أن نجا من ثلاث عمليّات في تكريت وسامرّاء وبيجي. ونُقل إلى تكريت حيث كشف خلال استجوابه مخبأ صدّام حسين في بلدة "الدور" قرب تكريت[١].

---

١ - أ.ف.ب.؛ رويترز؛ جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢١ كانون الأوّل - ديسمبر ٢٠٠٣، ص١٨.

صدّام لجأ إلى عَشيرَته، وساعده الأيمَن "حتّوش"

حظي صدّام حسين في خلال أشهر مطاردته بمساعدة أفراد عشيرته الذين كانوا يسيطرون على الجهاز الخاص الذي يُعَدّ أهمّ أجهزته الأمنيّة على ما أفاد زعماء بعض العشائر في تكريت. وبحسب هؤلاء الشيوخ فإنّ الرجلين اللذين تولّيا، على ما يبدو، أكثر من غيرهم حماية الرئيس المطاح به هما اثنان من أقاربه لجهة الأب والأمّ "محمّد حتوش" و"عمر ابراهيم المسلط". والرجلان المتحدّران من تكريت وبغداد كانا حارسيه الشخصيّين وكمسؤولين في الجهاز الخاصّ. كما ورد ذكر اسمين آخرين من أقارب صدّام لجهة الأب هما الشقيقان "أكرم" و"حبيب الصالح". وتتماشى رواية زعماء العشائر مع رواية الجيش الأميركيّ التي أشارت إلى أن الديكتاتور السابق كان يعوّل على أربعة أو خمسة من أقاربه لتسهيل تنقّلاته ونقل تعليماته إلى المقاومة. ولم يكشف الجيش الأميركيّ أسماء مكتفيًا بالإشارة إلى أنّ حماة صدّام حسين ينتمون إلى خمس أسر في تكريت كانوا يحتلّون مناصب في الحكومة أو في أجهزة الأمن. واعتُقل كلّ هؤلاء الأعوان ما عدا واحد بحسب الأميركيّين. وبينهم الرجل الذي قادهم إلى مخبإ صدّام حسين إثر استجواب مشدّد وقيل إنّه ساعده الأيمن. وقال الشيخ "ناجي الجبّار" رئيس المجلس المعيّن من قبل الأميركيّين في تكريت" إنّه ما سهل اعتقال صدّام هو العلاقات السيّئة التي كانت له مع الناس بمن فيهم أفراد عشيرته".

كان صدّام في ثمانينات القرن العشرين قد استبدل شيخ عشيرة "البيجات" واسمه "محمود الندا" بأحد أقاربه وصادر أراضي الأوّل. ولم يكن بإمكان صدّام حسين تاليًا الثقة إلاّ بأقاربه في عشيرتَي والده ووالدته "أبو قعفور" و"أبو عمر"، الذين احتلّوا في خلال مرحلة حكمه أعلى المناصب في أجهزة الأمن. ويملك كلّ من "محمّد حتوش"

و"عمر ابراهيم المسلط" والشقيقان "صالح" هذه المواصفات بالتأكيد. وقال الشيخ ناجي "إنّهم بالتأكيد هؤلاء الأربعة". ولم يكن أمام صدّام حسين إلاّ الالتفات إلى أقرب المقرّبين الذين لا يزال بإمكانه الثقة بهم بعد سقوط بغداد وفي ظلّ غياب الدعم من خارج هذه الحلقة المقرّبة. وبحسب الشيخ ناجي فإنّ محمّد حتوش كان حارسًا شخصيًّا مقيمًا في تكريت حيث يشرف على الاستخبارات، في حين بقي عمر ابراهيم المسلط مع صدّام في بغداد. ولم يشهد أيّ من هؤلاء الرجال سقوط بغداد، غير أنّ الشيخ يعتقد أنّ عمر ابراهيم المسلط كان يختبئ مع صدّام حسين وقد يكون قتله عراقيّون اشتبهوا بأنّه سلّم صدّام للأميركيّين. لكنّه أشار إلى "أنّه لم يرَ جثّته في مشرحة المستشفى".

ويؤكّد "حسيب صهيب أحمد"، وهو شيخ آخر في "الدور" حيث اعتُقل صدّام حسين في ١٣ كانون الأوّل - ديسمبر ٢٠٠٣ أنّ القوّات الأميركيّة استجوبت السكّان بشأن عمر ابراهيم المسلط إثر اعتقال الرئيس العراقيّ السابق. وروى الشيخ حسيب أنّ علاقة وثيقة كانت تربط صدّام حسين بمحمّد حتوش. وقال: "منحه صدّام الكثير من السلطة. وكان بإمكان حتوش إنفاق المال كما يريد. وكانا قريبين جدًّا من بعضهما".

ويشاطر شيوخ آخرون الشيخ حسيب هذا الرأي. وقال شيخ آخر من "الدور" طلب عدم كشف هويّته: "حتوش كان الساعد الأيمن لصدّام، وكان يعتمد عليه في محافظة صلاح الدين. وكان يتمتّع بنفوذ يفوق نفوذ المحافظ. كان أرفع ضابط في القصر الرئاسيّ". وقدّم شيخ من "أبو عجيل" الرواية ذاتها. وأضاف مفضّلاً عدم كشف هويّته: "حتوش كان كلّ شيء بالنسبة إلى صدّام واختفى إثر الحرب. أعتقد أنّه كان مختبئًا مع صدّام"[1].

---

١ - أ.ف.ب.؛ جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٣ كانون الأوّل - ديسمبر ٢٠٠٣، ص١٨.

التحقيق في مَعلومَات المخَابرات الأميركيّة والبريطانيَّة حولَ أسلحة العرَاق

في الثالث من شباط ـ فبراير ٢٠٠٤ أعلن الرئيس الأميركيّ جورج بوش أنّه سيشكّل لجنة في أوجه التناقض في معلومات المخابرات التي استخدمت في تبرير الحرب على العراق في عدول عن معارضته السابقة لإجراء تحقيق. وقال بوش للصحافيّين: "أريد معرفة كلّ الحقائق".

وكان "ديفيد كاي" رئيس الفريق الأميركيّ للبحث عن الأسلحة العراقيّة الذي استقال في كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٤ أحدث ثغرة في القضيّة التي ساقتها الولايات المتّحدة وبريطانيا ضدّ العراق حين أعرب عن اعتقاده بأنّ العراق لا يملك أيّ أسلحة غير مشروعة وقال: "كلّنا تقريبًا أخطأنا حين افترضنا ذلك".

وحذا رئيس الوزراء البريطانيّ طوني بلير حذو بوش وقال إنّه سيدعو لإجراء تحقيق في إخفاق المخابرات البريطانيّة في ما يبدو في قضيّة الأسلحة العراقيّة المحظورة المزعومة. وقال بلير أمام لجنة برلمانيّة كبيرة "أعتقد أنّه من الصواب أن ننظر في المعلومات المخابراتيّة التي تلقّيناها وما إذا كانت دقيقة أم لا".

وأعرب بلير عن أمله أمام اللجنة البرلمانيّة في التوصّل إلى اتّفاق مع الأحزاب السياسيّة الكبرى في البلاد حول التحقيق في إشارة إلى أنّ الجدل المثار حول أبعاد

التحقيق لا يزال مستمرًّا. وقبل نشوب الحرب قال بلير إنّ ترسانة الرئيس العراقيّ السابق كانت "نشطة... وآخذة في النموّ" وإنّ العراق يشكّل خطرًا آنيًّا.

وصرّح معارضون رئيسيّون لبلير بأنّ خطوة الرئيس الأميركيّ لتشكيل لجنة تحقيق مستقلّة لم تترك أمام بلير خيارات كثيرة. وتقدّم المحافظون بالفعل بطلب للبرلمان البريطانيّ لإجراء تحقيق، وهو مطلب تؤيّده غالبيّة البريطانيّين. وأظهرت استطلاعات الرأي التي نُشرت في صحيفتَي "ميل أون صنداي" و"صنداي تايمز" أنّ ٦١ و٥٤ في المائة على التوالي يطالبون بإجراء تحقيق. وقد خيّم حول بلير غضب بريطانيّ من المبرّرات التي سيقت لغزو العراق. وقال "مايكل هاوارد" زعيم حزب المحافظين المعارض لهيئة الإذاعة البريطانيّة: "الآن أعتقد أنّه أصبح واضحًا أنّ هناك حاجة لإجراء تحقيق. آمل ألاّ يظلّ رئيس الوزراء الرجل الوحيد المعارض ويبقى معزولاً".

ويقول منتقدون إنّ حكومة بلير ستحيل الآن اللوم على المخابرات وتجعل منها كبش فداء. وقال "روبن كوك" وزير الخارجيّة البريطانيّة الأسبق: "سيكون أمرًا مشينًا إذا حُمّلت أجهزة المخابرات مسؤوليّة قرار هو قرار سياسيّ في نهاية الأمر". وأضاف: "نعلم أنّه لم تكن هناك أسلحة دمار شامل ونعلم أنّه لم يكن هناك تهديد ونعلم أنّنا أخطأنا". وأعلن مسؤول كبير سابق في الاستخبارات العسكريّة البريطانيّة للصحافة أنّ حكومة رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير أثارت"آمالاً خاطئة، حول الأسلحة المزعومة التي كانت في حوزة العراق قبل الحرب".

وقال الخبير البريطانيّ "بريان جونز" لصحيفة "إندبندنت": "شخصيًّا، لا أعتقد أنّهم سيعثرون على مخابئ للأسلحة في العراق، ولقد أعطوا الناس آمالاً خاطئة من خلال حملهم على الاعتقاد بوجود مخزونات الأسلحة تلك".

لكنّ الخبير البريطانيّ قال إنّ وثيقة الاستخبارات التي تحدّثت عن مهلة ٤٥ دقيقة شدّدت فقط على عدد من "السناريوهات الممكنة" بدلاً من أن تقدّم بالتفصيل التهديد الذي كان يمثّله العراق.

وقال جونز الذي كان مسؤولاً عن قطاع الأسلحة النوويّة والبيولوجيّة في الاستخبارات العسكريّة البريطانيّة حتّى كانون الثاني - يناير ٢٠٠٣ "في الواقع، كانت القضيّة غامضة ولم يتوافر أيّ شيء ملموس يُستطاع فعلا الاستناد إليه".

وحذّر من أنّ الرأي العام سيكون أكثر تشكّكًا في المرّة المقبلة إذا ما حاولت الحكومة تحذيره من وجود تهديد آخر تشكّله أسلحة الدمار الشامل في العالم.

غير أنّ وزير الخارجيّة الأميركيّة "كولن باول" قال لصحيفة "واشنطن بوست": "إنّ التاريخ سيصدر حكمه في النهاية بأنّ الحرب كانت الشيء الصحيح الذي ينبغي عمله". وعن العرض الذي قدّمه أمام الأمم المتّحدة العام السابق وأورد فيه بالتفصيل مخزونات العراق المحتملة من الأسلحة قال باول: "عكَس ذلك أفضل تقييمات جميع أجهزة المخابرات... لم تكن هناك كلمة واحدة في العرض لم توافق عليها المخابرات". وردًا على سؤال الصحيفة عمّا إذا كان الرأي العامّ الأميركيّ سيطمئنّ عند معرفة أنّ كلّ أجهزة المخابرات هذه كانت مخطئة قائلاً: "أعتقد أنّ من المطمئن للناخبين في الولايات المتّحدة أنّنا وجدنا نظامًا أظهر بوضوح نيّته وقدراته، وأنّ الرئيس حصل على المعلومات من أجهزة المخابرات... إنّ الشعب الأميركيّ سيتفهّم أنّ الرئيس اتّخذ قرارًا متعقّلاً بناء على هذا القدر من الأدلّة المتمثّلة في المعلومات التي تلقّاها في ذلك الوقت".

وزيرة الخارجيّة الإسبانيّة "آنا بلاثيو" استبعدت فتح أيّ تحقيق في إسبانيا حول تأكيدات الحكومة بشأن أسلحة الدمار الشامل التي اتُّهم العراق بحيازتها، فيما طالبت

المعارضة الاشتراكيّة بنشر تقارير أجهزة الاستخبارات بهذا الشأن. وبرّرت بلاثيو رفض مدريد التمثّل بواشنطن ولندن اللتين أعلنتا عن فتح تحقيق مماثل، مشيرة إلى أنّ "الحكومة الإسبانيّة تبنّت موقفها على الدوام على أساس الإجماع والمعطيات المستمدّة من الأمم المتّحدة... الكلّ يعلم أنّه كان هناك إجماع في الأمم المتّحدة حول ضرورة نزع سلاح صدّام حسين، وكان ذلك مدرجًا في عدد من القرارات من ضمنها القرار ١٤٤١". في هذا الوقت، طالب الناطق باسم مجموعة الحزب الاشتراكي في مجلس النوّاب "خيسوس كلديرا" برفع السريّة عن تقارير أجهزة الاستخبارات حول الوضع في العراق قبل التدخّل العسكريّ، ولا سيّما التقارير المتعلّقة باحتمال حيازة العراق أسلحة دمار شامل وإقامة صدّام حسين علاقة مع الإرهاب الدوليّ. وقال كلديرا: "بهذه الطريقة سيكون في وسعنا معرفة الحقيقة ومعرفة كيف تفوّهت الحكومة بكذبة خطيرة لتبرير حرب غير أخلاقيّة وغير شرعيّة وغير عادلة وخارجة عن القانون الدوليّ". ورفض وزير الدفاع "فيديريكو تربو" هذا الطلب مؤكّدًا أنّ الحكومة لم تتلقّ أيّ تقرير من أجهزة الاستخبارات الإسبانيّة حول أسلحة الدمار الشامل العراقيّة. وقال: "لم يكن لنا يومًا تقاريرنا الخاصّة مثل الولايات المتّحدة وبريطانيا ولم نستند يومًا إلى معلومات خارج قرارات الأمم المتّحدة"[١].

في الخامس من كانون الثاني - يناير ٢٠٠٤، وبعد أيّام قليلة على الإعلان عن عزمه تعيين لجنة تحقيق للبحث في موضوع تقارير الاستخبارات الأميركيّة التي افترض حيازة العراق أسلحة دمار شامل، أعلن الرئيس الأميركيّ جورج بوش أنّ قرار خوض الحرب على العراق برّرته المعلومات الاستخباراتيّة التي توفّرت في ذلك

---

١ - وكالة أ.ف.ب؛ وكالة رويترز، ٣ شباط - فبراير ٢٠٠٤.

الوقت. وقال: "إنّنا نعلم أنّ صدّام حسين كان ينوي تجهيز بلاده بأسلحة دمار شامل... واستنادًا لما كنّا نعرفه في تلك الفترة وما نعرفه حاليًّا تكون أميركا قد اتّخذت القرار الجيّد".

وأوضح بوش أنّ مجموعة من الخبراء الأميركيّين والبريطانيّين في العراق عثرت على مختبرات وتجهيزات لصنع مثل تلك الأسلحة. واتّهم الزعيم العراقيّ المخلوع بأنّه خبّأها في حين أنّ قرارات الأمم المتّحدة كانت ترغمه على كشفها.

في اليوم نفسه، سعى مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة CIA "جورج تينيت" للدفاع عن أجهزة الاستخبارات المتّهمة بارتكاب خطأ في ملفّ أسلحة الدمار الشامل العراقيّة، مؤكّدًا أنّها لم تتعرّض لأيّ ضغوط في هذا الشأن، وأنّ صدّام حسين كان يريد إحياء برنامج نوويّ. وقال تينيت في واحدة من كلماته النادرة في جامعة جورج تاون في واشنطن: "إنّ صدّام حسين لم يكن يمتلك أسلحة نوويّة لكنّه كان يريد أسلحة كهذه. العراق كان يعتزم إعادة بناء برنامج نوويّ في وقت ما... قد نكون بالغنا في تقدير التقدّم الذي كان يحقّقه صدّام".

وبينما تُتّهم أجهزة الاستخبارات بأنّها ذهبت حتّى خداع المسؤولين السياسيّين بشأن وجود أسلحة للدمار الشامل في العراق، ودفعهم باتّجاه قرار الحرب، أكّد تينيت أنّ أجهزة الاستخبارات لم تتعرّض لأيّ ضغوط لتضخيم التهديد الذي تشكّله هذه الأسلحة. وقال: "لم يقل لنا أحد شيئًا حول ما يجب أن نذكره وكيف نذكره".

ودافع تينيت عن المعلومات الاستخباراتيّة حول برنامج أسلحة الدمار الشامل في العراق التي تعرّضت لانتقادات حادّة في الأيّام الأخيرة وقال: "إنّ إضفاء طابع سياسيّ على تقرير تقييميّ بدون دراسة متأنّية للوقائع يؤدّي إلى إضعاف الاستخبارات ويعرّض البلاد لمزيد من الخطر... وفي مجال الاستخبارات لا يكون أحد محقًّا بشكل

كامل أو مخطئًا بشكل كامل، وهذا ينطبق أيضًا تمامًا على أسلحة الدمار الشامل لصدّام حسين... إنّ الاستخبارات في تعريفها تتعامل مع الغامض والمبهم والمجهول وما هو مخفيّ عمدًا... وإنّ نجاحًا ونتائج مثاليّة ليست مضمونة أبدًا في ما يتعلّق بجمع المعلومات... وإنّ فهم موضوع صعب مثل العراق يتطلّب صبرًا واهتمامًا".

من جهة أخرى أكّد تينيت على أنّ عمليّات البحث عن أسلحة الدمار الشامل في العراق يجب أن تستمرّ، معتبرًا أنّ العثور على ترسانة بيولوجيّة في العراق يحتاج إلى الوقت والصبر. ورأى أنّ عمليّات البحث يجب أن تستمرّ وستكون صعبة[1].

---

١ - أ.ف.ب.، ٥ شباط - فبراير ٢٠٠٤.

تعاوُن إستخباراتي أميركي - عراقي بَعدَ غَزو العراق

بينما كانت القوّات الأميركيّة وسائر قوّات التحالف تتعرّض في العراق للهجمات المختلفة، نقلَ بعض الأنباء في نهاية كانون الثاني - يناير ٢٠٠٤ أنّ مسؤولين عراقيّين كانوا يعملون مع وكالات استخبارات أميركيّة يعكفون على تشكيل جهاز مخابرات عراقيّ جديد هدفه القضاء على المقاتلين، وخصوصًا الوافدين من الخارج. وقالت صحيفة "نيو يورك تايمز" نقلاً عن مسؤولين عراقيّين وأميركيّين إنّ جهاز المخابرات الجديد سيضمّ بعض الأفراد السابقين في جهاز أمن الرئيس العراقي المخلوع صدّام حسين، وإنّه سيتلقّى على الأرجح تمويلاً من واشنطن.

وقال "ابراهيم الجنابي"، وهو عضو بارز في مجلس الحكم العراقي للصحيفة إنّ الجهاز الجديد سيضمّ بين ٥٠٠ و ٢,٠٠٠ فرد، ويُتوقّع أن يتمّ تشكيله قبل مدّة طويلة من قيام واشنطن بتسليم السلطة إلى حكومة عراقيّة بحلول ٣٠ حزيران - يونيو ٢٠٠٤. وقال إنّ عددًا كبيرًا من أفراد الجهاز سيعملون في بلدات حدوديّة لتحديد هويّة المقاتلين الأجانب الذين تسلّلوا إلى العراق، وسيراقبون أنشطتهم.

وقالت الصحيفة نقلاً عن مسؤولين أميركيّين إنّ وكالة المخابرات المركزيّة CIA تقوم بدور بارز في تشكيل الجهاز الجديد. ونقلت الصحيفة عن مسؤولين لم تكشف عن أسمائهم قولهم إنّ "أياد علاوي" رئيس لجنة الأمن بمجلس الحكم العراقيّ اجتمع مع "جورج تينيت" مدير وكالة المخابرات المركزيّة خارج واشنطن في كانون الثاني لبحث تشكيل الجهاز الجديد. وإنّ الجنابي مرشّح بارز لرئاسة جهاز المخابرات الجديد.

من جهته قال الجنابي إنّ أقلّ من خمسة في المئة من العاملين في وكالة المخابرات الجديدة سيتمّ تجنيدهم من صفوف أفراد المخابرات وقوّات الأمن الأخرى التي كانت تعمل خلال حكم صدّام. ونقلت صحيفة نيو يورك تايمز عن الجنابي قوله إنّه سيتمّ فرز هؤلاء لاستبعاد المذنبين في جرائم ضدّ حقوق الإنسان، وإنّ اتصالاتهم ومعرفتهم وخبرتهم قد يثبت أنّها نفيسة لا تقدّر بثمن[١].

المُخابَرات الإسرائيليَّة في العرَاق بعد غزَوه

في نبإ نقله بعض وسائل الإعلام في ٢٥ شباط ـ فبراير ٢٠٠٤ نقلاً عن أوساط مخابراتيّة في أوروبّا أنّ رئيس الوزراء الإسرائيليّ إرييل شارون وافق على تعزيز "خليّة العراق" التي تمّ تشكيلها بعد سقوط نظام صدّام حسين بعناصر إضافيّة من جهازَي المخابرات الخارجيّة "الموساد" والمخابرات العسكريّة "أمان". وتمّ الإبقاء على هيئة المستشارين التي تضمّ في عضويّتها الجنرال "إسحق موردخاي" والجنرال "موشي ليفي"، و"بنيامين بن إليعازر"، وثلاثتهم يهود من أصل عراقيّ، بالإضافة إلى "أوري لوبراني" آخر سفير لتلّ أبيب لدى طهران قبل قطع العلاقات بين البلدين إثر رحيل الشاه.

وقال النبأ أنّ "شعبة العراق" ستواصل تطوير النفوذ الإسرائيليّ في العراق الجديد بالاستناد إلى العلاقات القديمة مع جهاز مخابرات الحزب الديمقراطيّ الكردستانيّ

١ ـ وكالة "رويترز"، ٣١ كانون الثاني ـ يناير ٢٠٠٤.

المعروف باسم "الاسايش". وبحسب الاستراتيجيّة الإسرائيليّة الجديدة الخاصّة في العراق، قرّرت تلّ أبيب التخلّي عن المطالبة بتطبيع العلاقات مع بغداد واللجوء إلى محاورت إيجاد صيغ "إلتفافيّة".

وجنّد جهاز "شعبة العراق" الإسرائيلي العديد من العملاء المحليّين لتنفيذ عمليّات تخريب واغتيالات تستهدف العلماء العراقيّين وأساتذة الجامعات وحرق مساجد للسنّة والشيعة لإثارة حرب طائفيّة في العراق...

كما أسهم الجهاز الإسرائيليّ العامل تحت غطاء جنسيّات أوروبيّة في دعم إصدار العديد من المطبوعات الموزّعة حديثًا في الأسواق العراقيّة، بهدف استقطاب بعض الكتّاب للكتابة ضدّ فئة معيّنة، وحزب محدّد، لإثارة الخلافات والشكوك والنعرات داخل المجتمع العراقيّ.

ومن الصعب تقدير حجم نشاط جهاز "شعبة العراق"، غير أنّ التقارير الواردة من العراق تتحدّث عن مجالات في مختلف القطاعات تبدأ بالتعاون المباشر مع القوّات الأميركيّة في عمليّات مطاردة المقاومة العراقيّة مرورًا بإغراق الأسواق العراقيّة بالبضائع الإسرائيليّة التي تسوّق تحت أسماء شركات بولنديّة وقبرصيّة وتركيّة وانتهاء بغزو لوسائل الإعلام[1].

---

١ ـ هذه المعلومات بكاملها جاءت في رسالة الفغالي بدرا باخوس ـ باريس، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢٥ شباط ـ فبراير ٢٠٠٤، ص١.

التحوّل الليبيّ المُفَاجِئ

مساء الجمعة ١٩ كانون الأول - ديسمبر ٢٠٠٣، فاجأ الرئيس الليبي معمّر القذافي العالم بإعلانه عن تخلّي ليبيا عن أيّ برنامج لأسلحة الدمار الشامل، بما في ذلك إنتاج الأسلحة الكيميائيّة أو البيولوجيّة أو النوويّة.

ففي مساء ذلك اليوم، قام "عبد الرحمن شلقم" أمين اللجنة الشعبيّة العامّة للاتّصال الخارجيّ والتعاون الدوليّ، وهي التسمية الليبيّة لوزير الخارجيّة في الجماهيريّة الليبيّة، قام باستدعاء الصحافيّين فجأة ليتلو، من دون مقدّمات، بيانًا اعترفت فيه ليبيا للمرّة الأولى بأنّها حاولت تطوير أسلحة للدمار الشامل، وهو أمر نفته طرابلس الغرب باستمرار في السنوات الأخيرة. وقال شلقم إنّ ليبيا "دعت دول المنطقة إلى جعل منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل، ولأنّ دعوتها هذه لم تلقَ استجابة جديّة سعت إلى تطوير قدراتها الدفاعيّة". وأضاف الإعلان أنّ "الخبراء الليبيّين وخبراء الولايات المتّحدة والمملكة المتّحدة أجروا مناقشات حول أنشطة الجماهيريّة العربيّة الليبيّة الشعبيّة الاشتراكيّة العظمى في هذا المجال"، موضّحًا أنّ "الخبراء الليبيّين أطلعوا نظراءهم على الموادّ والمعدّات والبرامج التي تؤدّي إلى إنتاج أسلحة محظورة دوليًّا". وتابع أنّ "هذه الموادّ هي آلات الطرد وأوان لنقل موادّ كيميائيّة". وقال البيان "إنّ ليبيا قرّرت بإرادتها الحرّة بناء على المحادثات التخلّص من هذه الموادّ والمعدّات والبرامج وأن تكون خالية تمامًا من الأسلحة المحظورة دوليًّا"، مشيرًا إلى أنّ الولايات المتّحدة وبريطانيا عضوان دائمان في مجلس الأمن المسؤول

عن ضمان السلم والأمن الدوليّين. وأكّد شلقم في البيان الذي تلاه التزام ليبيا "بمعاهدة حظر الانتشار النوويّ واتّفاقيّة الضمانات للوكالة الدوليّة للطاقة النوويّة ومعاهدة الأسلحة الحيويّة وقبولها أيّ التزامات أخرى بما فيها البروتوكول الإضافي لاتّفاقيّة الضمانات لوكالة الطاقة النوويّة ومعاهدة الأسلحة الحيويّة والكيميائيّة".

وقال الرئيس الليبيّ بعد هذا الإعلان الذي عُرف بـ"إعلان طرابلس" إنّ "ليبيا ستلعب دورها العالميّ في بناء عالم خال من أسلحة الدمار الشامل". وقال أيضًا "إنّ البيان الليبيّ يشكّل خطوة حكيمة وشجاعة تستحقّ التأييد من الشعب الليبيّ لتلعب ليبيا دورها العمليّ في بناء عالم خال من أسلحة الدمار الشامل ومن كلّ أنواع الإرهاب". وأكّد القذافي أنّ "غاية ليبيا هي حفظ السلام والأمن والتقدّم بالبشريّة إلى الأمام".

من جهته، أكّد "سيف الإسلام القذّافي" نجل الزعيم الليبيّ معمّر القذّافي أنّ قرار ليبيا ينبغي أن يمهّد الطريق أمام تحسّن العلاقات مع الولايات المتّحدة وغيرها من القوى الكبرى. وقال لشبكة CNN التلفزيونيّة الأميركيّة "إنّه قرار مهمّ بالنسبة لليبيا لأنّنا أوّلاً وقبل كلّ شيء سنحصل على أسلحة دفاعيّة ولن تكون هناك عقوبات بعد ذلك على واردات الأسلحة الليبيّة. في الواقع، دأبنا التعاون حتّى قبل غزو العراق وقرّرنا الإعلان عمّا أسفر عنه ذلك التعاون قبل أسبوعين ويعني ذلك أنّه لا صلة لذلك بالقبض على صدّام ولا بغزو العراق".

لقد ربط كثيرون يومها هذا الإعلان المفاجئ بأحداث العراق، وخاصّة باعتقال القوّات الأميركيّة العاملة في العراق للرئيس المخلوع صدّام حسين قبل أقلّ من أسبوع من تاريخ صدور الإعلان، أي في الثالث عشر من كانون الأوّل ـ ديسمبر ٢٠٠٣. غير أنّه سرعان ما تبيّن أنّ هذا الإعلان قد جاء بعد تسعة أشهر من المفاوضات السريّة بين ليبيا والولايات المتّحدة الأميركيّة وبريطانيا. وأعلن مسؤولون أميركيّون

وبريطانيّون كبار تفقّدوا مواقع إنتاج الأسلحة الليبيّة خلال الأشهر التي سبقت الإعلان أنّهم عثروا على تجهيزات تمكّن من إنتاج اليورانيوم والقنابل الكيميائيّة. وأكّد أحد المسؤولين في البيت الأبيض للصحافيّين أنّ هؤلاء المسؤولين الأميركيّين والبريطانيّين قد شاهدوا أسلحة كيميائيّة ومؤشّرات تدلّ على وجود برنامج نوويّ متقدّم في أكثر من عشرة مواقع زاروها في تشرين الأول - أكتوبر وكانون الأول - ديسمبر ٢٠٠٣.

وقد أعلن مسؤولون أميركيّون كبار في الـ CIA أنّ زيارات سريّة قام بها ضبّاط استخبارات أميركيّة واجتماعات عقدت في ساعات متأخّرة من الليل مع الزعيم الليبيّ معمّر القذّافي. وأنّ ضبّاط استخبارات قد بقوا في ليبيا لمدّة استمرّت نحو أسبوعين، قاموا بزيارة مواقع شاهدوا فيها أجزاء من البرامج الكيماويّة والنوويّة والصاروخيّة في ليبيا. ورافق الضبّاط دائمًا "مرشدون" وسائقون كانوا يغيّرون السيّارات على طول الطريق، وتمّ إدخال الغربيّين إلى مبان إداريّة لعقد اجتماعات مع القذّافي كانت تبدأ بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً. وقال مسؤول أميركيّ كبير كان ضمن هذه الزيارات للصحافيّين شريطة عدم نشر اسمه: "عمليًا كنّا نقوم بهذه النشاطات بشكل سريّ بقدر إمكاننا، ومن ثمّ كانت فعلاً نتيجة سلسلة من الاجتماعات السريّة في أوروبا، وكانت بعد ذلك بالطبع زيارت تمّت في سريّة لليبيا". وأوضح المسؤولون الأميركيّون أنّ القذّافي كان القائد والمحرّك لهذه العمليّة التي أسفرت عن الإعلان الليبيّ غير العاديّ بشأن الأسلحة. وقال أحد ضبّاط المخابرات الأميركيّة الذين حضروا هذه الاجتماعات: "خلال الاجتماعات مع العقيد القذّافي كان ثابتًا طوال الوقت أنّ في نيّته المضيّ قدمًا بالاعتراف والتخلّص من برنامج أسلحة الدمار الشامل[1]".

---

١ - أ.ف.ب.؛ رويترز؛ ٢٠، ٢١ كانون الأول - ديسمبر ٢٠٠٣.

وأعلنت الوكالة المركزيّة للاستخبارات الأميركيّة CIA في تقرير رُفع إلى الكونغرس ونُشر في تشرين الثاني - نوفمبر ٢٠٠٣ إنّ ليبيا أنجزت تقدّمًا في مجال الأسلحة الكيميائيّة، لكنّها لم تحرز تقدّمًا كبيرًا في اقتناء أو تطوير السلاح النوويّ. وقال مسؤول أميركيّ كبير في البيت الأبيض: "في ما يخصّ السلاح النوويّ وحسبما فهمت، فإنّ الليبيّين يملكون برنامجًا متقدّمًا بما في ذلك الطرد المركزيّ" لتخصيب اليورانيوم للأسلحة النوويّة.

وبحسب الأمين المساعد للثقافة والإعلام في وزارة الخاجيّة الليبيّة "حسّونة الشاوش" أنّه "قبل ثلاثة أسابيع تمّ التوصّل إلى صيغة نهائيّة في هذا الخصوص واتّفقنا على الإعلان عن غلق هذا الملفّ نهائيًّا والتقدّم في علاقات متميّزة مع أميركا وتطوير علاقات قائمة مع بريطانيا، لكنّ ليبيا تمهّلت للظروف العربيّة المتأزّمة والوضع العربيّ المأساويّ، إلاّ أنّ (رئيس الوزراء البريطاني طوني) بلير اتّصل بالزعيم الليبي القذّافي قائلاً أنا متفهّم وجهة نظركم لكنّني أرجوكم الإعلان عن ذلك لأنّنا متلهّفون لعودة العلاقات معكم و(الرئيس الأميركيّ جورج) بوش ينتظر هذا الإعلان لانطلاق علاقات جديدة وأرحب مع ليبيا".

بُعيد إذاعة "إعلان طرابلس" أكّد الرئيس الأميركيّ جورج بوش أنّ ليبيا بدأت العمليّة التي تسمح بالعودة إلى الأسرة الدوليّة". وأوضح أنّ المحادثات استغرقت تسعة أشهر وجرت بسريّة تامّة.

وأعلن مسؤول كبير في إدارة الرئيس جورج بوش أنّ ليبيا تتحرّك "في الإتّجاه الصحيح" من خلال الوعد الذي قدّمته بالتخلّي عن أسلحة الدمار الشامل، لكنّه من السابق لأوانه قول متى وما إذا كانت الولايات المتّحدة سترفع العقوبات في تحرّك يمكن أن يفيد شركات النفط الأميركيّة.

وقال مسؤول كبير في الإدارة الأميركيّة "إنّنا في البداية، الليبيّون يريدون العمل مع الولايات المتّحدة لكنّنا نتحرّك خطوة خطوة... سنعمل معهم ما داموا جادّين في مبادرتهم. لسنا في مرحلة بحث كيف سيؤثّر ذلك على نظام العقوبات".

وقالت وزارة الطاقة الأميركيّة إنّ رفع العقوبات يمكن أن يسمح لشركات النفط الأميركيّة بالعودة إلى ليبيا حيث كانت شركات أميركيّة تنتج في وقت من الأوقات أكثر من مليون برميل يوميًّا وحيث يمكن تعزيز منشآت النفط لتصل بالإنتاج إلى مليونيّ برميل يوميًّا خلال خمس سنوات.

وقال وزير الخارجيّة البريطانيّ "جاك سترو" إنّ الزعيم الليبيّ العقيد معمّر القذافيّ يستحقّ التصفيق. فقال في حديث لهيئة الإذاعة البريطانيّة BBC "إنّ القذّافي الذي أخذ المبادرة في إجراء اتّصالات مع بريطانيا في آذار - مارس الماضي يستحقّ بأن يصفّق له دون تحفّظ لما قام به". وقال "إنّه رجل دولة عظيم، فنحن نعرف جميعًا تاريخ ليبيا لكن علينا أن نحكم على الأشخاص بأفعالهم، وبما أنّني أعرف سير هذه المفاوضات أعتقد أنّ القرارات التي اتّخذها وحكومته شجاعة ولها أبعاد سياسيّة مهمّة".

واعتبر وزير الخارجيّة الفرنسيّ "دومينيك دوفيلبان" أنّ القرار الليبيّ خطوة مهمّة نحو العودة إلى المجتمع الدوليّ.

وبعد ساعات على الحدث وتداعياته، أعلنت صحيفة "صانداي تايمز" عن لقاء قريب متوقّع بين بوش وبلير والقذّافي سيعقد في بلد محايد، لمتابعة الحوار مع القذّافي بشأن التحوّل الذي انتهجه النظام الليبيّ. وفي ظلّ الحديث عن هذا اللقاء المرتقب، دار الحديث في الأروقة السياسيّة الأميركيّة عن خطوة ربّما تلي هذا اللقاء، وهي أنّ الإدارة الأميركيّة بالتعاون مع اللوبي اليهوديّ الضاغط في واشنطن يعملان على خطوة نوعيّة على طريق تفتيت الأنظمة، وهي جمع القذافي مع شارون على طاولة

واحدة تزيد من الانقسام العربيّ الحاصل، ومن شأنها أيضًا أن تشجّع بعض الأنظمة السائرة في الركب الأميركيّ إلى حذو الطريق ذاتها[1].

وفي ٢٣ كانون الثاني - يناير ٢٠٠٤، أعلن مسؤول أميركيّ رفيع أنّ ليبيا تتعاون بشكل كامل مع فريق من المسؤولين الأميركيّين والبريطانيّين الزائرين يدرسون كيفيّة إزالة وتدمير برامج أسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها. وتحدّث المسؤول عن إمكانيّة أن تبدأ واشنطن خلال أشهر في تخفيف العقوبات الاقتصاديّة التي تفرضها على ليبيا إذا استمرّت في التعاون في ما يتعلّق بالأسلحة وفي ما يتعلّق بمزاعم واشنطن عن دعمها للإرهاب، والتدخّل في السياسات الأفريقيّة.

وفي بادرة على تحسّن العلاقات زار وفد من الكونغرس ليبيا لأوّل مرّة منذ أن تسلّم الزعيم الليبيّ معمّر القذافي السلطة قبل ٣٥ عامًا. وأكّد مسؤول على أنّ وفدًا يضمّ ما يتراوح بين ١٢ و١٥ خبير أسلحة أميركيًّا وبريطانيًّا وصل إلى ليبيا قبل أقلّ من أسبوع وأنّه يحصل على ما يريد من المسؤولين الليبيّين. وذكر أنّ الوفد قد يكون مستعدًّا قريبًا للبدء في إزالة معدّات ذات صلة بالأسلحة. وقال المسؤول : "حتّى الآن الليبيّون متعاونون... الأمر متروك من يوم ليوم. لم يتبرّم أحد من أيّ شيء حتّى الآن". وأكّد بأنّ ليبيا نفت امتلاكها أسلحة بيولوجيّة هجوميّة لكنّه استطرد قائلاً: "هذا موضوع يتطلّب المزيد من المناقشات". وحين سئل عن موعد رفع العقوبات إذا تعاونت ليبيا تعاونًا كاملاً قال "أعتقد أنّنا نتحدّث هنا عن أشهر... هذا تقدير مناسب"[2].

---

١ - أ.ف.ب.؛ رويترز؛ ٢٠، ٢١ كانون الأول - ديسمبر ٢٠٠٣.

٢ - رويترز، ٢٢ كانون الثاني - يناير ٢٠٠٤.

وبالفعل، ففي الخامس والعشرين من كانون الثاني - يناير بدأ ثمانية نوّاب أميركيّين وصلوا إلى طرابلس الغرب بزيارة إلى ليبيا وصفها رئيس الوفد بأنّها "تاريخيّة"، مؤكّدً أنّ الهدف منها هو التمهيد لاستئناف العلاقات الدبلوماسيّة بين البلدين اللذين كانت تقوم بينهما عداوة مزمنة تعود إلى أكثر من ثلاثين عامًا. وقال رئيس الوفد النائب الجمهوري "كورت ولدن" الذي وصل في طائرة عسكريّة أميركيّة: "إنّها لمناسبة سعيدة أن يقوم سبعة نوّاب بزيارة ليبيا". وكان وصل قبل يوم واحد إلى طرابلس النائب الديمقراطي "توم لانتوس"، عضو لجنة الشؤون الخارجيّة في مجلس النوّاب الأميركيّ. وصرّح ولدن بقوله: "نريد أن نشكر القذّافي على الخطوات التي اتّخذها لحلّ بعض المشاكل السابقة وعلى قيادته التي حرّكت ليبيا وجعلتها ضمن اتّفاقيّات الحدّ من انتشار الأسلحة والتزامه بتدمير أسلحة الدمار الشامل الليبيّة... نريد أن نقول له نحن هنا لنبدأ عهدًا جديدًا مع ليبيا ولننقل رسالة إلى الشعب الأميركيّ بأنّ زيارتنا ناجحة وإيجابيّة أكثر ممّا كنّا نتوقّع". ونُقل عن النوّاب الأميركيّين أنّهم وصفوا خطوة ليبيا لنزع أسلحة الدمار الشامل الليبيّة بأنّها "خطوة شجاعة وذكيّة".

والتقى وفد الكونغرس الزعيم الليبيّ معمّر القذّافي ورئيس الوزراء الليبي "شكري غانم" ودعاه إلى زيارة الولايات المتّحدة. وقال رئيس الوزراء الليبيّ بعد اللقاء "إنّ الوفد سيعمل قريبًا على رفع الحظر الأميركيّ على ليبيا وعودة الشركات النفطيّة خاصّة أنّ هذه الشركات تلحّ على العودة. ويتوقّع في خلال سنة أن تعود العلاقات بين البلدين". وشدّد غانم على "أنّ الشركات الأميركيّة تأمل في الاستثمار في ليبيا في كافّة المجالات"[١].

---

١ ـ أ.ف.ب.، ٢٥ كانون الثاني - يناير ٢٠٠٤.

المراجع والفهرس

لائحة المراجع

أبو النصر عمر، إيلي كوهين جاسوس إسرائيل في دمشق (بيروت،١٩٦٨)

ألدوبي تسفي، الجاسوسيّة الاسرائيليّة وحرب الأيّام الستّة، تعريب غسّان النوفلي (١٩٧٢)

أيزنبرغ دينيس وآخرون، الموساد جهاز المخابرات الإسرائيليّة السرّي، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت،١٩٨١)

جريدة "الحياة" اللبنانيّة

جريدة "الديار" اللبنانيّة.

جريدة "السفير" اللبنانيّة.

جريدة "النهار" اللبنانيّة.

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

الجزائري سعيد، المخابرات والعالم، منشورات مكتبة النوري (دمشق، لا.ت.)

الجزائري سعيد، حرب المخابرات السريّة في أزمة الخليج وأسبابها الحقيقيّة، دار الجيل (بيروت،١٩٩٢)

الجزائري سعيد، ملفّ التسعينات عن أعمال المخابرات، دار الجيل (بيروت،١٩٩٧)

حتّي د. فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. كمال اليازجي، مراجعة د. جبرائيل جبّور، دار الثقافة (بيروت،١٩٥٩)

رافيف دان، وميلمان يوسي، كلّ جاسوس أمير، تعريب ممدوح لطفي، دار الكتاب العربي (دمشق،١٩٩١)

زهر الدين د. صالح، الموساد بين الإخفاق والاختراق، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣).

زهر الدين د. صالح، الوطن العربي والموساد، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زهر الدين د. صالح، عمليّات وقرصنة إلكترونيّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زهر الدين د. صالح، ملفّ الاستخبارات الإسرائيليّة، المركز الثقافي اللبناني (بيروت،٢٠٠٣)

زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط، دار النهار للنشر (بيروت،١٩٧٧)

صالح محمود عابدين، المخابرات والأمن والجاسوسيّة مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

طوماس غوردون، إنحطاط الموساد، إغتيالات وأكاذيب وارتزاق، ترجمة د. محمّد معتوق، دار بيسان (بيروت،٢٠٠٠)

عمّار نزار، الاستخبارات الإسرائيليّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت،١٩٧٦)

الفاتح زهدي، لورنس العرب على خطّ هرتزل، دار النفائس (بيروت،١٩٧١)

الفالوجي فريد، جواسيس الموساد العرب، مكتبة مدبولي (القاهرة،٢٠٠٣)

الفغالي بدرا باخوس، جريدة "الديار" اللبنانيّة، عدد ٢١ كانون الأول - ديسمبر ٢٠٠٣.

قلعجي قدري، مناقشة آراء العلماء والسادة السوفيات، دار الكتاب العربي (بيروت،١٩٧٢)

مجلّة "القضايا المعاصرة" اللبنانيّة.

الموسوعة العربيّة الميسّرة، دار الجيل والجمعيّة المصريّة لنشر المعرفة والثقافة العالميّة، ط٢ (بيروت،٢٠٠١)

وكالة "رويترز".

وكالة أ.ف.ب.

Antonius George, *The Arab Awakening* (Philadelphia,1939)

Churchill Colonel, *Mount Lebanon, a Ten Years Residence from 1842 to 185*, Vol. I, (London, 1853).

Earle Edward Mead, *Turkey, The Great powers and the Bagdad Railwail* (New York,1923)

Lawrence T. E., *Seven Pillars of Wisdom* (New York,1938)

Ramsay W. M., *The Histirical Geography of Asia Minor* (London,1890)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المخابرات السوريّة وعمليّة اعتقال إيلي كوهين	٥
المكتب الثاني اللبناني	٨
المخابرات اللبنانيّة وعمليَّة اعتقَال العميل أحمَد الحلاّق	١٩
قصَّة شولا	٢٧
كَشفُ شبَكَة تجسُّس إسرائيليَّة في لبنَان	٣٨
كشف شبكة أخرى كانت تعدّ لاغتيال نصرالله ومشعل وآخرين	٤١
جهاز أمن المُقاومَة الإسلاميّة في حزب الله	٤٣
مَا هُوَ دَورُ الاستخبَارَات الأردنيَّة في اعتقَال صدَّام حُسَين	٥٠
الجاسوس الإسرَائيليّ "يانا بقاعي"	٥٢
العمَليَّة التي أزّمت العلاقَات الأردنيَّة ـ الإسرائيليَّة	٥٢
نجاة عمّان من ٢٠ إلى ٨٠ ألف قتيل	٥٤
المخَابَرات السُّودانيَّة	٥٩
تورُّط النمَيري وجهَاز استخبَاراته في نقل "الفلاشا" إلى إسرائيل	٧٣

الموضوع	الصفحة
حرب المخابرات العراقيَّة الإسرائيليَّة	٧٩
زكي حبيب: الانتصار الهزيل	٨٨
عيزرا خزام، أغوته "جنّة" فسقط	٩٨
ناجي زلخا: جاسوس في شوارع بغداد	١١١
يعقوب جاسم وفروزندة وثوقي	١٢٩
فيكتور مناحيم: الشبكة العائلية	١٤٥
عبد الله سليمان: الجاسوس الدميم	١٦١
إبراهام موشيه: مولتي تشاو	١٧٢
المخابرات العراقيّة وسُقُوط العَميل الإسرَائيلي فرزَاد بَازُوفت	١٨٦
هَل تَعاوَنت الاستخبَارات العراقيَّة مع قوّات التحالف؟	١٩٩
مَن وشَى بصدّام إلى القوّات الأميركيّة؟	٢٠٠
صدّام لجأ إلى عَشيرَته، وساعده الأيمَن "حنوش"	٢٠٢
التحقيق فـي مَعلومَـات المخَـابرات الأميركيَـة والبريطانيَّـة حـولَ أسلحة العرَاق	٢٠٤
تعَاوُن إستخبارَاتي أميركي - عرَاقي بَعدَ غَزو العراق	٢١٠
المُخابَرات الإسرَائيليَّة في العرَاق بعد غَزوه	٢١١
التحوّل الليبيُّ المُفَاجئ	٢١٣

Bibliotheca Alexandrina
0586428